فنون التحرير الصحفى
بين الأصالة والمعاصرة
١

أدب الجاحظ
من زاوية صحفية

دكتور محمود أدهم

بسم الله الرحمن الرحيم

« ... ذلك فضـل الله يؤتيه من يشـــاء والله ذو الفضل العظيم »

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بسم الله وبعونه تعالى ، نبدأ هذه السلسلة الجـــديدة وهى الثالثة من سلاسل مؤلفاتنا ، تلك التى رأينا أن تكون تحت عنوان : « فنـــون التحرير الصحفى ·· بين الأصالة والمعاصرة » ·· بعد أن أخذت الأولى اسم : « فنون التحرير الصحفى بين النظرية والتطبيق » ·· وأخذت الثانية اسم : «دراسات فى صحافة المجلة » ·

وهذه السلسلة الجديدة ، تقوم على فكرة تقول : اذا كانت كثرة من مؤرخى الأدب والصحافة ومن المؤلفين عامة فى الميدانين يعودون بهما الى الأصول والجذور الأوربية ، ويغضون الفكر والنظر عن غيرها فى أحـــوال كثيرة ، فان باستطاعة التراث الفكرى العربى الأصيل والثرى والذى لا ينضب معينه أن يقدم هو الآخر ، ما يثبت أن كثيرا من فنون وأنماط وأطر الحاضر الاتصالى الصحفى كانت لها جذورها ، بل ومقدماتها وطلائعهـــا ـ الأكثر تقدما فى أحيان كثيرة ـ تلك التى رصدتها وتابعتها وحررتها وسجلتها ونشرتها منذ مئات السنين ، أقلام عدد غير قليل من رواد الفكر والأدب والثقـــافة العربية ·· وظهرت بين سطور ابداعهم ·

اننا ـ كعرب ومسلمين ـ أصحاب حضارات عظيمة أخـلاقية وأدبية وفنية وعلمية وانشائية كبرى ، فلماذا لا نستلهم هذه الألوان كلها ؟ نعم لماذا لا نستلهم هذا التراث العظيم الزاخر ، مادمنا نحن أصحابه ؟

ومن هنا ، فقد توكلت على الله ورحت أغوص فى محيط هذا التراث . أنظر هنا وهناك ، وأقرأ وانتقى وأدقق وأقارن وأحلل ، فيزداد يقينى بقيمته من زاوية اتصالية وأدبية معا ، وتأخذ بى كتابات كثيرة أشرت الى بعضها اشارات عديدة ، فى مؤلفات سابقة لى . ترى ·· هل كان باســـتطاعتى تجاهلها ؟

لكن ·· وحتى قبل هذه بسنوات ، فان اسما من الأسماء لم يشدنى الى ابداعه ، من منظور اعلامى صحفى ، ولم يقطع الطريق على اثناء دراستى

لفنون التحرير الصحفى ٠٠ كلها ، فتقوم كتاباته بعمل « اختراق » قوى ، لما أفكر فيه ، وما أتناوله من مادة اخبارية ، أو موضوعات أو قصص أو تقارير أو مقالات صحفية ٠٠ مثل هذا الرجل الموسوعى المكون من عدة رجال ، والذى كان وراء الكثير من الجديد المتطور الذى دخل الى لغتنا العربية والى أدبنا العربى فكرا وموضوعا ، مفردات وأسلوبا ، ومن ثم فقد رأيت أن أقف عنده ، بغية تقديم ما يتصل بهذا الجانب ، وأصبح ذلك الاحساس يصاحبنى كثيرا ، ويدفعنى الى المزيد من التعرف على هذا الرجل ، والتوغل فى عالمه الموسوعى ، من أجل الهدف نفسه ٠

ثم عاد « **الطارق الجاحظى** » يلح على بعنف ، ويطرق باب فكرى بشدة وأنا أقوم بجمع مادة رسالتى للماجستير وكان موضوعها : « **فن التحقيق الصحفى المصور** » ٠٠ حيث تأكد لى أن بعض كتابات الرجل ، يمكن اعتبارها من بين جذور هذه المادة القياسية ومقدماتها فى أدبنا العربى ٠٠ بل أن دراساتى التحريرية التالية لهذه الدراسة والتى تناولت عددا من الفنون الأخرى ٠٠ جميعها راحت تؤكد هذه الرؤية ، بشكل أو بآخر ، وان اختلفت المسافات بين الكتابات الجاحظية ، وبين هذه الفنون ، فهى حينا تقف بالقرب الشديد منها ، وفى حين آخر تقترب منها فقط ، وفى حين ثالث تبدو بعيده عنها ، لكن هذا البعد ليس تاما ، ولا كاملا ، وانما يمكن أيضا رؤية عدد من وجوه الشبه أو العوامل المشتركة ٠٠ بالعين المجردة ، فضلا عن ان هذا الاختلاف ، هو من طابع الجذور والمقدمات ذاتها ، وذلك بصرف النظر عن عنصر « الطباعة » واستخدام بعض التعبيرات الصحفية الحديثة ، وما يتصل بالعصرين ، عصر الرجل وعصرنا من فروق عديدة ، وما الى ذلك كله ٠٠

ولم يكن لى ، ولا كان باستطاعتى أن أنتظر أكثر من ذلك كله ، لا سيما وأنا أرى بعض ما قدمت من مادة علمية صحفية ومن أفكار جديدة تماما ، أو ما تناولت من أفكار معروفة ، من أكثر من زاوية جديدة ، ومن خلال اكثر من رؤية جديدة — والحمد لله وحده — أرى بعضهم وقد راح يختلسها أو يبتزها ، ويستحلها لنفسه دون اشارة ، أو باشارة باهتة عقيمة الى قلة قليلة مما يأخذ ، أو بثبت نفس مصادرى أو بغير ذلك من أساليب ملتوية وغير صحيحة ٠٠ نبهت اليها فى كتب سابقة ، ونبه « الجاحظ » اليها منذ أكثر من عشرة قرون !! ٠٠

ومن هنا فقد رايت ان تخرج هذه الصفحات الى النور ، تلك التى أريد ان اقول بشانها :

● اننى اعرف تماما ، وربما أكثر من عديدين ، ان الأدب أدب ، وأن الصحافة صحافة، لكننى أيضا، ومن خلال دراسات عديدة ولقاءات متصلة مع أصحاب التجربة الصحفية الحية والثرية ·· أعرف كذلك ان للاعـــلام بلاغته ، وأن هناك ما يمكن أن نطلق عليه اليوم ، وما سوف نطلق عليه غدا : « **الأدب الصحفى** » ، وهما « **بلاغة الاعلام** » من جانب ، و « **الأدب الصحفى**» من جانب آخر لابد وأن تقوم صلات النسب والقرابة ، بينهما وبين البلاغة بمعناها الأدبى ، لأنها المعين الأساسى لهما ·

● ثم ·· هل هناك ما يمنع ــ حتى اليوم ــ من ان يكون بين أعضاء الأسرة الصحفية ذلك الرجل الواحد الذى يجمَع فى شخصه الواحد ، بين الأديب وبين الصحفى ؟ على الرغم مما فى ذلك من صعوبة يبررها هنا أنه لا يكون شخصا عاديا ، أو محررا عاديا ، وانما من هذه القلة ، أو القــلة النادرة من الموهوبين والمبدعين ؟!

● انه لا يمكننى ولا أستطيع ولا اقـــدر ·· ان انزع عن **الجاحظ** صفته الأدبية ، او حتى اقوم بالمحاولة ، لأضفى عليه الصفة الصحفية ·· انما أنا اقول فقط ان اديب العربية الأكبر ، كان له جانبه الذى يمكن أن نطلق عليه أنه « **جانب صحفى** » ، وكانت له أفكاره وتوجهاته واهتماماته التى يمكن أن نقول عنها أنها كانت « صحفية » وفق التعبير الحديث ، والتى سبق بها غيـــره ·

● أننى اقول ، أن هذه النتيجة التى توصـــلت اليها ، والتى رحت اعدد مقدماتها وشواهدها خلال صفحات الكتاب ، يمكن أن يتوصل اليهــا أيضا كل دارس ومهتم بأدبه ، اذا كان على قدر كاف من المعرفة بالصحافة عامة ، وفنون التحرير الصحفى وتاريخها وأسسها وقواعدها خاصة ، وبالمثل يمكن أن يتوصل اليها كل دارس ومهتم بهذه الفنون الأخيرة ، اذا مد بصره نحو التراث الجاحظى ، وحاول ونجحت محاولته فى الاغتراف من معين فكره وعلمـــه ·

● لكننى بنفس القدر ، أستبعد أن يوافقنى حتى على قليل مما جاء خلال الصفحات القادمة ٠٠ ولا أطمع فى ذلك ، رجل لم يعرف الجاحظ حق المعرفة ، ورجل لم يعرف الصحافة على نفس القدر ٠٠ أو اقل منه قليلا ٠

● ومن هنا فاننى وان كنت أقدم الدعوة الى كليات ومعاهد وأقسام الاعلام وعلوم الاتصال والصحافة بالعالم العربى ، من أجل العناية بدراسة امثال هذه الموضوعات وتدريسها أيضا لربط الماضى بالحاضر ومن أجـــل استلهام تجارب السلف وتتبع آثارهم ووضعها فى مكانها الصحيح ، **فاننى أوجه كذلك الدعوة نفسها الى رجال اللغة العربية وأدبها ، هؤلاء الذين أطمع فى عونهم واضافاتهم من أجل تأصيل عربى لفنون التحرير الصحفى ، ولاشك أنهم أكثر منى قدرة على ذلك ، وأصبر عليه ، وأجدر به ٠٠ وكلانا هنا يكمل الآخر ، ولا يعارضه أو يسلبه حقه ٠ ٠**

على أننى أقول أن هذا الكتاب ليس منتهى الأمل بالنســـبة للتراث الجاحظى ، فهو ككل كتاب آخر لابد وأن تعتوره جوانب نقص هى من طابع البشر والكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، ومن ثم فلنا عودة الى هذا التراث، من أكثر من زاوية أخرى ، بل لنا باذن الله عودة الى آخرين ، ننظر اليهم من نفس الزاوية أيضا ، حتى ان راح البعض يقول أننا جذبنا الأدب من شعره لنجعله صحافة ، ولوينا عنق الصحافة لنجعلها أدبا ٠٠ ولهؤلاء أقول ٠٠ طالعوا أولا ، ابحثوا وادرسوا الأدب والصحافة معا بفكر جديد ، محايد وموضوعى تعرفوا أننا نملك أيضا أدبا صحفيا جديرا بالبحث والدرس ٠٠ والتكريم ٠٠ والله من وراء القصد ٠

المؤلف

د٠ محمود أدهم

الفصـــــل الأول

عن الصـــحافة
والصحافيين ..
والأدب الصـــحفى

ان المدخل الطبيعى الى هذا الموضوع يمكن تحديده من خلال طرح أكثر من سؤال تتصل ببعضها فى مجموعها ، وتتشابك وتعود فتلتقى فى النهاية ، حول الغرض المحدد نفسه ، وهو اثبات أن لنا فى الجاحظ ـ نحن أرباب مهنة الصحافة بعضا مما لرجال الأدب وأضيف ، ومثل مجموع ما لرجال الدراسات الاسلامية واللغوية ، والفلسفية والعلمية فى تراث هذا الرجل أيضا ٠٠ بل ربما تفوق ما لنا فيه ، على ما لهؤلاء ، حتى ليمكننا أن نتقاسمه نحن والأدباء سواء بسواء ٠٠

ذلك كله قبل أن ندل على مثلها ، بالأقوال والأفعال ، لمعاصريه ، أو لمعاصرينا ، أو من خلال مؤلفاته ومؤلفاتهم ، المعروف منها ، وغير المعروف ٠٠

فهل كان ما قدمه الجاحظ للمكتبة العربية هو من جنس مـــادة الأدب فقط ؟ أو كان أديبا فقط ؟ حتى يقال عنه ، كما عرف دائما ، أنه أديب العربية الكبير ، أو الأكبر ، أو أنه يعتبر واحدا من أدبائها الأفذاذ ٠٠ وأقول : من أدبائها فقط ؟

أم ان هذه الصفة الأدبية قد طغت عليه طغيانا ، والتصقت به التصاقا ، حتى كادت تذوب معها ، أو تنصهر فى بوتقتها أو تختفى فى ظلالها صفاته الأخرى العديدة وخصائصه الفريدة ، واتجاهاته الشمولية الواضحة ؟

مع أن هذه الصفات الأخرى ، وتلك الخصائص التى لازمته وعرف بها ، وكانت علما عليه ، معروفة تماما ، وواضحة للعيان ، ولا تستطيع أن تتجاهلها عين الخبير بمجرد القاء النظر وأعمال الفكر فى هذا التراث الجاحظى نفسه، المطبوع وغير المطبوع ، لا سيما عندما تنظر اليها هذه العين ، نظرة حياد كاملة ، بعد أن تضعها فى ضوء معطيات العلم ، التى تقرر ما لهذا العلم ، وما لغيره ، وبمراعاة الظروف السائدة ٠

اقول ٠٠ كان الجاحظ ـ بنتاجه وآثاره ـ اديبا وصحفيا وباحثا وعالما، بل واقول أنه كان فيلسوفا أيضا ، كان كل هؤلاء معـــا ، وكان أكثر من كل هؤلاء ، اجتمعوا جميعا فى شخصه ، واتفق اجتماعهم عليـــه ، وكانوا من مكوناته ، أو من معالم شموليته ٠٠

لكننا ـ بالطبع ـ لن نتناول على نفس القــــدر والمســــتوى الجوانب الأخيرة . من هذه المكونات ، بل سيكون تركيزنا أولا ، وبادىء ذى بدء على تناول هذا الرجل ، من تلك الزاوية التى اجتمعت له على المستويين الأدبى والصحفى . أو الصحفى والأدبى ، وان كنا نقول مقدما ونحاول أن نثبت ذلك خلال السطور القادمة ، أن هذه الجوانب الأخيرة نفسها ، جوانب التعدد فى العلوم والمعارف بالقدر الذى جاءت عليه ، أو كان عليه صاحبها ، مما يثبت دعوى الجانب الصحفى عند الجاحظ ٠

بل اننى ـ فى هذا المجال ـ أذهب الى أبعد من ذلك فاقول اننى أزعم هنا أن أحدا من الأدباء أو المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو الكاتبين ممن سبق الجاحظ بقليل من الحقب ، أو بكثير منها ، على المستوى العربى ، أو غيره، عند المصريين القدماء ، أو أهل الساحل الفينيقى ، أو الاغريق أو الرومان أو الصين ، أو غيرها ، أزعم أن أحدا من مفكرى هؤلاء الأقوام وفى حدود علمى . لم يسبق الجاحظ الى هذا القدر من « الشمولية » والى هذه الدرجة من « الموسوعية » ٠٠ والى طريقته وتعدد جوانبه ٠٠

فالبعض فى مصر القديمة ٠ كان قصاصا ، يؤلف القصص الأسطورى أولا ، الذى انتقل من جيل الى جيل ، والبعض كان كاتب حكم ومواعظ ، يكتب ذلك اللون الذى يحث على عمل الخير ، ويحض على مراعاة القيم والمبادىء، والبعض الثالث كان شاعرا ـ بنتئور وأتباعه ـ والبعض الرابع كان اعلاميا اخباريا عمل على أن تكون الأهرامات وجدران المعابد والهياكل والمســــلات والمقابر ثم الأحجار والجلود صحفه التى تلائم عصره والبعض الخامس كان رحالة يكتب مذكرات رحلته ، هذا كله فى مصر القديمة ، اما فى بلاد فينيقيا فقد ساد أدب البحر وسادت أساطيره وأغانيه وألوان « فولكلوره » ٠٠ مع بعض القصص البحرية ، حقيقية أو خرافية ، وأما فى أمم الغرب القديمة ، فقد ساد الشعر ، خاصة شعر الملاحم ، والشعر التمثيلى ، والغنائى ، وسادت الخطابة ، وساد فن المسرح ٠ وكان لكل رجاله الأفذاذ ، كانوا شعراء ، أو خطباء ، أو رجال أخبار فقط ٠٠ ومثلهم كان عرب الجاهلية وصدر الاسلام . والا . فليدلنى أحدكم على رجل آخر سبقه ، يكون من طرازه ٠

لا أعرف أن أحدا منهم قد اجتمعت له كل هذه الصنوف والقطوف ،

وقد دانت له كل هاتيك الثمار مثل رجلنا ، لماذا اذن لا نقول أنه أول الشموليين وأول « الموسوعيين » ؟!

لكن الطابع الخاص الذى كان عليه ، وكتب به ، وأسلوبه فى التناول والأداء والكتابة وعلى الرغم من هذه الشمولية نفسها ، يجعل منه الأقرب مكانا الى اللون الصحفى ،بل يجعلنا نزعم بأن هذا الرجل قد سبق جميع أدباء عصره الى ذلك ، بل والسابقين عليه أيضا ومن ثم فانه يجوز اعتباره – استنادا الى ذلك – ومن زاوية زمنية تاريخية ، على أنه صحفى العربية الأول . وان كنت قد قدمت لذلك بهذه الكلمات التى تعنى عدم معرفتى بأحد ممن سبقه الى تلك المنزلة ، على مستوى الحضارات الأخرى ، فاننى أحدد هنا ذلك ، تحديدا زمنيا وفنيا وتكفينى هذه الاشارة الى هذا السبق الزمنى على المستوى العربى لأن حدود علمى قد لا تمتد الى أماكن العمق فى الآداب الأجنبية ، التى قد يكون هناك ممن كتبوا بلغات أخرى ، من هو سابق عليه فى هذه الخصائص كلها .

لكنه ، وهو من أزعم بريادته الصحفية على المستوى العربى ، لم يكن – بالطبع – صحفيا من هؤلاء الذين يقنعون من حصاد يومهم بخبر أو بخبرين أو بعشرة أخبار عادية أو روتينية أو رتيبة ، أو بزيارة الى موقع عمله وقضاء لبعض الوقت ثم نقل لبعض الأخبار السهلة ، أو ما أطلقت عليه وأنا أنتقد بعضها « أخبار اليد الأولى » أو « الأخبار الجدرانية » التى يراها الجميع عند مدخل المكان ، أو « معلقة » على لوحة الاعلانات ، أو تلك التى لا يبذل من ورائها جهد ما فى سبيل الحصول عليها ، كذلك فلم يكن هو ذلك الذى يتبع الطريق السهل ، أو يعيش حياته على خبطة أوأكثر أو يكتفى ببضعة مقالات هنا أو هناك ، أو ينتظر حتى تصل اليه المصادر ، أو تصله النشرة الصحفية حتى باب مكتبه ، أو يتوقف عند حد تقديم ما حصل عليه دون تفكير أو تعليق أو شرح أو تقديم لما وراء الأخبار وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، فى الزمن الماضى والحاضر والمستقبل .. وغيرها وغيرها .

كان الجاحظ صحفيا ، بمفهوم عصره ، وبما نعنيه الآن عندما نقول « الكاتب الصحفى » بكل ما تمتد اليه الكلمة من أبعاد وأطراف ، وما يتصل بها من جوانب وما توحيه من ظلال أيضا ، كان من طبقة المحررين الشموليين الموسوعيين الذين نعنيهم عندما نقول أن فلانا هو محرر صحيفة « كذا » أو مجلة « كيت » .. انه هنا ليس المحرر العادى ، وانما كبير المحررين ، وربما

رئيس التحرير نفسه ، وربما يكون أكبر من رئيس التحرير نفسه ، بمصادره وثقافته واتصالاته ونفوذه ، وقبلها جميعا ، بقلمه ومســـتوى كتابته هكذا كان ، ولم يكن مثل من ذكرت من المخبرين أو المندوبين ، أو العـــاديين من الكاتبين ، لكن من هم هؤلاء ؟ وما هى « مواصفاتهم » أو « خصائصهم » ؟ ٠٠

عن الأدب
وعن الصـحافة

ان كنا نحاول فى هذه السطور أن نقول بأن الرجل كان للأدب والصحافة معا أو كما قلنا فى كتاب سابق لنا من انه كان ممثلا صادقا لطلائع هؤلاء الرجال الذين كان « تصفهم للأدب ، وتصفهم للصحافة » ٠٠ اكثر مما كانوا لغيرهما ، أو للمعارف الأخرى ، فان الاتجاه الطبيعى لمسيرة هذه الكلمات أن نعرف أولا بهذين ، الأدب والصحافة معا ، لكننا بطبيعة الحال ، لن نتوقف كثيرا عند التعريف بالأدب ، أو بفنونه ، فذلك ليس هدفنا ، الا ما يتصل منها بما نريد بيانه وجلاء ما يقترب منه أو يقربه من موضوعنا ، تماما كما أن الغاية ليست هى اثبات أن « الجاحظ » كان أديبا ، أو كان أكبر أدباء العربية، وانما هى اثبات أن للرجل جوانبه الصحفية ، وانتاجه المتصل بصاحبة الجلالة وأشكال فنه الممتزجة بفنون تحريرها ، وحتى اكثرها « معاصرة » أو «حداثة» بل وأسلوبه ، الذى كان أقرب أساليب عصره ، وأساليب عصور أخرى بعده الى « الأسلوب الصحفى » نفسه ٠

ومن ثم يكون توقفنا الأساسى عند الفن الآخر ، الفن الصحفى ، مع تركيز شديد على هذين الجانبين معا ، جانب الصحافة ، وجانب الصحافى٠٠

لكن ، لأن الصحافة ضرب من الفن ، ولها « ابداعها » أو جوانب الابداع فيها ، فكرا وبحثا وتنفيذا وتحريرا وتصويرا واخراجها ، فهى من هذه الزاوية الأخيرة « الفنية » التى تتحدث بالفكر الصحفى الملهم وعنه ، تأخذ كثيرا من « معالم الأدب » ، ويشتركان معا فى هذا الجانب الفنى ، فكما أن الأدب فن ، فالصحافة فن أيضا ، ومن ثم يكون توقفنا ــ مرة رابعة ــ وبعد تعريف الأدب والصحافة والصحفى ، عند رؤيتنا الخاصة لهذا المزيج الابداعى المركبـــة ألوانه ، المختلفة حدوده والذى كنا من أوائل من أطلق عليه تعبير ٠٠ « الأدب الصحفى » ٠٠ والذى نرى أن الرجل كان فارسه الأول ، وبلا جدال ٠٠

وهكذا نرى صفة جديدة أخرى ، تضاف الى صفاته ، لكنها ليست جميعها بالطبع وانما هى بعض ما أطلق عليه فقط ٠٠ ما أطلقه غيرنا ، وما أطلقناه ، أو ربطنا بين الرجل وبينه ٠٠

لكن لنترك هذه الصفات والخصائص الجاحظية ، الى بيان هـــذه « التعريفات » نفسها ٠٠ تعريفات الأدب أولا ، ثم تعريفات الأديب ثانيا بما يتصل بهما من معالم وخصائص ٠

● عن ماهية الأدب نقوم بالقاء نظرة الطائر ، على عدة تعريفات ، لنرى ما الذى يمكن أن نستخلصه فى نهايتها مما يتصل بموضوعنا ؟ ٠ وذلك على الرغم من كثرة وتعارض المفسرين للأدب ، الكلمة والمدلول معا ٠٠

ـــ فمن بين التعريفات قول بعض المؤلفين : « كلمة أدب فى اللغة العربية مأخوذة من أدب العقل والخلق اذا هذبهما وثقفهما ، ومن تعاريف الأدب أنه من الفنون الرفيعة التى تصاغ فيه المعانى فى قوالب من اللغة ، وفيه متعة وله سحر قوى فى النفوس » (١) ٠

ـــ ويقول باحث مجتهد : « الأدب ـ فى رأيى ـ هو التأثير وكل تأثير يحدث عن طريق اللغة هو أدب ، وهناك صلة بين الأديب والقارىء ، فالأديب مؤثر والقارىء متأثر والأدب هو ذلك التأثير الذى ينتقـــل من الأديب الى القارىء » (٢) ٠

ـــ وتتداخل بعض مفاهيم « البلاغة » مع مفاهيم الأدب ، عند عدد من المفكرين والمؤلفين ، مما يفيد قضيتنا ، نذكر من بينهم على سبيل المثال قول القائل : ٠٠٠ « ولعل خير تعريف يفصح عن معنى البلاغة وأهدافها قول أبى الهلال العسكرى : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ٠٠ فهذا التعريف الواضح المفهوم هو لب البلاغة ، ولب البيان ، وهو يتسق تمام الاتساق مع مفهوم الأدب ، وهو فى الوقت نفسه يشير اشارة صريحة الى عنصرى الأدب: الفكرة والصورة ، واشارة صريحة كذلك الى هدف الأدب وغايته ، وهـــو التأثير فى نفس القارىء أو السامع أو نقل مشـــاعر الأديب واحســـاساته

وعواطفه وانفعالاته الى مستقبل عمله الأدبى لتتمكن فى نفســه تمكنها فى نفس الأديب » (٣) ٠

— ويقول أستاذ فى النقد والأدب المقارن بعد أن يشير الى اختلاف الباحثين فى تحديد تعريف أنموذجى للادب ، وطويل جدالهم حول هذه النقطة: « ... ولكن مهما يكن بينهم من اختلاف فهم لا يمارون فى توافر عنصرين فى كل ما يصح أن نطلق عليه أدبا ، هما : الفكرة وقالبها الفنى ، أو المـــادة والصيغة التي تصاغ فيها ، وهذان العنصران يتمثلان فى جميع صور الانتاج الأدبى : سواء أكان تصويرا لاحساسات الشاعر وخلجات نفسه تجاه عظمة الكون وما فيه من جمال وأسرار ، وحيال آلام الانسانية وآمالها ، أم كان تعبيرا عن أفكار الكاتب فى الانسان والمجتمع وسواء كان ذلك الانتاج الأدبى رسالة أو مقالة أم مسرحية أو قصة ٠٠٠ » (٤) ٠

● **وهناك تعريفات عديدة أخرى للادب ، الفن والعلم معا ، تجرى على الألسنة ، وتتداولها الأقلام ومن بينها :**

— الأدب هو الشعر والنثر بأنواعهما ٠

— جيد الكلام ، كثير المعانى ، منظوما أو منثورا ٠

— ما يكتبه القصاص أو الشاعر أو الكـــاتب المسرحى أو مؤلف الأغنية أو كاتب المقال متوجها به الى القراء والمستمعين والمشاهدين ليحقق أثرا ما فى ذواتهم أو قلوبهم أو عقولهم أو هذه كلها معا وبدرجات متفاوتة من التأثير تتناسب وقيمة العمل الأدبى ذاته ٠

— الكتابة الفنية على أية صورة من صورها أو شكل من أشكالها ٠

— ما يعبر به الأديب بواسطة الكلمـــات المنتقـــاة ، عن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره ، نظما أو نثرا ٠

٠٠ ومن متكرر القول أن نذكر أن الكلمة ـ كلمة الأدب ـ فى اللغات الأوربية والتي تعنى « Literature » مشتقة من الكلمة اللاتينية القديمة Literaratus حيث نقترب من معنى الحرف الطباعى ، أو حروف جمع المادة أو كما نقول فى علم الاخراج أو الطبـــاعة « الطبـــاعة البارزة »

« Letter press » ونحو ذلك كله ·· دون أن ننكر احتمالات ما ذهب اليه تفكيرنا مما يتصل بالصلة التى يمكن أن تقـوم بين التعبيـر Letter وبين أدب الرسائل ، أو الرسائل الأدبية العربية ··

● ان هذه التعريفات كلها تعنى - فى رأينا - ومن زاوية هـذا الكتاب نفسه :

— أن الرجل - بداهة - كان أديبا كبيرا ، بل كان أديبا «أنموذجيا»، بل لعلنا لا نبعد عن الواقع كثيرا عندما نقول أنه كان أديب العربية الاكبر ، وذلك بصفة عامة،واذا تغاضينا عن بعض من يقول أن الأدب هو شعر ونثر فقط، وأن الأديب - قياسا على ذلك - هو الشاعر أو الناثر وحدهما ، الرجل هنا أديب بالمعنى الشمولى الذى تؤكده كتاباته المتعددة التى تجمع بين طابع البحث والاصطفاء والفكر المتميز وحسن التناول والتعبير وتقديم الصور والمشاهد المتعددة فى تلك القوالب من الصياغة التى يعرفها له النقاد ومؤرخو الأدب، تماما كما أن ما تحـدث عنـه الرجل ، ومن تحدث عنهم ، ثم هذه الأفكـار والمعانى العديدة التى عبر عنها فى أسلوب جميل ، سهل ، واضح ، له حلاوته وله طلاوته وان لم يعهده الناس فى عهده ، الى غير ذلك كله مما نعود اليه فى حينه باذن الله ·· فذلك هو ما نستطيع أن نقوله فى هذه العجالة ، عن الرجل الأديب ، وهل مثله فى حاجة الى اثبات ذلك ؟ ·· وان كانت عودتنا اليه قائمة ، لنصل بين هذا الوجه الأول للصورة ، وبين وجهها الآخر ، الصورة الجاحظية نفسها ·

● لننتقل الآن الى الوجه الآخر من الورقة ، أقصد الى تعريفات الصحافة نفسها ، لكننا قبل هذه التعريفات نشير الى اللفظ نفسه كما جاء فى : القرآن الكريم أولا ، والمعاجم اللغوية وبعض كتب الأمهات ثانيا ·

● الصحف فى القرآن الكريم :

أما عن ورود الكلمة فى كتاب الله تعالى ، فقد وردت على صـفحاته الطاهرة ثمانى مرات جمعا ، وكان ورودها على هذا النحو وحسب ترتيب الآيات والسور :

١ - « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ·· أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » سورة طه ١٣٣ ·

٢ - « أولم ينبأ بما فى صحف موسى » سورة النجم ٣٣ ·

٣ - « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » المدثر ٥٢ ·

٤ - « ··· فى صحف مكرمة » عبس ١٣ ·

٥ - « ·· واذا الصحف نشرت » التكوير ١٠ ·

٦ - « ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى » الأعلى ١٨ ، ١٩ ·

٧ - « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » البينة ٢ ·

● **الصحف فى المعاجم والقواميس والمؤلفات العربية :**

ونكتفى هنا بالاشارة الى عدد من هذه المصادر ، لأن ذكر الصحف والصحافة فى واقع الأمر ، يجل عن الحصر ·· أن من بينها مثلا :

— ان من بين الذين أشاروا اليها على سبيل المثال لا الحصر العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور فى موسوعته اللغوية :**لسان العرب** فالصحيفة عنده « الورقة التى يكتب فيها » ·

— وعند الفيروزبادى صاحب «**القاموس المحيط** » ·· « الصحيفة هى الكتاب وجمعها صحائف وصحف » ·

— وقد فصل ذلك أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى المشهور بـ « ابن سيده » فى المجلد الرابع من « المخصص » ·· فنقل عن صاحب العين — الفراهيدى — قوله : « الصحيفة : التى يكتب فيها ، والجمع صحائف وصحف ، وفى التنزيل : صحف ابراهيم وموسى ، يعنى الكتب المنزلة عليهما ، والمصحف : الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه أصحف أى جمعت فيه الصحف ، والصحف والصحفى الذى يروى الخطأ على قراءة الصحف باشتباه الحروف » (٥) ·

— ·· وأما عن المؤلفات العربية ، فذلك طرف من رؤيتها للصحافة:

— ان أحد الباحثين ينقل قول شوبنهاور الطريف : « الصحافة عقرب الثوان للاحداث العالمية » (٦) ٠

— وان أحد أساتذة الصحافة يقول : « الصحيفة هى مطبوع دورى ينشر الأخبار السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية والثقافية والعلميـــة والتقنية ٠٠٠ الخ ، ويشرحها ويعلق عليها » (٧) ٠

— وينقل المؤلف نفسه فى كتاب ســابق له ، عن « **الفيكونت فيليب دى طرازى**» صاحب: «تاريخ الصحافة العربية» قوله الذى اشتهر بعد ذلك « أول من استعمل كلمة الصحافة بمعناها الحالى ــ أى الاصطلاحى ــ كان الشيخ **نجيب الحداد** منشىء جريدة لسان العرب بالاســـــكندرية ، ويعرف الصحافة بأنها صناعة الصحف والصحف جمع صحيفة وهى قرطاس مكتوب والصحافيون القوم الذين ينتسبون اليها ويعملون بها » (٨) ٠

— ويقول مؤلف آخر : « الصحافة مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع المجتمع وتنميه » (٩) ٠

— وبعد اشارات عديدة الى الدور الصحفى القديم والحالى تقول مؤلفة مجتهدة : « ٠٠٠ ويمكن أن نعرف الصحافة فى هذا الوضع بأنها صوت الشعب للشعب ، وهو تعريف فى بساطته يرادف معنى الديمقراطية فى حكم الشعب ــ الصوت الذى تتمثل فيه ارادة الشعب ورغبته وطموحه وآماله ، الصوت الذى تلتقى به ارادة الحاكم وارادة المحكومين على طريق العمـل والحياة والصوت الذى يعلن الحقائق صريحة ــ يشمل الشعب بجميع طوائفه وهيئاته ويربط الشعب بمصالحه ومواقع عمله وطريق حياته » (١٠)

● تلك هى ــ باختصار شديد ــ طائفة من أشهر تعريفات هـــــذه المصادر كلها للصحافة ، قبل أن نتوقف عندها لنرى « مصداقية » انتساب « الجاحظ » اليها ، وجدارته بهذا الانتساب ، ودخوله بفكره وكتاباته الى عالمها الفسيح ، ومن أكثر أبوابه اتساعا ، وحتى من خلال هذه التعريفات الحديثة ، وجميعها معاصرة ، نقول أن هذه التعريفات كلها تتجه وتركزعلى:

— الصحف بنوعيها « جرائد ومجلات » ،

— الجرائد اليومية أولا ·

وصحيح أن « رجلنا » ينتسب الى الصحافة وفق بعض أساسيات ومعالم وزوايا هذه التعريفات مجتمعة ، وليس تعريفا واحدا منها دون غيره ، ينتسب اليها بمعنييها ، أو باتجاهها الى جانبي الصحف والمجلات معا ··

لكننا من خلال تجربتنا الصحفية ، ودراساتنا التي سبق القيام بها ، ما طبع منها وما لم يطبع ، نعود فنستدرك ، ونقول ، أن « **التراث الجاحظي** » بكل عرويته وأصالته وابداعه وفنه ، يكاد يكون أقرب الى طابع المجلة ، والى طابع الصحيفة الأسبوعية ، منه الى طابع الصحيفة اليومية ، تماما كما أن الرجل نفسه ، بفكره وتوجهاته ، وغزواته لأكثر من موقع ، يكاد يكون أقرب الى طابع « محرري وكتاب المجلات »··قبل محرري وكتاب الجرائم اليومية··

ألا يعني ذلك ، ونحن نتحدث عن الجاحظ ، أنه يجب التوقف مرة أخرى، عند تعريفات « المجلة » ·· تلك التي كان ارتباطه بها فكرا وكتابة ، شديدا ، وأكثر بروزا من اتباطه بالصحف في اشكالها اليومية ؟ ·

ولن نجهد أنفسنا كثيرا هذه المرة ، بل سنكتفي بنقل عدد من التعريفات التي وردت بدراساتنا السابقة عن المجلة ، من تلك العربية أو غير العربية ، ان المجلة هي :

— « مطبوع دوري مصور أو غير مصور يحوي موضوعات متنوعة » (١١) ·

— « مطبوع دوري يتضمن كتابات لمؤلفين مختلفين غالبا يصدر مصورا وبه عدد من الاعلانات » (١٢) ·

— «المجلة كلمة اصطلاحية تعني دورية تتناول معارف ومعلومات متنوعة عن جانب أو جوانب من الحياة – احدى الوسائل الهامة للاتصال بالجماهير – تأخذ من الكتاب حجمه ومن الصحيفة تنوع مادتها ومجاراة هذه المادة لجوانب الحياة وسرعة حدوثها – وكلمة مجلة في اللغة العربية تعني قائمة بمجموعة من المعارف وجمعها مجلات أو مجال ، ومعنى الكلمة باللغة

الانجليزية Review تعنى اعادة النظر فى شىء ما أو معاينة شىء ما واستعراضه » (١٣) ٠

ــــ « مجموعة الصفحات العديدة المطبوعة بطريقة ما ، ذات الحجم الواحد ، الصغير أو المتوسط أو الكبير المثبتة ببعضها رأسـيا ومن جانب واحد ، والتى تمثل وحدة من كل متتابع من مجموع له شخصيته ، يحيط بها غلاف فنى دال وملائم من ورق أكثر سمكا ، تصدر دوريا بثبات أسـبوعية غالبا أو شهرية أو نصف شهرية أحيانا أو فصلية أو سنوية أو غير ذلك بمعرفة مالك أو جماعة أو هيئة أو شركة مساهمة أو مؤسسة ، مقـدمة لجمهورها المتوقع العام و الخاص ، وفق امكانياتها وبما يتفق مع سياستها التحريرية وبأسلوبها الخاص ، الاخبار والموضوعات والقصص والاحاديث والدراسات والتقارير والماجريات والمقالات والمذكرات والحملات الصحفية ، أو مثيلاتها من فروع الفكر والعلم المتخصص ، مؤيدة بالصور والرسوم المختلفة وقطع الامتاع ومواد الربط والاستكمال ، بهدف اعلام القراء وتوعيتهم وتثقيفهم وتعليمهم ومؤانستهم وتنمية مجتمعاتهم وتحقيق الربح للناشرين والعاملين ، وقد تكون فى أشكال ومضامين أخـــرى ، تتوجه الى جمهـــور خاص ومحدود » (١٤) ٠

● واذا كانت التعريفات السابقة فى مجموعها تتجه الى « الوسائل أو « الأدوات » أو « الوسائط » ، وهى هنا الاعلامية الصحفية المطبوعة ، واذا كان بعضها يتجه الى العمل الصحفى نفسه ، أو بعض جوانبـــه ، بطريقة مباشرة ، فان الصورة تكتمل ــ حتما ــ وتكون أكثر وضوحا ، وأقرب الى الفهم ، بتفاصيلها المختلفة ــ صورة الجاحظ الأديب الصحفى المجلاتى معا ــ ٠٠ أو صورة الجاحظ الأديب المحرر ، أو صورة الجاحظ الكاتب الصحفى ٠٠ جميعها تكون الى الجلاء أقرب ، عندما نتوقف مرة اخرى ، عنـــد تعريفات أرباب هذه المهنة ، أو هذا الفن ، فما الذى يقال عن « الصحفى » ٠٠ والذى هو مفتاح هذا العمل ، ولا صحافة بغير صحافيين ، تماما كما أنه لا أدب بغير أدباء ؟

اننا هنا نقدم تقسيما جديدا ، قد يكون الى طابع العمـــل اقـــرب ، وبتصويره أكثر جدارة ، فلن نلجأ هذه المرة الى المعاجم والمراجع ودوائر المعارف وحدها ، وانما الى بعض « ما جرى » على الألسن ، وأصبح دليلا على العمل الصحفى ، كله أو بعضه ٠

● **أما هذا النوع الأول من التعريفات التى تناولت الصحفى ، بأسلوب مباشر أو غير مباشر أيضا ، فهى تلك التى قالت ، أو قال أصحابها عنه :**

فبعيدا عن المعاجم اللغوية التى تكاد تجمع على أن « الصحفى » بفتح الصاد والحاء ، هو من يخطىء قراءة الصحيفة ـ بمعنى الصفحة أو الورقة من كتاب ـ أى ذلك الذى « يصحف » ٠٠ فى قراءته ٠٠ بعيدا عن ذلك نجد تعريفات كثيرة من بينها :

ـ ان أستاذة فى الصحافة تعرفه بقولها باختصار شديد أنه « كل من يتخذ من الصحافة مهنة » (١٥) ٠

ـ وقد مر بنا قول المؤرخ دى طرازى : « والصحافيون القوم الذين ينتسبون اليها ـ أى الى الصحافة ـ ويعملون فيها » ٠

ـ ويعرف القانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠ ـ والخاص بانشاء نقابة الصحفيين ـ الصحفى بقوله :

« مادة ٦ ـ يعتبر صحفيا مشتغلا :

(أ) من باشر بصفة أساسية ومنتظمة مهنة الصحافة فى صحيفة يومية أو دورية تطبع فى الجمهورية العربية المتحدة أو وكالة أنباء مصرية أو أجنبية تعمل فيها ، وكان يتقاضى عن ذلك أجرا ثابتا بشرط الا يباشر مهنة أخرى »٠

● لكن هناك بعض ما لم يقله هؤلاء فى مجال التعريف ، وانما ، جاءت كلماته عرضا ، بين سطورهم ، أو جاء بين سطور أخرى ، أو جرى على الألسن ، لكنه لا يبعد عن واقع الصحفى ، وعمله ، وفكره وأساليب وأنماط ذلك العمل ، وذلك الفكر كثيرا ، بل جاء بعضها أكثر صدقا ، ودلالة، من تعريفات « مرجعية » كثيرة ٠٠ أى أن هناك ـ ومما يرتبط بهذه الفئة الأخيرة من التعريفات نفسها ـ ما هو أكثر ارتباطا بموضوعنا ، وأكثر تعبيرا عن « صاحبنا » بشمولية فكره وتوجهاته ، نفصح عنها بعد قليل ، أو فى

حينها ٠٠ ونكتفى الآن ببيان « قلة » من هـــذه الأقوال ٠٠ ان الصــــحفى أيضا هو :

— الرجل المكون من عدة رجال ٠
— الرجل الذى يجمع من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ٠
— رجل « التخصص العام » ٠
— نتاج عصره ومرآة بيئته ٠
— صورة عصره بكل صدق ونزاهة وتجرد ٠
— نبض أمته ٠
— كتاب عصره ٠
— شاهد على عصره بمن فيه وما فيه ٠

الى غير هذه كلها من تعريفات « اجرائية » أو « معملية » غير مباشرة ، نتوقف لمناقشتها ، مع غيرها من تعريفات وأقوال سابقة ولاحقة ، بعد قليل ، لنقرر أين تقف من موضوعنا ؟ وأين يقف الرجل منها ؟٠

عن الأدب الصحفى

● وتبقى بعد ذلك كلمة قصيرة عما اطلقنا عليـــــه تعبير « الأدب الصحفى » ٠٠ ، فبالاضافة الى الكلمات القليلة التى وردت ضمن السطور السابقة عنه ، فاننا نحدد هنا بعضا مما يمكن ويجوز أيضا اعتباره من بين ملامح هذا النتاج الصحفى المتميز ٠

— فالبحث عن الأخبار يكون له طابعه ، وعملية البحث والانتقــــاء تكون مجالا لاستخدام المواهب المتميزة ، بطرقها وأساليبها التى لا تخلو عند بعضهم وليس عند الجميع ـ من الهام وابتكار ٠

● واذا كان تحرير التوقيعات القصيرة ، أو « الرقع » أو «الوصايا» أو « الحكم والأمثال » يعتبر ضربا من الأدب ، فان مثله هنا ـ على المستوى الصحفى ـ يعتبر تحرير العنوانات بأنواعها (المفتاحية الاشارية والرئيسية والفرعية وعنوانات الفقرات) ٠

● ثم ان بلاغة الأسلوب الأدبى ، تصدق هنا أيضا ، فى مجال كثير من وحدات « النص التحريرى الصحفى » ··

أو ليست البلاغة هى وكمـــا قال نفر من علمائها ـ بالاضـــافة الى ما سبقت الاشارة اليه ـ ··

« لمحة دالة ـ اختيار الكلام وتصحيح الأقسام ـ وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ـ القوة على البيان مع حسن النظام ـ اهداء المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ » ··· الخ ·

نحن أيضا نقول بذلك عندما نتناول « الأسلوب الصحفى » خاصة فى مجال تحرير هذه « الوحدات الفنية الســـابقة » ·· العنوانات ، وكـــذا « المقدمات » و « النهايات » بأنواعها تماما كما أنه اذا كان لابد من الاختصار والتركيز عند كتابة بعض « **النصوص الأدبية** » ، أو « الاسهاب » عند كتابة البعض الآخر منها ، فاننا نتبع ذلك أيضا فى بعض « **النصـوص التحريرية الصحفية** » ·· « **فالأخبار الصغيرة** » قليلة العبارات ، قليلة عدد الكلمات « تلغرافية » الأسلوب ، موضوعية ·· عملية ·· وظيفية اللغة ، ومثلهـا تقريبا والى حد ما « الأخبار المتوسطة » ·· والأعمدة ، أو مقالات الأعمدة (نتحدث هنا عن فنون وأنماط ولا نتحدث عن وحدات تحـــريرية فقط) ·· ومثلها كذلك بعض الموضوعات الاخبارية وكلام الصور والتعليقات القصيرة وما يجرى تركيزه أو « ضغطه » ·· وذلك فن أيضا ، من تناولات ومترجمات وخطابات للقراء ومقالات مسهبة لقراء لا يحتملها الحيز المتاح ··

ذلك كله عن القليل الذى يدل على الكثير ·· وأما **الاسهاب** فى موضعه فهناك ضروب الاسهاب الصحفى العديدة ، لو كان الأمر يتطلب ذلك ، أو كانت المساحة المتاحة من فراغ الصفحات تتطلبه أو تسمح به ، أو كان الوقت المتاح يعين عليه ·· ولا يقتصر الأمر هنا على التقارير والتحقيقات والحمـــلات والدراسات والماجريات ، تلك التى تنشر أحيانا على أكثر من صفحة واحدة ، من الصحيفة اليومية العادية ، وعلى ملزمة كاملة ـ ١٦ صفحة ـ من المجلة ، أو تكون فى حلقات يستمر نشرها يوميا أو اسبوعيا على صفحة أو أكثر ، لعدة أيام أو لعدة أسابيع ، بالنسبة للصحف اليومية أو الأســـبوعية ، أو

صحافة المجلة ، أضف الى ذلك بعض المترجمات والمقالات التحليلية والخطب وما اليها ٠٠

أقول ، لا يقتصر الأمر على ذلك كله ، وانما يمتد ايضا ، حتى الى هذه الأخبار الصغيرة وربما الصغيرة جدا ، والمركزة ، فان بعضها يمكن أن يكون مختصرا لخبر كبير تم « ضغطه » أو نشر على حالته فى طبعة ما ، لأنه مما يهم قراء منطقة معينة ، بكل تفصيلاته وأركانه وزواياه ، ثم نشر « مضغوطا» فى طبعة أخرى لا يهتم قراؤها بغير المعرفة السريعة به ، وهكذا ٠

وباستطاعة القائمين على أمر صحيفة تصدر فى عشر صفحات مثلا ، أن يسهبوا وأن يضيفوا حتى تكون فى أكثر من ضعف لهذا العدد ٠

— ومثلما يبدع الأديب فى اختياره لفكرة مقالته الأدبية ، أو صورته القلمية ، أو انتقاء أشخاص قصته ، أو نماذج مسرحيته ، فان ابداعا مماثلا يقوم به الصحفى الممارس والخبير — وليس أى صحفى — **من أجل العثور على الفكرة المناسبة ، الجديدة ، الطازجه التى لم يسبق اليها احد** ، او العثور على الزاوية الجديدة التى يتناول من خلالها الفكرة القديمة أو المطروقة ٠٠ وعندما يعثر المحرر على مثل هذه الفكرة ، فانه يحق لنا أن نقول انها تدخل ضمن باب « **الأدب الصحفى** » ٠

● وبعض الموضـــوعات والتقارير وكثرة من التحقيقـــات وأغلب المقالات ، وبعض جوانب القصص الصحفية ، والأحاديث ، هذه كلها يمكن أن يتدخل « **الابداع** » فيها ، ويلعب « الالهام » دوره فى مساراتها من أول الاختيار ، حتى كتابة آخر حـــرف فيها ، بل وحتى اختيار الوقت الأمثـــل لنشرها ، أو أكثر الأوقات مناسبة لذلك العمل ٠

● ثم يبدو « **الأدب الصحفى** » بعد ذلك كله ، وربما أهم من ذلك كله وقبله ، فى تلك الأمور المتصلة بجوانب التحرير نفسها ، ففضلا عما يتصل بالاختصار والتركيز فى موضعهما وهو أدب ، أو الاسهاب فى موضعه ، وهو أدب أيضا ، فان هذا اللون من الأدب الصحفى يتجلى هذه المرة فى أكثر من صورة من بينها على سبيل المثال :

● الابداع فى اختيار أفكار العنوانات والمقدمات والنهايات ·

● جانب « الحس الصحفى الفنى » فى اختيار العنوان والمقـــدمة والنهاية التى تكون أكثر مناسبة لموضوعاتها من أنواع هذه الوحدات المختلفة·

● وبالمثل يكون « الأدب الصحفى » متمثلا فى حسن ودقة ونجاح اختيار القالب الفنى الأكثر ملاءمة لصياغة مادة تحريرية أو أخرى ، ان كان لابد من استخدامها ·

● ثم هو يتمثل أكثر فيما تقدمه المواهب من أنواع عنوانات ومقدمات ونصوص ونهايات جديدة ، ابتكارية ، غير مســبوقة ، أو قليــلة أو نادرة الاستخدام ، أطلق عليها بعضهم – فى مجال قوالب الصياغة فقط – تعبير : « القوالب غير الفنية » لأنها تخرج عن المألوف استخدامه من جانب كثرة من المحررين ، وأقول أنها الأكثر فنا والأكثر ابداعا ·

● ثم هناك بعض « الفنون » و « الأنماط » الصـــحفية الكاملة ، التى تحتاج مع تتابعها أو مع تتابع تحريرها من آن لآخر ، ومن يوم الى يوم، تحتاج الى قدر غير قليل من الذوق الأدبى ، والحس الأدبى ، ·· وهكذا فاذا كنا قد أشرنا الى أن ما نطلق عليه فى مؤلفاتنا « الوحدات الفنية التحريرية » تحتاج الى جانب من جوانب الابداع – كوحدات فقط – بينما نشترط الفكرة الجديدة أو التناول الجديد للفكرة بالنسبة لبعض الفنون والأنماط لاســيما الموضوعات والتحقيقات والتقارير والمقالات الصحفية·· فانبعض الموضوعات والتحقيقات والصور القلمية الصحفية والتقارير المصورة تأخـــذ بقدر طيب ومعقول من هذه « اللمسة » الأدبية الفنية الصحفية معا ، كل ذلك بينما نجد – مع تتابع الأعمدة ومقالات الخواطر والتأملات ومقالات الفقرات أو اليوميات الصحفية – نجد بعضا منها مما تزيد فيه الجرعة الأدبية ذاتها ، عن الجرعة الصحفية ذاتها ، ومن ثم تمثل – بذلك كله – هذا الأدب الصحفى الذى نتحدث عنـــه ··

ولعله مما يثبت صحة ذلك، أن كاتب هذه النوعية الأخيرة ، أو محررها، يكون فى بعض الأحيان من هؤلاء الذين **دخلوا الصحافة من باب الأدب** ، أو **دخلوا الأدب من باب الصحافة** ، فهم من الصـــحفيين الأدباء ، أو هم من

الأدباء الصحفيين ، وحيث نجد أنفسنا أمام طائفة جاحظية جديدة ، تمت الى رجلنا ، أو تمت المادة التى تكتبها بصلات عديدة وعلى الرغم من « معاصرتها» ٠٠ الى المادة الجاحظية ، أو الى التراث الجاحظى ، بكل أصالته ، وتنوعه، وتعدد مجالاته ، وأساليب بلاغته ٠

● حتى الصورة نفسها التى يمكن أن تصاحب كل ذلك ، وهى هنا الصورة الصحفية الملتقطة بواسطة الكاميرا ـ هى ، وكما أطلق عليها عـدد من رجالها ٠٠ « أدب بصرى » ٠٠ نسبة الى البصر هنـــا وليس الى مدينة البصرة ، التى سيرد ذكرها خلال الصفحات القادمة لكن ما يتبعها فى أحيان كثيرة ، أو يشرحها أو يضيف اليها ، أو يتناولها أو يعلق عليها يمكن أيضا أن يقترب من هذا الأدب الصحفى ، عند بعض المحررين الحريصين على التفرد وعلى الامتياز وهكذا ٠

● وهكذا نجد صورا ولمسات من هذا الأدب الصحفى ، تلك التى تتجه الى معالم الابداع فى جانبين اساسيين هما :

(أ) ما يتصل بالفن الصحفى فى مجموعه عامة ، وبجوانب فن التحرير خاصة ٠

(ب) ما يتصل بتلك الوحدات او الأجـــزاء أو القوالب ، او الأنماط الكاملة التى يضفى عليها محررها قدرا من الأدب والذوق الأدبى ، قل أو كثر ، ويقدمه ممتزجا بالحس الصحفى والذوق الصحفى ٠٠

من هذا المزيج المتكامل من المادة الصحفية ذات المضمون الموضـوعى المرتبط بالواقع الحدثى ، أو المتصل به أو المتفرع عنه ، بطريقة من الطرق ، أو بشكل من الأشكال واللمسة أو الجرعة الأدبية التى تغلفها أو تسرى فى جنباتها وبين سطورها وكلماتها ٠٠ يتكون هذا « **الأدب الصحفى** » ٠٠ الذى أطلق عليه بعضهم تعبير « **الأدب الموضوعى** » ونرى انه يشـــمل ذلك الأدب الصحفى وغيره ، ومن ثم فانه عندنا ، أدب صحفى ٠٠ لأنه لا يركز على جوانب ذاتية ، قدر تركيزه على جوانب موضوعية وواقعية ومجتمعية ٠

● قبل أن نضع هذه الأفكار السابقة كلها فى ضوء التناول الخاص

من زاوية صلتها بموضوع التراث الجاحظى ، نتوقف برهة لنقـــدم تبسيطا وتلخيصا لها ، لعله يكون أكثر مدعاة لتوضيح ما نريد ، وما نحرص على وضـــوحه ٠

ان باستطاعتنا أن نقول ، أن هذه التعريفات السابقة فى مجموعها ، ما ذكر منها عن الصحف ، وما قيل فيها عن المجلات ، وما اشار فى كلماتها الى « العامل البشرى » يمكن أن نوجزها ، وأن نستنتج منها أيضا ، هـذه النقاط كلها :

(أ) من حيث الصحيفة ومادتها (المحتوى التحريرى) :

ان الصحيفة اليومية أو الأسبوعية ، هى تلك الأوراق المطبوعة التى تحمل الى الناس يوميا ، أو بصدورها فى أكثر من طبعة واحدة يومية ، أو أسبوعية ، وبمعرفة أعضاء أسرة تحريرها وبأقلامهم ، وبعدسات مصوريها، وبجهد الفنيين والعمال بها ، ما ينبغى أن تحمـــله الى هؤلاء من تســـجيل للاحداث المهمة ونقل الوقائع والتفصـــيلات المرتبطة بها وتقـــديم المعلومات والبيانات المفيدة وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحـــات والافكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضـــايا والحلول ذات النفع ، وكذا البحوث والدراسات والمادة الأدبيـــة المختلفة ، والتعبير عن ذلك كله تعبيرا صحيحا مناسبا للقراء ، بواسطة لغة صحيحة ، تختلف أحيانا من مادة لأخرى ، لكنها تكون فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة موجهة الى القراء فى الوقت المناسب ٠

(ب) من زاوية المجلة ومادتها (المحتوى التحريرى وأهم مواده) :

وأما المجلة ، أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية أو فصـــلية ٠٠ إلى غير ذلك كله فهى — من زاوية المحتوى — تختلف من واحدة لأخرى ، حسب نوعيتها وطابعها العام وطبيعة قرائها وسياســـتها التحريرية والهـــدف من اصدارها ، لكن أهم موادها المشتركة ، التى تتفق عليها كثرة من المجلات هى:

— التحقيقات الصحفية المصورة (عامة مشوقة — مشكلات — دراسة صحفية) ٠

ـ التقارير المصورة ٠
ـ الأحاديث الصحفية ٠
ـ الأخبار البحتة من نوع أخبار المجلة ٠
ـ الموضوعات الاخبارية ٠
ـ القصص الصحفية ٠
ـ المقالات العامة ٠
ـ المقالات الفكاهية والكاريكاتورية ٠
ـ مقالات التخصص العام ٠

ـ افتتاحيات المجلة ٠
ـ مقالات النقد الأدبى ٠
ـ الماجريات الهامة ٠
ـ العمود الصحفى ٠
ـ اليوميات ٠
ـ القصص ٠
ـ مواد التسلية والامتاع الذهنى ٠
ـ الأبواب والأركان والاجزاء الخاصة ٠

(هـ) عن الصحفى وطبيعة عمله (أنواع من المحررين) :

ان ذلك يعنى ـ بطبيعة الحال ـ أن العمل الصحفى ليس صورة واحدة فقط ، أو لا يأتى فى شكل واحد فقط ٠٠ خاصة اذا نظرنا الى الاختلاف القائم بين صحيفة وصحيفة وصحيفة ومجلة ٠

فصحيح أن العمل الاخبارى ـ جمع الأخبار وتحريرها ـ يأتى فى المقدمة من هذه المهام ، وصحيح أيضا أن المندوبين هم من أبرز أعضاء أسرة التحرير ، انطلاقا من أهمية الأخبار نفسها لكن هناك أيضا من المحررين من يعتمد عليهم ويمثل كل منهم احدى القواعد الهامة فى العمل وركيزة من ركائزه ، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وحيث تكاد أعمالهم تقترب ـ بشكل أو بآخر ـ من النشاط المتميز لرجلنا ٠٠

١ ـ محرر التحقيق الصحفى ومن أهم أعماله جمع المادة من مختلف مصادرها والمقارنة بينها واستخلاص النتائج واتخاذ المواقف ٠

٢ ـ محرر التقرير الصحفى الذى ينتقل الى المواقع ليكتب ما يرى وما يسمع مدعما بالصورة ٠

٣ ـ محرر الحملة الصحفية على وجه من وجوه السلب أو من يمثله ، أو بالدعوة الى جوانب الايجاب ٠

٤ — محرر الدراسة الصحفية فى جانب من جوانب الأهمية الاجتماعية أو الثقافية أو غيرهما ٠

٥ — المحرر العلمى ، برصيده المتميز الذى يحصل عليه من هنا وهناك واضعا له فى خدمة القارىء ، بكل ما يقدمه من معلومات عن موضوعه ٠

٦ — الناقد الأدبى والفنى برؤيته الدقيقة ، وحسه النقدى المتميز ومتابعته لموضوعه ٠

٧ — محرر المقال ، بأنواعه المختلفة ، بحسه النقدى الجماهيرى الأدبى الواقعى معا ٠

٨ — المحرر المراجع ، بقدرته على تقديم الشكل الأمثل والمضمون المناسب وعلى الاختصار والتركيز ٠

●● واخيرا — وليس بآخر — نقول :

ان كانت هذه هى الصحافة فى أبرز جوانبها — ولا أقول كلها — وان كان هؤلاء هم الصحافيون ، مع تركيز شديد على بعض نوعياتهم من المتألقين، من الباحثين والدارسين والكاتبين ، وليس على أى صحافى منهم ، واذا كانت هذه بعض طبائع العمل الصحفى الذى يقوم على البحث وجمع المادة والتأكد من صدقها ، ومن مختلف المصادر ، واضافة الجديد المتتابع اليها ، مع تنوع كامل ، أو « تخصص عام » وان صاحبته أحيانا بعض جوانب « الاهتمام الخاص » ، ومع أسلوب بليغ ، وان كانت بلاغته تتجه الى صور واقعية وعملية ٠٠ الى غير ذلك ، فأين يقف الجاحظ منها ؟ وما هو موقعه على خريطتها ؟ وماذا يعنى بخصائصه الفريدة ، بالنسبة لهذه النقاط ، ولغيرها ولأكثر منها ؟ ذلك ما تقرره السطور التالية ٠٠

●● هوامش هذا الفصل :

(١) على فتحى يونس وآخرون : « أساسيات تعليم اللغة العربية » ص ٢٢٠

(٢) طه ندا : « الادب المقارن » ص ١١ ·

(٣) بدوى طبانة : « علم البيان » ص ٦ ·

(٤) محمد غنيمى هلال : « الادب المقارن » ص ١١ ·

(٥) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده : « المخصص » مجلد ٤ ص ٦ ·

(٦) عبد العزيز الغنام : « مدخل فى علم الصحافة » ص ١٢ ·

(٧) خليل صابات : « وسائل الاعلام نشأتها وتطورها » ص ٤٧ ·

(٨) خليل صابات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » ص ١٣ ·

(٩) محمد سيد محمد : « الصحافة بين التاريخ والادب » ص ٧ ·

(١٠) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٢ ·

(١١) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٨٨٦ ·

(١٢) تعريف La Rousse المصور طبعة ١٩٧٢ ص ٢٥٧ ·

(١٣) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٧٧ ·

(١٤) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ٣٧ ، ٣٨ ·

(١٥) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ١٧ ·

الفصـــل الثانى

معالـــم جاحظيـــة

وقبل أن نعد الركب ، أو نقوم بتجهيز قاربنا ، تمهيدا لرحلة فى بحر « أبى عثمان عمرو بن بحر » الملقب بالجاحظ — لبروز فى حدقتى عينيـه اجحظهما ، أى خرج بحدقتيهما قليلا الى الأمام — مما جعل البعض يخافونه، وبعض « الكبراء » لا يرحبون به فى مجالسهم على الرغم من علمه وأدبه ، لأنه وان كان يزينها بهذين ، الا أنه لا يزينها بدمامته تلك التى « سخر » منها هو نفسه كثيرا ٠٠٠ قبل أن نقوم برحلة مع تراثه ، أو نقتحم بمثل هـــذه الأفكار ساحته ٠٠ فاننا نتوقف قليلا عند عدد من « المحطات » أو « معالم » الطريق الى هذا التراث ، أو هذه الساحة ، نحاول أن نلم فيها ببعض مكونات شخصه وأن نطوف بالأسس والقواعد التى يستند اليها ذلك البناء الشامخ المتمثل فى هذا النتاج الغزير كله ، الذى قدمه الرجل ، والذى نزعم أن بعضه كان نتاجا صحفيا ٠٠

لكننا — بالطبع — لن نقتصر على مجرد الوقوف عند هذه المعالم ٠٠ أو مجرد التعرف عليها واستجلاء أثرها فى تكوين هذا التراث المتعدد الجـوانب والمعارف والمؤلفات والرسائل والصفحات ، وانما سنحاول قدر الطاقة — أن نقيم بينها وبين موضوعنا جسرا نعبره معا ، ليساعدنا على الاقتراب أكثر ، مما نتوجه به من أفكار خاصة ليس بالجاحظ الأديب فقط ، وانما من زاوية صحفية أيضا ، ان هذه العلامات ، وما يصل بينها من جسور ومعابر ، هى طريقنا الى ذلك كله ، ومن ثم نقول عنها ، أو — حتى نكون أكثر دقة — عن أهمها فقط ما يلى :

« نتـــاج عصره »

هل هناك عصر يفضل عصرا فى صنع الرجال ؟

اننا لن ندخل فى مناقشات فلسفية عديدة ، كتلك التى تقول — مثلا — أن الزعيم مطبوع أو مصنوع ، أو أن الجندى الماهر يصنعه — أو لا يصنعه — القائد الماهر وما الى ذلك كله ، ولكننا نتوقف قليلا عند بعض العصور التى ساهمت وساعدت بأحداثها على ظهور طائفة من قادة الفكر والرأى والأدب والعسكرية ٠٠

ان « الحروب » تطعم الرجال ، وان الأحداث تحركهم ، وان المواقف

تدعم من قوتهم وصلابتهم ، وان التجارب العديدة ، بحلوها ومرها ، وخيرها وشرها تبرز هؤلاء ، وتفصح عن مكنوناتهم ، وتخاطب مواهبهم ، بل ان هذه الأحداث الجسام نفسها ، والوقائع العظام ذاتها لتستحثهم على العمل ، وتدعوهم الى ركوب الصعاب ، وتستنفر هممهم ، وقد تستفزهم أيضـــا ، فيعمدون الى مواجهة التحديات ، والى العمل على تغيير الواقع ودمغه الى الأمام عدة دفعات ٠٠ ومن هنا فان هؤلاء تصهرهم الأحداث فى بوتقتها ، وتعيد ـ فى أوقات كثيرة ـ تشكيلهم و « ضخ » دماء جديدة فى عروقهم ٠٠

لكنهم ـ وهو مهم أيضا ـ لا يكتفون بمثل هذا التأثر ، وبصـــوره المختلفة ، وانما يجعلون نتاجه بدوره مؤثرا ، وحصاده مغيرا ، لما حولهم من مواقع ومجتمعات وأفكار وخطط ومواقف واستراتيجيات ، تقدم صورا جديدة ، قد يدفع بعجلة الأحداث والتاريخ نفسها من حالة الى حالة ٠٠

اننا نقدم هنا ـ وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ هذه الصور كلها لزعماء وقادة ومفكرين وفنانين ، كانوا نتاج عصورهم ، ثم عادوا يؤثرون فى مسيرة امتهم ، ويفتحون أمامهم أبواب عصر جديد :

● فالبطل المصرى « **أحمس** » ١٥٩٠ ـ ١٥٤٥ ق٠م ، بطل معركة التحرير ضد الهكسوس او « ملوك الرعاة » ٠٠ كان نتاجا للحالة السيئة التى وصل اليها الشعب المصرى الذى كان يعـانى من اضطهاد المحتل وجـوره فثار على ذلك وقاد مواطنيه الى التحرير والنصر ، حتى طارد هـؤلاء الى موطنهم الأصلى ، ووضع حجر الأساس لامبراطورية مصرية قوامها جيش الشعب ٠

● والداهية السياسى الألمانى « **بسمارك** » صهرته البوتقة السياسية الأوربية وصراعات الملوك والأمراء وعركته مشاكل السياسة ، حتى انتجت « الرجل الحديدى » الذى حير أوربا وأسقط عروشـــا وخلع قلوب برلمانيين وصنع معارك ، حتى وحد المانيا بالقوة ، وانشأ أول امبراطورية المانية ، وكان ساسة أوربا وقادتها يرتعدون لمجرد ذكر اســمه ٠

● والرحالة البندقى « **ماركو بولو** » كانت تربيته البحرية ، ورحلاته منذ صغره ، وراء حبه للترحال ، الذى أسفر عن عدد من الكشوف الجغرافية التى افادت منها البشرية كثيرا ٠

● بل ان الدماء التى جرت فى ساحة الثـورة الفرنسـية لا يمكن فصلها عن بروز رجل مثل « روبسبير » دموى النزعة ، تخلص من منافسنيه جميعا وزرع « عهد الارهاب فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر ··

● والظروف القاسية من سجن وعذاب وتشريد ، كانت وراء هذه الاتجاهات الانسانية والنفسية التى حفلت بها مؤلفات « ديستويفسكى » التى عكست تماما أحداث عصره وتأثيرها عليه لاسيما فى رواياته : « المساكين ـ منزل الأموات ـ الجريمة والعقاب » وغيرها ·

● والقضية المصرية وحاجتها الى محـــام قدير يدافع عن الحق والسيادة الوطنية كان لها دورها فى اتجاه شعلة الوطنية « مصطفى كامل » نحو دراسة القانون ، فالتحق بمدرسة الحقوق ليكون هذا المدافع بالصوت والقلم ، فى قضية الوطن الكبرى ·

● والمؤلف الموسـيقى الألمانى الكبير « بيتهوفن ١٧٧٠ ـ ١٨٢٧ » كان المناخ العام الموجود حوله دافعا له الى تعلم الموسيقى ، ليصبح من اشهر الموسيقيين فى التاريخ وليتم رسالته رغم اصابته بالصمم ، وليصبح «الأستاذ» كما يطلق عليه عن حق وجداره ·

● والأحداث التى تعرض لها الوطن العربى فى حربه مع الروم ، كانت ذات أثر بالغ على مسيرة وشعر رجل مثل « أبى فراس الحمدانى » ، لا سيما أحداث أسره ، والمؤامرات التى كانت تحاك ضده وضد ابن عمـــه « سيف الدولة » ··

● واذا كان رواد الصحافة العالمية ، مدينون أيضا لعصرهم بأحداثه ورجاله ومخترعاته وحروبه وفتنه ومؤامرته ، تلك التى كان لابد من تناولها ، وتقديمها للناس ـ عامة القراء ـ فى شكل أخبار ومادة اخبارية وما يتفرع عنها ·· وحيث تحضرنا هنا أمثلة لأسماء عديدة صنعتها الأحـــداث ، أو صنعت صحافتها نفسها بكل ما ظهر على صفحاتها من أفكار وقضايا ومواقف واتجاهات وآراء عبرت عنها الكلمات والصور ·· ثم عادت هـــذه تؤثر فى مسيرة مجتمعاتها ، وكان من بين هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر ·

« جون بيتر زينجر ـ دانيال دينو ـ رفاعة رافع الطهطاوى ـ الشيخ

محمد عبده ـ عبـــــد الرحمن الكواكبي ـ جيمس فرانكلين ـ جيمس ج٠ بنيت ـ أمين الرافعي ـ أحمد حلمي ـ المويلحي الكبير ـ جوزيف بوليتزر » الى غير هؤلاء جميعا ٠

وحيث نقول هنا ، ان فترات الهدوء الكامل ، والواقع المستقر ، لا تصنع أخبارا ، ولا تقدم مادة اخبارية ، حيث تكون هذه وكما أطلقنا عليها من قبل ، فترات « **الركود الاخبارى** » ٠

لكن ، ليس شرطا تاما أن تكون هذه الأحداث حروبا كبيرة على الحدود، أو بين أكثر من بلد واحد ، أو تسيل فيها الدماء دائما ، وانما يكفى أن تكون من نوع الأحداث المحركة لسطح المجتمع ، المثيرة لجنباته ، المغيرة لأعماقه ، المؤرقة لأبنائه ، المتحدية لهدوئه ، المقلقة لراحـــــة افراده ٠٠ وحتى ان كان السطح نفسه هادئا مستقرا ، يعيش بلا صخب ولا ضجيج ، فقد يخفى تحته بعض أسباب التوتر والتحرك القلق للاحداث نفسها ٠

● بل ان ذلك ليس وقفا على الصحافة ، وصـــــناعة الاخبـــار والموضوعات والقصص والتحقيقات والأحاديث والماجريات الصحفية وحدها هذه التى تكون الأحداث مادتها ومداد أقلام أصحابها ، وانما وبنفس القدر أيضا ، وربما بأكثر منه أحيانا ، تكون صورة ادب فترة معينة ٠٠ أو يكون أدبها من نفس جنس هذه الأحداث ومن نفس لونها ، ومن نفس طابعها كله٠٠ بل وقد يكون دافعا الى تغيير الصورة تغييرا كاملا ٠٠ ولن تجهدنا أسماء هؤلاء الأدباء بتتبعهم كثيرا ٠٠ فهم من مثل من ذكرنا ، وغيرهم كثير كانوا صوت عصرهم ، ومرآة أحداثه ، ومسجله ، وكتابه وديوانه ايضا ٠٠ وخذ عندك هذه الأسماء فقط ، وما قدمته الأحداث المعاصرة لها ، وما انعكس فى شعرها عنها ، فى العصر الجاهلى وحده ٠٠ وحيث نجد عندنا أمثال هؤلاء :

« عمرو بن كلثوم ، عنترة العبسى ـ زهير بن أبى سلمى ـ تأبط شرا » وعيرهم ٠٠

وحيث نقول هنا أيضا أن فترات الهدوء والاستقرار قد تصنع أدبا ، وهى تصنع فعلا ، لكنه يكون فى معظمه أدبا لتزجية الفراغ ، تنثر وروده على عتبات البعض ، وتغرد أطياره فى مواكبهم ، ويكون بقدر المنح والعطايا ٠٠

هكذا يكون فى معظمه وقد يعيش بعضه ، وقد يخلد قليل منه لجوانب الجمال والابداع فيه ، لكنه مع ذلك لا يعبر كثيرا عن واقع شائك ومحتـدم ، عن دخان معارك ومثار قضايا وصراع فكر ·· بل انه ليطغى فيه الخيال والأسـلوب على الواقع ومخاطبة العقل ، وما كان صاحبنا كذلك ··

أردت بهذه المقدمة الطويلة أن أقول أن الجاحظ كان نتاج عصره ، أدبا وصحافة وانه كما يكون الأديب صورة ذلك العصر ، والصحفى محصلتها ، فقد كان « رجلنا » أيضا وهو من هذه الزاوية يعتبر أديبا وصحفيا معا ، بكل ما أكد أنه نتاج عصره ·· ولكن كيف ؟

● أما العصر المؤثر والمتأثر فهو « العصر العباسى » فاذا شئنا أن نحدد على طريقة مؤرخى الأدب ، فهو « العصر العباسى الأول » · ذلك الذى يبدأ منذ قيام الدولة العباسية ، بعد الحروب المستمرة بين الجماعات الشـيعية والأمويين ، تلك التى انتهت بانتصار هذه الجماعات ، وفرار عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » الى الأندلس ليؤسس هناك دولة أموية أندلسية جديدة استمرت قائمة نحو ثلاثة قرون ·· فاذا شئنا أن نكون أكثر تحديدا لقلنا أن الرجل قد ولد عام ٧٧٥ م ـ ١٥٩ هـ ·· أى بعد قيام هذه الدولة بحوالى ١٧ عاما فقط بمدينة البصرة ·· تلك التى كانت « نافذة عربية » على العالم الشرقى المعروف فى ذلك الوقت ، خاصة بلاد فارس والهند ، كما أنها التى تقع على طريق الكوفة ، التى لم تكن نار ثورتها قد خمدت تماما بعد بل كان وميضها يتأجج أحيانا من « خلل الرماد » ، فترتفع بذلك راية العصيان ، وكما حدث أكثر من مرة ، مما دعا « أبو جعفر المنصور » الى ترك « الهاشمية »· عاصمة أبى العباس السفاح ، واتخاذ قرية صغيرة تقع على الضفة الغربية لدجلة ، لتكون عاصمة له ، وحاضرة لدار الخلافة هى « بغداد » ·· تلك التى سرعان ما أصبحت ولقرون طويلة ، أهم مدينة فى العالم الاسلامى ·

وبينما كان « صاحبنا » يخطو خطواته الأولى على مدارج الصـبا ، منتقلا بين حدائق البصرة ، وقنواتها تلك التى تشبه قنوات « البندقية » ، وبينما كان يعدو من بستان الى بستان ، ومن حى الى حى ، وعتها بعد ذلك ذاكرته وصورتها بأكثر من طريقة ·· كانت الأحـداث حوله أكثر عدوا ، وأكثر سرعة ، كانت معالم حضارة جديدة كاملة ، قد بدأت فى الوضوح ، كانت ملامح عصر جديد ، مخالف ، خصب ، نام ، متطور مؤثر ·· قد أخذت

نشق طريقها بسرعة وبقوة معا ، بينما كان الصبى يتيم الأب جاحظ العينين طموح الفؤاد عزيز النفس يجمع بين بيع الخبز والسـمك لطلب الرزق من جانب ، وبين التردد على « الكتـاب » وبعض دكاكين الوراقين ، ثم بعض مساجد المدينة المتلألئة بنور الدين والعلم والأدب ، من جانب آخر ، كانت الصورة من حوله ، تتحدث بتلك الوقائع ، وتتكلم بمشاهد التغيير ، بل كان ضجيجها يكاد يعلو على أى ضجيج آخر ، فى العالم المعروف وقتئذ ـ قرب منتصف القرن الثانى للهجرة ـ وكانت هذه لقطات سريعة من جوانب وزوايا هذه الصورة نفسها ٠

● فالانفتاح الفكرى الثقافى والتجارى يمضى على اشده خاصـة على بلاد فارس ، وكأن هناك حاضرة أخرى تشترك مع بغداد المدينة الكبرى ـ وليست القرية المسيحية الصغيرة ـ فى سباق حول هذا الانفتاح ، لاسيما على الحضارة الفارسية ، أيهما ينهل ويغترف وينقل ويترجم أكثر ، ولو حاولنا أن نقوم بحصر لعشر معشار ما كان يجرى فى هذه الميادين كلها ، لما كفانا مثل هذا الكتاب ، ويكفى أن نقـول أن نظما بأكملها ولوائح فى معظمها ، ومكتبات فى مجملها ، ومئات الصور الحضارية الأخرى ، جميعها نقلت ، شكلا ومضمونا ، دواوين ووزارات وكتب ومعمار وفرش ورياش وزخارف وأطعمة ومشروبات وضروب جد ولهو ، وملابس وحجاب وعبيد وقيان وحفلات وتقاليد جديدة وفنون جديدة ، جميعها نقلت اليها ، ومرت بالبلاد العراقية الأخرى ، واستقرت فى معظمها أو انتقلت اليها العدوى البغدادية نفسها ٠

● وحتى هذه العاصمة الجديدة نفسها ، فقد تجمع من اجل اقامتها وتشييدها ومن أجل عمارة أحيائها وقصورها وشاطئيها وحدائقها ومنازلها مئات من المهندسين وألوف من الصناع والحرفيين والفنيين من كل المـدن العراقية والفارسية معا بل وجمع لها كل غال ونفيس ونادر مما حوته قصور « **الأكاسرة** » وانقاضها ، من « المدائن » ٠٠ تلك التى أصبحت أنقاضا ، تنعى من بناها ، أو ينعق البوم بها ، لتقوم بدلا منها ، وترتفع عوضا عنها قصور الخليفة والوزراء وأثرياء التجار وقادة الجند وما اتصل بها من حدائق وبرك مياه ونافورات مختلفة الألوان والأشكال ٠

● وكانت دولة متسعة الأطراف، أو كما يقول علماء «**الجيوبولوتيكا**» ٠٠ دولة « **عملاقة** » بمقاييس هذه الأيام تمتد أطرافها من كشـمير وبعض

مناطق الهند وفارس شرقا حتى أقصى بلاد الشام شمالا ، والى المحيط الأطلسى غربيا ، أى أنها تكونت من حضارات عديدة وشعوب عديدة ولغات عـــديدة وتقاليد عديدة أيضا ، وكان هذا الاتساع مصدر ثراء وترف ، لكنه أيضا كان مصدر صور ومشاهد وعادات جديدة ، كما كان كذلك مصدر كثير من القلق والفتن التى أزعجت الدولة والخلفاء كثيرا ، وحيث كان عليها من هذه الزاوية أن تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لاسيما وقد استعانت فى القضاء على الثورة ضدها ، بغير العنصر العربى ٠

كان الصبى يكبر ، وتتأصل أمام عينيه وعلى مسمعه هذه الصور كلها ، وتزداد حجما واتساعا ووقعا وأثرا وتأثيرا ٠٠ واذا كنا هنا لم نتوقف عند الجانب الثقافى لهذه المشاهد كلها فما ذلك الا لأننا سنعود الى رؤيته وتتبعه فى مواطن أخرى ، أو فى أكثر من موطن آخر ٠٠

المهم ، رجل كانت هذه نشأته ، وتلك هى الصور والمشاهد التى وقعت أمام عينيه ، فراحتا تتابعانها بحس الأديب ، وفكر الملتقط الماهر بل راحت نفسه وراح عقله وراحت عينه وراح فكره ، جميعهـــا تنقلها وتبقيها فى الذاكرة ، أو تخلط بين أطرافها ، وتجمع بين خيوطها ، لتكون منها صورا ومشاهد أخرى ، معظمها واقعى عقلى ، لأنه يقوم على الرؤية والمشـاهدة والتتبع والالتقاط ، فقويت بذلك عنده حاسة الصحفى والأديب معا ٠٠ فها هى الأحداث أمامه ، بعضها واضح وبعضها الآخر غامض ، بل وشديد الغموض أيضا ، وبعضها معروف ، ومتابع ، وبعضها الآخر غير معروف يحتاج هو أو تحتاج معرفته الى بحث وراء بعض خيوطه أو لاستجلاء بعض معانيه ، أو من أجل مزيد من الشرح والتفسير لها ، وبعضها كذلك ، يحتاج الى سفر طويل أو قصير ، والى لقاء مع أكثر من شخص ، بعضــهم يقيم بالمدينة ، وبعضهم يضرب خيمته بالبادية ، وقد يحتاج الأمر الى تأكيد وتدقيق ، ليكن ذلك فى « دكاكين الوراقين » نفسها ٠٠ وهكذا ، وما الى ذلك كله ، وغيـر ذلك ، كله ٠٠ مما كان موضوع نتاج الرجل ، ومجال فكره ، بل ونتاجه هو نفسه واذا كنا سوف نناقش أو نتعرض لهذه الأمور كلها مرة أخرى عنـــد تناولنا للجاحظ « مصور عصره » وليس صورته ، فاننا نضيف هنا ٠٠

أن هذه الأحداث كلها ، هذا العصر بما فيه ومن فيه قد تدخـــل فى « تشكيل » صورة الزجل ، ورسمها ولونها الى حد كبير جدا ، ومن ثم فقد

ازدحمت رأسه بأمثال هذه المشاهد ، وزخر بها صدره ، وطغت على فكره ، وملكت عليه حسه وفؤاده ومن ثم فقد جاء نتاجه معبراً عن ذلك كله ، يظهر فيه أثره ، كما لم يظهر فى كراسات أو رسائل أو كتب غيره من أبناء العصر نفســـه ٠٠

وحتى لا تختلط الحدود أو الأوراق عندنا بين « **الجاحظ** » نتاج عصره، **والجاحظ** مرآة عصره ، فاننا نقول أن السطور القادمة سوف تقدم ـ باذن الله ـ مزيداً من الضوء حول هذا النتاج ، بأسلوب اكثر التصاقا من كتابات الرجل ، لكننا نركز هنا على نقطتين :

● أن تأثره بعصره قد دفع به الى أن يعيشه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، دفع به الى أن يرتاد المساجد والمكتبات والدواوين والقصور ودور اللهو ومجالس الأنس ومجتمعات الندامى ودكاكين الوراقين وأحياء الزنوج ومواقع السفلة ، بل لقد اكتوى الجاحظ بنار الفتن السائدة ، وخاض مواقف التحديات ، ورأس احدى طوائف المعتزلة وتحدث بلسانهم ، وقبض عليه اكثر من مرة ، وسيق مكبلا بالأغلال وسجن ، وبولغ فى اهانته ، وفى السخرية منه ، تماما كما بولغ فى مديحه والثناء عليه ، كان نتاجا للعصر بكل صوره و « متناقضاته » و « **كرنفال** » جده وهزله ،علمه ولهوه عمــله ومجونه ٠٠ ومن ثم كانت خبرته بذلك كله ، وراء كتاباته العقلية والموضوعية والتسجيلية الصادقة ، ألا يعنى ذلك كله أن الرجل كان نتاجا صادقا وواقعيا لهذا العصر بكل ما فيه ، ومن فيه ؟!

● **أننا نشير هنا الى بعض الأقــوال التى اتجهت الى بيان ذلك ، واتفقت فيه مع افكارنا ، بعد أن أضفنا اليها « المنحى الصحفى » :**

ـــ ان أحد كبار الدارسين لنتاجه الغزير ، يقول فى مقدمة تحقيقه لكتابه « البخلاء » ٠٠٠ ان الجاحظ : « من أوفى أهـــــل عصره لطابع ذلك العصر » (١) ٠

ـــ ويقول دارس متابع آخر : « كان معظم النتاج الأدبى قبل الجاحظ لا موضوع له يدور فى حلقات مفرغة منمقة الحواشى من الفاظ مرصوفة أنيقة على غير مضمون ، فاذا بصاحبنا يشق طريقا جديدة ساعده فيها ابن المقفع

فيجعل من الأدب مرآة المجتمع والحياة ، فاذا كل شأن من شــئون الوجود يصلح مادة لقلمه ، حتى القينة واللص والجن وجــدت لها مقاما فى آثاره المنوعة بتنوع الأشياء والكائنات » (٢) ٠٠

ومن المؤكد ـ باذن الله ـ أن السطور القادمة سوف تضيف جديدا الى هذا الموضوع ٠

مكــــوناته

واذا كان الصحفى عند بعضهم ـ ونحن نميل الى ذلك الجانب ـ هو الرجل المكون من عدة رجال ، أو هو الذى يأخذ من كل بســتان زهرة ، أو ـ وكما نحب أن نقول أيضا ونكرر فى مؤلفاتنا ومحاضراتنا ـ هو رجـل « الاختصاص العام » ، وان جمع الى جانبه « اهتماما خاصا » ٠٠ اذا كان الصحفى عند بعضهم هو ذلك الرجل ، فان من الضرورى أن يكون « تكوينه » ٠٠ وبمعنى استعداده وتربيته وثقافته وتعليمــه مما يتجه الى احراز هــذا الجانب العام فى شخصه ، حتى وان كان له اهتمامه الخاص ، ذلك الذى قد يكون أدبا ، أو ما يتفرع عن الأدب ، أو يكون علما أو ما يندرج تحته أو يكون غيرهما ، وما ينبثق عن هذا الغير ٠٠

وباختصار شديد نقول ، وحتى دون أن نقدم أكثر من مثال لذلك ، ان مدارس الصحافة (٣) ، وان معاهدها ، وان كلياتها وان أقسامها قد وعت هذه الحقيقة منذ انشائها فى الربع الأخير من القرن الماضى ، وقبله بقليل ، فقد كانت برامجها التعليمية تتكون من قسمين رئيسيين أولهما «القسم العام» الذى يبرز فى عقل الطالب وصدره بذور « الرجل العام » أو « المثقف العام » ٠٠ ويعمل على تكوينه باعطائه من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ، حتى يشب على ذلك ، ويتعوده ، ويمارسه ، ومن ثم فقد كان هذا القسم الأول من البرنامج الدراسى يشمل هذه المناهج كلها ، وأحيانا يشمل أكثر منها مع تركيز شديد على أساسياتها :

- مبادىء الاقتصاد ٠
- القانون العام ٠
- الجغرافيا الاقتصادية ٠

— الجغرافيا السياسية ٠
— النقد الأدبى ٠
— المجتمع العربى ٠
— التاريخ خاصة الحديث وتاريخ العصور الوسطى ٠
— الثقافة الاسلامية ٠
— التطور العلمى ٠
— الترجمة الانجليزية ٠
— الترجمة الفرنسية ٠
— بعض اللغات الضرورية خاصة الانجليزية والفرنسية والألمانية ٠

الى غير هذه من مواد مشابهة ، أو متفرعة عنها ، لكنها ـ فى جميع الأحوال ـ كانت تحاول تكوين مثل هذا الصحفى الذى يعرف شيئا من كل شىء ، كما كان بعضها يتسم بالمرونة ، ويســـاير روح العصر ، وماجريات أحداثه ، لاسيما مادة « التطور العلمى » ومادة « الجغرافية السياسية » ٠

وأما المجموعة الثانية أو القسم الثانى من هذا المنهاج ، فقد كان هو القسم الخاص بدروس ومقررات الصحافة المطبوعة ، وما اتصل بها من مواد تقف على هامشها (٤) وكان من أهمها :

— التحرير الصحفى العام ٠
— الخبر ومصادره ٠
— تحرير الخبر ٠
— تحرير التقرير (الحديث والتحقيق والماجرى والتقرير المصور)٠
(وبعضها يدرس كل فن على حده فى فصل دراسى مختلف)
— تحرير المقال ٠
— تاريخ الصـــحافة فى العالم (بعضــها يقســمه الى مقـــررين للصحافتين الأمريكية والأوروبية) ٠
— تاريخ الصحافة العربية ٠
— تاريخ الصحافة فى البلد نفسه أو فى منطقـــة ما : (مصر ـ سوريا ـ تونس ـ السعودية ـ أو فى افريقيا أو تاريخ الصحافة الخليجية) ٠

ـــ تشريعات صحفية « جرائم النشر »
ـــ الاخراج الصحفى (بعضها يدرس الاخراج والطباعة معا أو يفصل بينهما ، وبعضها يفصل بين اخراج الصحف من جانب واخــراج المجلات من جانب آخر) ·
ـــ الطبـــاعة ·
ـــ التصوير الصحفى ·
ـــ المكتبة الصحفية « توثيق المعلومات الصحفية » ··

الى غير هذه كلها ··

ويعضهم يقسمها الى ثلاث مجموعات أو أربع ، فتكون هنــاك مجمــوعة خاصة لغوية للغات والترجمة ، أو للمقررات أو المواد الهامشية ، وقد تضاف اليها خامسة لمتطلبات التدريب أو « المعمل الصحفى » ·· أو تكون لكل مادة صحفية تدريباتها العملية ··

المهم انه كانت هناك : مجموعة يرجون من ورائها تكوين مثل هــذا « المثقف العام » وأخرى يأملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى ··· ويلحون فى ذلك أيضا ··

أردت بهذه السطور أن تكون بمثابة مدخل للحديث عن مكونات رجلنا، أو موضوع هذا الكتاب « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ·· فهل كــان هناك ما يتصل به هو شخصيا من زاوية هذه المقدمات ؟ ·

● **ونبدأ بالثانية** ـ المكونات أو المقررات التى يأملون من ورائهــا تكوين مثل هذا الصحفى ـ لنتناولها من خلال نقطتين أساسيتين :

★ **أما النقطة الأولى** ، فهى أنه لم يكن من المعقول أن يقوم «الجاحظ» فى طفولته أو فى صباه ، أو فى شبابه أو حتى فى شيخوخته بدراستها ، لأنها لم تك موجودة كما نعرفها الآن ـ الصحافة هنا ـ حتى يدرسها هو أو غيره وان كانت الصلات قائمة ووثيقة بين بعض ألوان النشاط الفكرى السائد وبينها لا سيما ما اتصل بنشاط دواوين عديدة من أبرزها (الخبر ـ الانشاء ـ الرسائل) ·· وبين بعض الفنون الأدبية من أمثال : « **القصص العربى** ـ

القصص القرآنى ـ الأخبار والاخباريون ـ أدب الرحلات ـ فن المقامة ـ فن الترجمة الشخصية » ·· وما اليها ، كان الصلات قائمة ووثيقة بين نشاط هذه الدواوين والكتابة في هذه الفنون وغيرها من جانب وبين الصحافة ، أو الأدب الصحفى من جانب آخر ، حتى دون معرفة هؤلاء بالصحف التى تصدر اليوم ·· لكنهم ـ بالقطع ـ كانوا ينظرون اليها على أنها من جنس الأدب لا الصحافة ، وليس لأحد أن يطالبهم بغير ذلك ··

لكن . من حيث « تعليم الصحافة » ·· فان الجاحظ لم يكن بدعة فى ذلك فحتى أوائل الخمسينيات فى مصر ، لم يكن من الضرورى أن يكون الصحفى متعلما وما يزال بعض من لم يدرسها يحتل المراكز المرموقة جدا فى بلاطها ·· وما تزال كثرة من المحررين فى بعض البلاد ، من انصاف المتعلمين ، أى أنهم لم يدرسوا لا الصحافة ولا غيرها ··

★ وأما النقطة الثانية ـ فقد كانت دراسته للفنون الأدبية تجب ذلك كله ، لا سيما وقد ركز فى هـذه الدراسة ـ كما قال هو نفسه ووضح فى دراساته ـ على ما يفيد منه الخاص والعام ، وعلى ما يجد تجاوبا عند عصره، وأقول ، ان من يقرأ الجاحظ يعرف أن دراسته هذه، كانت تتجه من حيث يدرى، أو من حيث لا يدرى ، الى هذه الفنون الأدبية التى ولدت بعد ذلك عددا من الفنون الصحفية أو انبثقت الأخيرة منها ، أو انسلخت عنها ورضعت لبانها، ونمت وترعرعت بين أحضانها أيضا ، أى أنه من هذه الزاوية ، وعلى الرغم من عدم وجود مدارس وأقسام وكليات الصحافة ، وعدم معرفة هذه العصور بتلك الدروس كما نعرفها اليوم ولا بتلك الفنون كلها ·· الا انه درس اصولها ومنابعها الحقيقية ويكفى نظرة واحدة الى تلك المصادر الأصيلة ، والبشرية ، وتلك الينابيع العذبة ، التى استقى منها مادة كتاب من كتبه ، مثل « البيان والتبيين » ·· ليضع الباحث فى «فن التحرير الصحفى» أو «البلاغة الصحفية» أو « الأدب الصحفى » يضع يده على كثير وكثير جدا ، من أسس وقواعد هذه الدراسات كلها ··

لقد درس « الأصول » ·· ولكن بأسلوب يتلاءم مع عصره واتجاهاته ومعارفه ·

● وأما الأولى : وأكاد أقول أنها عندنا أهم من السـابقة ، فهى

دراساته ، و تلك المكونات التى أسفرت عن تكوين هذا الرجل ، الذى نقول أنه كان طرازا نادرا من رجال « التخصص العام » ٠٠ أو من «الموسوعيين » الذين قامت على أكتافهم صحف ومجلات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا، خاصة صحافة المجلة كما قامت على أكتافهم هذه الصحافة الأخيرة أولا ، والعامة ثانية فى مصر وسوريا والعراق والجزائر فى نهاية القرن السابق ، وأوائل القرن الحـالى ٠

وبداية نقول أن « صاحبنا » كانت دراسته شمولية ، متنوعة ، تضرب فى أكثر من مجال واحد ، وتتصل بأكثر من تخصص واحد ، بل وبالعديد من المجالات والتخصصات المختلفة ، قبل أن نتحدث عنها ، نلقى نظرة على عدد من هذه الينابيع التى استقى منها هذه الثقافة بمعناها المتسع والكبير ، والتى جعلت منه فى النهاية ، رجل «التخصص العام» وهى صفة صحفية فى أغلب الأحوال ، ولازمة للعاملين فى بلاط صاحبة الجلالة من أمثال «الكتاب الصحفيين» ٠٠ وغيرهم ، وحتى أصغر المندوبين ، الذى يكون عليه أن يعرف الى جانب حقل عمله ومنطقة اختصاصه ، كثـرة من الحقـول ومنـاطق الاختصاص الأخـرى ، والا ضاقت الفرص امامه ، وأصبح حبيس جهة واحدة، ومصادر واحدة ووجوه واحدة فقط ، بل ولعلاه الصدأ ، واعتراه الجمود ، وتسللت الى عمله الرتابة ، والركود ٠٠ وجميعها فى غير صالحه ، وفى غير صالح العمل الصحفى فى مجموعه ، وبالطبع فانه يستثنى من ذلك بعض المندوبين فى جهات « القمة » وأماكنها الحساسة التى يوقف المندوب عليهـا عمره وتستحق هى ذلك كله ٠٠ ولكن ليست اية جهة أو منطقـة اختصاص غيرها ٠

أما هذه الينابيع فهى :

١ ـ **الكتاتيب** : تلك التى راح يلتحق ببعضها منذ طفولته المحرومة ، وصباه الشقى المكافح ، وواضح أن ما تقدمه هذه يتركز معظمه فى حفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث النبوى ، وقدرا معقولا من علوم التفسير والفقه الى جانب بعض المسائل اللغوية التى كانت تقدم لمن هم فى مثل سنه ، واذن فالأساس دينى لغوى ، كأساس غيره ، وهو أقوى الأسس التى ارتكزت اليها طوائف « الموسوعيين » ٠٠

وواضح أننا اذا كنا نعنى الكتاتيب مكانا أو اطارا ، فان التوجه كان

أولا للقرآن الكريم والحديث النبوى ·· لا سيما فى مؤلفاته اللغوية والبلاغية وحتى العلمية أيضا ·

٢ ـ دكاكين الوراقين : وعند بدأ الجاحظ « الغلام » هنا ، يشب عن الطوق ويتعرف على من حوله ، قويت لديه الرغبة كزملائه الكبار فى المزيد من المعرفة ، أو الثقافة العامة ، وليست الدينية فحسب ، وكان من المعروف أن هذه يمكن أن يجدها فى أكثر من مكان من أهمها « دكاكين الوراقين » ·· ومن ثم راح يغشاها ، فى بعض الأحيان أو يستأجرها فى أحيان أخرى ، يجلس بها الساعات الطوال ، ويصل ليله بنهاره حتى يأتى على أغلب الموجود بها ، وهو ممثل لثقافة العصر العربية ، وتلك المنقولة أو المترجمة عن الفارسية والهندية واليونانية ، التى وصلت كتبها مع من حضر من أبناء هذه الشعوب الى عاصمة الخلافة ، أو البصرة ـ العاصمة الثانية ـ أو مع التجار أو مع الرحالة والجنود ، ومن خلال ما حدث من امتزاج بين العنصرين ، العربى ، والعناصر الأخرى ، خاصة الفارسية والهندية ، التى تقع البصرة على طريقها، وتعتبر من مناطق الجذب بالنسبة لها ··

وكما وضعت « الكتاتيب » أسس ثقافته الدينية ، فقد أضافت اليها دكاكين الوراقين كثيرا ، ثم جاءت بأكثر من لون من ألوان الثقافة الأخرى ، اللغوية والأدبية والفارسية والهندية لتضعها بين يديه ، وطوع بنانه ·

٣ ـ المساجد : واذا كان انتشار المدارس الفكرية والفلسفية والعقائدية يعد «ظاهرة» فى هذا العصر ، فقد كانت هناك أيضا «المدارس المسجدية» ، تلك التى كانت تؤمها طائفة كبيرة من الذين كانوا يريدون العلم من أجل العلم ، ومن ثم شهدت هذه المساجد حركة ثقافية دينية علمية كبيرة ، كانت مناقشاتها تمتد طويلا ، وتتفرع وتتشابك ، كما اتصلت بموضوعات عديدة أخرى ، لغوية ونحوية وبلاغية وأدبية يقوم عليها عدد لا بأس به من العلماء أطلقت بعض المراجع العربية عليهم تعبير « المسجديين » وكان من أهم ما يميزهم تنوع المجالات والاهتمامات ، حتى قيل عنهم أنهم وان انطلقوا من الأساسيات الدينية واللغوية ، الا أنهم لم يتقيدوا بها ، بل لم يتقيدوا بعلم واحد ، وأكثر من ذلك وأهم منه أيضا أن هؤلاء لم « يتبحروا » فى علم واحد من العلوم ، ولم يكونوا من أصحابه دون غيره أو من أهل « التخصص الدقيق » فيه ·

وعندى أن هؤلاء ، بالاضافة الى استعداد الرجل نفسه ، والى عدد من الذين يمكن أن نطلق عليهم تعبير «الموسوعيين» ٠٠ كانوا هم من أبرز المؤثرات فى مكونات الجاحظ العامة ، أو فى اتجاه « التخصص العام » الذى سيطر عليــه ٠

٤ ـ العلمــاء : كثير من العلماء والرواة واللغويين والخطباء أثروا فى اتجاهات الجاحظ عامة ، لكن من الملاحظ هنا أن بعض العلماء كان أثره وقتيا محدودا وان أفاد منه ، وبعضهم الآخر كان تأثيره كبيرا ، ومهما ، ومن الغريب أن هذه الطائفة التى كان تأثيرها على فكره أشد وقعا ، وأمضى استجابة ، كانت من بين هؤلاء الذين عرفوا بالشمولية وانطلاقة الفكر الى ميادين عديدة قــد تستعصى على بعض علماء اليوم ، وهكذا اجتمع له تعدد موضوعات هؤلاء ، مع تعدد موضوعات « المسجدين » ، لتترك هذه كلها آثارها فى نفس الرجــل وصدره وفكره ، وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر خاصــــة ممن أثروا فى اتجاهاته الكتابية التى نعتبرها أدبا صحفيا :

● « أبو عبيدة » ذلك الموسوعى الذى نعتبر انه كان من أكثر من ترك « بصماته » الواضحة على فكر الجاحظ « الشمولى » أو ما يتصــل بجانب « تخصصه العام » لا سيما وأن تأثيره قد جاء فى فترة مبكرة من الوقت ، وهو يجتاز المرحلة من الصبا ، الى الشباب المبكر ، ومن ثم فقد حفر هذا الرجــل أثره فى وقت مناسب ، وصدر مستعد وتعامل مع فكر متقبل وذاكرة حافظة ، وقد أوفاه الجاحظ حقه ، فتحدث عنه كثيرا ورفعه الى المكانة التى يستحقها ، وكان مما قال عنه « لم يكن فى الأرض خارجي ولا اجماعى أعلم بجميع العلوم منــه » (٥) ٠

واذا كانت للرجل مؤلفاته المتعددة ورسائله التى جلت عن الحصر، وخاصة فى موضوع الطير والحيوان والحشرات، الى جانب عجائب البر والبحر، وألوان الشجر والثمر ، فاننا نضيف هنا اننا لا نستبعد أن يكون اهتمام الجــــاحظ بمثل هذه المخلوقات والأشياء يعود الى هذا الرجل اولا ، وقبل غيره ، والى انجذاب الجاحظ به وبحكاياته ورواياته ورسائله ، فى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وهو ما أسفر بعد ذلك عن كتاباته المماثلة ، والتى أوشك أن يتفوق فيها على الأستاذ نفسه خاصة مؤلفه الكبير « الحيــوان » الذى سيرد ذكره فى حينــه باذن الله ٠

● « النظام » واذا كان الموسوعى السابق هو من لفت نظر الجاحظ ووجه فكره الى التناول الشمولى عامة ، وموضوع الحيوان والطير والحشرات والعجائب خاصة ، فقد كان هذا الأخير « **ابو اسحق ابراهيم بن هانىء** » هو الذى وجه نظره ، ومهد فكره للمسائل المتصلة بالفلسفة والسياسة وجوانب الرأى العقائدى معا لاسيما تلك التى تتصل بالفرقة الدينية المسماة بـ «المعتزلة»، خاصة اتباع هذا الرجل من « **المعتزلة النظامية** » ·· وعموما فان الرجل لم يكن وحده الذى فعل ذلك ·· على انه كان من أهم مؤثرات النظام فى صاحبنا :

— البحث وراء العلل والأسباب لكل الظواهر القائمة ، أو ما يستجد منها ·
— الشك فى كل ما هو قائم حوله ، واتخاذه بداية للتفكير فى الأصول والفروع ·
— الحرص على حرية التفكير والتعبير والعض عليهما بالنواجذ ·

— الكلام المختصر المرسل وغير المسجوع الا ما جاء عفو الخاطر ·· باختصار شديد ، كان النظام مذهبيا وصاحب فلسفة ورأى وعالم وباحث، ومن ثم ، فاننا لا يمكننا استبعاد تأثيره على اتجاهات الجاحظ الفكرية والمذهبية ، بل والتأليفية والكتابية — أو التحريرية — العامة ، واضيف هنا ما ذكره باحث جاد ، عن جانب من جوانب اثر هذا الرجل : « ·· وقد اثر النظام فى الجاحظ تأثيرا بليغا ، وكانت طريقته فى التحرى من اركان طريقة الجاحظ العلمية » (٦) ·

● « **الأصمعى** » ·· قلنا أن أبا عبيدة لم يكن وحده هو المؤثر ، ولا كان النظام أيضا وانما يقترب منهما ، فى بعض هذه المجالات الشمولية ، ويضيف اليهما جديدا من الأثر فى عديد من الموضوعات اللغوية وما يتصل بالاخبار والرواية وجمعها ، الى جانب تعود تقديم الملح والطرائف والاهتمام بما يثير الفضول والتشويق ، وجمع النوادر ، وما اليها ، تلك التى حفلت بها كتابات « صاحبنا » بعد ذلك ، وكانت طابعا عنده ، لا سيما تلك التى جاءت على صفحات « البخلاء — الاخوان — الأخبار وكيف تصح » وغيرها ··

وغيرهم ، وغيرهم ، خاصة من عرب البادية ، وهؤلاء الذين كانوا يجمعون بين اكثر من مادة واحدة ، أو موضوع واحد ، على النحو السابق ··

مما يعود الى تذكيرنا بمناهج ومقررات اقسام وكليات ومدارس الصحافة ، تلك التى تهدف الى اعطاء شىء من كل شىء ·· مع الاحتفاظ لكل بمستواه وطابعه، وما أبعد المسافة بينهما ، أو شتان بين مستوى قديم وأصيل وجـــوهرى ، ومستوى معاصر « قشرى » أو يكاد يكون كذلك ·

التثقيف الذاتى

لكننا فى واقع الأمر نظلم « رجلنا » ظلما فادحا ، ونبخسه حقه تماما ، ان نحن قلنا ان هذه المكونات وحدها ، كانت وراء هذا المستوى الجاحظى فكرا وثقافة وبحثا ولغة ·· متجاهلين بذلك ، أو متناسين ذلك الجانب الذاتى الخاص المهم ·· فلا العصر نفسه بكل ما فيه من نشاط دينى وعلمى ولغـوى وفلسفى وأدبى ، وبكل ما شهده من نمو وازدهار ، ومن صراع فـــكرى وعقائدى ، ومن كثرة فى المساجد والمدارس والكتاتيب ، ومن انشاء للمكتبات، ومن تشجيع الخلفاء والأمراء والأثرياء للعلماء والأدباء ، ومن مجالس للعلم والأدب ، تقدم فيها الهبات وتمنح « الاكراميات » وتتابع العطايا ·· ومن مترجمات كاملة عن الفارسية والهندية واليونانية ومن وفود علمـــاء الدنيا المعروفة على حاضرة العباسيين — بغداد — وعاصمتهم الثانية — البصرة — يحملون نتاج حضارات عديدة مجتمعة ، قديمة وجديدة، شرقية وغربية لم تكن هذه كلها لتؤثر وحدها ، دون قيام هذا الجانب الذاتى الخاص نفسه ، بل ان الكتاتيب » و « دكاكين الوراقين » و « المساجد » و « عشرات العلماء » لم تكن لتنتج أو لتثمر كل هذا الحصاد الوافر أو الفيض الغامر ، دون قيـام لهذا العامل الذاتى المهم ··

·· ان هذه « الأجواء » الفكرية والسياسية والعقائدية والثقافية التى سادت هذه السنوات الخصبة المثمرة ، كانت تظلل الجميع بظلالها ، وتمد اذرعها الى كل مكان ، ولم تكن وقفا على المدينتين الكبيرتين وحدهما — بغداد والبصرة — وانما راحت تنساب مع مياه دجلة والفرات من أقصى البلاد الى اقصاها ، تأثر بها الريف والحضر ، بل امتد أثرها الى خارج الحدود أيضا ·· اى أنه كان فى طائل الجميع أن يفيـــدوا منها ، وكانت هى ، بكل اشراقها وضجيجها وجلبتها طوع أيديهم وأفكارهم وأسماعهم ··

فلماذا افاد منها الجاحظ ونفر قليل من أمثاله قبل غيرهم ؟ وأفاد منهـا

هو قيل غيره بحيث لم نر له مثيلا فى عصره ، اللهم الا نادرا ؟ ٠٠ حتى قيل عنه ، من جانب مؤيديه ومعارضيه معا ، ومن بين كثير مما قيل عن الرجل :

● « القرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين : عصـــر الجـــاحظ » (٧) ٠

● «قلما عرف الأدب العربى فى مختلف عصوره أديبا موسوعيا بلغ ما بلغه الجاحظ من غزارة فى المادة ودقة فى التحليل وعمق فى النظر وتنوع فى مجالات الابداع » (٨) ٠

● « كان دائرة معارف عصره » (٩)

بل ، لقد أتيح لأبناء الخلفاء والأمراء وكبار التجار والأثرياء ، أضعاف ما أتيح له من فرص التعليم والتثقيف والاغتراف من هذه المصادر كلها ٠ وهو الصبى اليتيم ، ابن الأسرة الفقيرة ، الذى كان يتكسب عيشه ببيع الخبـــز والسمك ، عندملتقى بعض القنوات بالبصرة ٠٠ لكنه ، ومع ضيق ذات اليد، كان يحمل بين جنبية ، هذه « المكونات » الخاصة كلها ٠٠ التى أعانته علـى شق الطريق وتحمل مصاعبه ، ومن ثم ، فقد بز هؤلاء جميعا ، ووصل الى هذه المكانة الهائلة ، التى يحسده عليها أمثالهم من معاصريه ، ومن غير معاصريه، بل وربما لم يصل اليها لا أقول بعض هؤلاء الأثرياء ، أو كبار التجار ، وانما بعض الخلفاء والأمراء والوزراء أنفسهم ، ممن قد لا يعرفهم البعض الا من خلال دروس التاريخ ، بينما يطويهم النسيان وتطوى صفحاتهم بمجرد انتفاء الحاجة ٠٠ ذلك كله بينما يعيش الجاحظ بفكره وأدبه وجوانب عبقريته من حقبة الى حقبة ، ومن عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، فى وجدان الطالب والباحث والمثقف والأديب ٠٠ وحتى هواة « الفكاهة » أيضا ، تلك التى كان الرجل علما من أعلامها ، وله مدرسته المعترف بها ، فى هذا الفن أيضا ٠

ان باستطاعتنا أن نتوقف عند عدد من أهم معالم هذا الجانب الذاتى نفسه الذى بز به أقرانه ووصل الى تلك المكانة ٠٠ ان من بينها :

★ احساسه « الجذرى » العميق ، والذى لازمه منذ صباه بضرورة الاعتماد على نفسه وتحمل مسئوليته وقد بذر ذلك فى صدره ، وحتى يمــكن

أن يتحقق له هذا الاعتماد على النفس أكثر من بذرة سرعان ما نمت وترعرعت لا سيما بعد أن أضيفت اليها وتشابكت معها عوامل أخرى عديدة ، أما هـذه البذور نفسها فهى :

- عدم التخوف من مخالطة الناس ، وتعود مناقشتهم والشد والجذب معهم ·
- معرفة طرق البعض فى التحـايل وقيـادة الحديث وتوجيهه الى صـالحهم ·
- عدم التسليم بما معه ، الا عن رضى واقتناع كاملين ·
- الاستماع الى ما يدور حوله من مناقشات على قارعة الطـريق وبجانب قنوات البصرة وفى حدائقها ··

باختصار شديد ، لقد كان هذا الواقع نفسه وراء ما تكون لديه بعد ذلك من « حاسة اجتماعية » جعلته يختلط ويناقش ويحلل ويفسر ، فى هذا السن المبكر ·

★ ولعل الاستماع الى أمثال هذه المناقشات العامة ، ثم ما كان يدور فى الكتاب قد فجر عنـده بعض « المواهب » لأول مرة ، لا سـيما موهبة « الاستماع » أو « الانصات » وكذا موهبة « الحفظ » ·· فتدرب خلال هـذه الأيام ، وكثر تدريبه على حسن الاستماع وله أثره الكبير فى دقة المتابعة ، ويقظة الفكر واستيعاب ما يدور ، ثم كشف ذلك عنده عن هذه «الذاكرة القوية» ··· التى تحسن التقاط الصور والمشاهد وتجيد الحفاظ عليها ، لتخـرجها « عند اللزوم » ·· وفى الوقت الذى تريد ·

★ لكن نفسه الطموح ، ورغبته فى الاستزادة ، واحساسه بأن فكره يريد ما هو أكثر من علوم الكتاتيب التى كان يؤمها غيره ممن هم فى مثـل سنه ، وليسوا فى مثل تجربته ، دفع به الى دكاكين الوراقين ، ليقرأ فيهـا بنهم ، محاولا اشباع فكره الذى يلح عليه بالمزيد ، ومن ثم بدأ يقتحم مجالات ثقافية جديدة ، وكلما أخذ شيئا طلب فكره المزيد ·· حتى كان من بين ما قاله عنه فى هذا المجال صاحب « معجم الأدباء » « حدث أبو هفان قال : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط

الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر.» (١٠) ··

لكن حتى هذه لم تكن تشفى غليله الى القراءة والمعرفة ، وأكاد أقول ، لم تكن هذه الدكاكين على اتساع وتعدد وتنوع ما حوت من تصنيفات ومترجمات ومخطوطات الا لتشبع بعض حاجته ، من ذلك ، ومن ثم فقد راح يبحث عن مناهل جديدة يضيفها اليها ، ليغترف منها ما شاء له الاغتراف ، حيث كانت هناك هذه الطائفة من العلماء ، ما ذكرنا منهم وما لم نذكر ، وكان هناك أيضا عرب البادية ، وأهل المربد والمساجد ومجالس القصور ·· وما الى ذلك كله··

لقد جعل ذلك منه، هذا الانسان المثقف «الأنهونجى» أو المثقف «القياسى» ان صح استخدام مثل هذا التعبير ·· بل لقد أصبحت هذه الرغبة فى المزيد من المعرفة « حاسة » و « ظاهرة » لازمته حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، بل كانت « الكتب » التى يحتفظ بها بالألوف ، فى بيته البصرى الذى شهد نهايته، هى سبب وفاته ، عندما سقطت عليه ، فهوى تحتها جسده العليل ، ولم يستطع النهوض وهو يحمل « تلالا » منها ، كتمت أنفاسه ، ولم تتركه الا بعد « تكفن » بورقها ومدادها ولعلها « الوفاة المناسبة » الوحيدة ، التى كان يرجوها لنفسه ، ويشاء الله الا يحرمه منها ··

★ باختصار نقول ، كانت المعرفة منهجه الحياتى ، وكان لا يشبع ولا يرتوى منها أبدا ، بل دائما يحس بحاجته الى المزيد ، ومن هنا فقد راح يطرق مجالات جديدة من الفكر لم يسبقه أحد اليها ، الا فيما ندر ، وليس بنفس الدرجة من الوضوح ، والعمق ، فى آن واحد ، أو نقول ، ليس الى هذه الدرجة من « التخصص العام » ومن الشمولية ، والبراعة معا ، لقد امتدت ثقافته الذاتية الجديدة الى موضوعات عديدة ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر ، هذه كلها التى تناولتها كتبه ، أو تناولها فى مجالسه ··

— المفاضلة بين الشعوب التى دخلت الاسلام من زوايا الفكر والأثر فى الحضارة الانسانية وبعض معالم « الشخصية » الخاصة ، وجوانب الابداع المختلفة ·
— كتبه فى « الأخلاق »
— تناولاته للمذاهب والعقائد المختلفة

— صوره القلمية
— الجديد الذى أضافه الى « الفكاهة » ، من حيث الموضوع والدلالة والخصائص الفنية معا

كانت هذه بعض ما أوحت به ودفعت اليه وقادت هذه الثقافة الموسوعية المتميزة من أفكار ، انبثقت عن تلك الأغراض والموضوعات « التقليدية » أو « الكلاسيكية » التى كان يحوضها أو يتناولها علماء عصره ، وكتابه ٠

واذن ٠٠ فقد كان حبه للثقافة « فضيلة ذاتية » أولا ، وحاسة خاصة، تحمد له أضيفت الى هذه المكونات الأخرى ، ودعمتها ، وأكدت على جوانب الافادة منها ٠٠ لتتشابك هى ، وتتعانق وتأتلف ، وتنتج فى النهاية هذه الملامح العديدة لشخصية أدبية .وصحفية معا ، يزدحمان فى جوف وصدر وفكـــر رجل واحد ٠٠

فاذا عدنا الى استعراض أبرز هذه المكونات الجاحظية ، فى ضوء مكونات الصحفى المبرز ، المرموق ، الموهوب ، المتصل ، الممارس ، المثقف ، وليس أى صحفى ، لوجدنا أن مكونات الرجل ، وروافد فكره ، وتعدد منابع معرفته، واهتمامه باضافة الجديد « الحادث » ٠٠ وولعه بابتكار الموضوعات والأغراض الجديدة ، وحرصه على ذلك كله ، لتأكد لنا اننا أمام شخصية أدبية وصحفية معـــا ٠٠٠

وخذ عندك مثلا ، أو على سبيل المثال لا الحصر ، هذه النقاط الأخيرة فقط ، والتى وردت تحت عنوان « التثقيف الذاتى » ٠٠ لقد رأينا ان مؤثرات حياته ، وأن رغبته العارمة التى لا تنقطع من أجل مزيد من المعرفة ، قد أدت به الى :

— انتهاز الفرص التى تسنح من أجل مزيد من الكسب «الثقافى» هنا
— تكوين حاسة اجتماعية » تتعرف وتستمع وتناقش وتدعم صـــلات صاحبها بالناس وأفكار وعادات ومواقف متباينة
— تكوين ودعم وتدريب حاسة حافظة وذاكرة قوية
— تكوين « أنموذج » للباحث المثقف الذى يضرب فى أكثر من ميدان، وأكثر من حقـــل ٠٠

هل أقول أن هذه جميعها تعرفها أيضا « « مكونات الصحفى » ، كما ينبغى أن يكون ؟ أم « أنتظر » حتى نتعرف على جوانب جديدة من شخصيته ، حتى تكتمل الصورة نفسها ، صورة « الجاحظ صحفيا » ؟ أو ـ على الأقل ـ الجانب الصحفى عند الرجل ؟

اننى ، وقبل الانتهاء من هذا المبحث ، أتوقف عند نقطتين اخيرتين ، تتصلان بهذا الموضوع نفسه ؛ موضوع « المكونات الجاحظية »

● **أما أولاهما** : فهى عودة سريعة ، نلقى فيها نظرة الطائر على مناهج ومقررات و « مساقات » أقسام ومدارس وكليات ومعاهد الصحافة ، ترى هل اختلفت كثيرا ، تلك التى اعتمدها المعاصرون كمكونات وروافد للصحفى ، عن تلك التى استقى منها واغترف الجاحظ ما كان معينا لا ينضب لهذا التراث الجاحظى بكل ثرائه ؟ ٠٠ حتى هذا الجانب الأخير ، جانب الثقافة العامة ، انها فى معظم الأحوال ، بدءا باختيار طلاب هذه الأقسام والمدارس والكليات والمعاهد ، ومرورا بجوانب تدريبه وسنوات عمله الأولى، وحتى آخر ما يكتب ، تكون هى مرجحة للصحفى على غيره أو لغيره عليه ٠٠ خاصة عندما يتساويان فى بعض الظروف والمكونات الأخرى أو يتقاربان ، أو يتشابهان ٠

● **وأما ثانيتهما** : فهى أننا ـ كعادتنا ـ ننهى هذا الفصل ، ببعض الكلمات ، لهؤلاء الذين اقتربوا من الجاحظ مثلنا ، أو أكثر مما اقتربنا ، بقليل أو كثير ، وجلهم من رجال اللغة والأدب ، حتى يستقيم معهم المثل القائل : « شهد شاهد من أهلها » أما الشاهد هنا فهو الأديب الناقد المؤرخ « شوقى ضيف » وأما شهادته فهى تلك التى يقول فيها : « ٠٠ وهذا العكوف على القراءة هو الذى جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف فليس هناك جدول من جداول الثقافة فى عصره الا وتسربت منه فروع ومنعطفات الى كتاباته وتأليفاته وان كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخولك فى كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التى عاصرته من هندية وفارسية ويونانية وعربية وهو يجمع ذلك فى شكل مشعث » (١١) ٠

لكن هذه لم تكن وحدها دليلنا الى هذا الجانب الصحفى ، من شخصية

الرجل ·· فما تزال هناك تلك الأبعاد الأخرى ؛ المماثلة ، او التى تقترب من «أدبه الصحفى» الى حد كبير ، نطوف خلال السطور القادمة ببعضها ، دون أن ننصرف تماما عن هذه السطور السابقة لأنها جميعها ترتبط بالموضوع نفسه ··

بل ان تعبير « **المعرض** » الذى استخدمه صاحب الكلمات السابقة ، هو تعبير يطلق على الصحافة عامة من صحف ومجلات ، ويضاف اليه عن الأخيرة ـ والجاحظ اليها أقرب ـ تعبير « **الاستعراض** » (١٢) الذى يعد من اشهر التعبيرات التى تطلق على المجلة ··

·· لكن هناك أكثر من زاوية أخـــــرى ترتبط بالموضـــــوع نفسه ··

ترى ما هى؟

●● هوامش هذا الفصــل :

(١) الجاحظ : «البخلاء» ، من مقدمة المحقق : د. طه الحاجرى .

(٢) جميل جبر : « الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره » ص ٤ .

(٣) "School of Journalism"

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن العودة الى عدة مؤلفات من بينها : اليونسكو : التأهيل الصحفى ـ اليونسكو العربية : بحوث الاعلام ـ عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة فى مصر ـ محمود أدهم : الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام وغيرها .

(٥) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ١ ، ص ٢٢٤

(٦) حنا الفاخورى : « الجاحظ » ص ٢٤

(٧) زكى مبارك : « أدب القرن الرابع » ص ٩٦

(٨) جميل جبر : « الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره » من المقدمة

(٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النـــــزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٧

(١٠) ياقوت الحموى : « معجم الأدباء » جـ ١٦ ص ٧٤

(١١) شوقى ضيف : « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ١٥٥

(١٢) Review وللاستزادة رجاء العودة الى كتابنا السابق : « التعريف بالمجلة » ص ١٨ وما بعدها

الفصـــل الثالث

شــواهد صحفية

ـ قلنا أنه لم تكن هذه المقدمات والخصائص السابقة فقط ، هى التى أنتجت هذا « المزيج » الجاحظى ، أو هذا الفيض من تراث الرجل والمكون من جانبين، جانب للادب ، وجانب للصحافة ، وركزنا على بعضها الخاص بالأخيرة على وجه تحديد ، أقول ركزنا على بعضها ، أو على عدد منها ··

وخلال السطور القادمة ، نضيف ـ كما وعدنا ـ جديدا الى هـــذا الموضوع ، ونتناوله من أكثر من زاوية مغايرة ، ودليلنا الى ذلك كله عدة صور ومشاهد من حياة الرجل الحافلة ، ومن نشاطه الوافر ، ومن صلاته بمجتمعه وأبطال أحداثه وصناع حضارته وثقافته وقيمه ، وحتى هؤلاء الذين تسببوا فى وجود بعض الرقع فى ثوبه ـ ثوب المجتمع العباسى نفسه ـ الأبيض الناصع البياض ··

غير أننى هنا ، وقبل المضى مع هذه الأفكار كلها ، وقبل الاسترســال فى تعداد صور « الأدب الصحفى » ، وليست الصحافة الأدبية عند « صاحبنا »، وكذا قبل التوقف عند هذه « **الشواهد الصحفية** » كلها ·· أقول أنها هنا تتم فى ضـــوء :

- ★ تناول جديد ، أو نمط جديد من التناول يخلط بين الجانبين ، الأدب والصحافة بما يتصل بهما من نقاط وعـــلامات ارتكاز وملامح جاحظية خاصة ·
- ★ يقدمها باختصار شديد ، لكنه غير مخل ، مع الاحتفاظ بحقنـــا فى العودة الى بعض مرتكزاتها ، بطريقة مسهبة ، على صفحات أخرى قادمة ، فحسبنا هنا ما نقدمه خلال هذه السطور ·

الرجل ومصـــادره

ولعل هذا « **العنوان الفرعى** » يذكر بتلك المادة الأصلية ، التى لا بـد لطلاب الاعلام عامة ، والصحافة خاصة من دراستها فى بداية دراستهم لهذه المناهج حتى تقوم عليها ، وتنبثق منها مواد أخرى عديدة ، انها ما يطلق عليه، مادة أو مساق : « **الخبر ومصادره** » ·· وحيث الصلة شديدة بين الموضوعين

هنا نتساءل : ما هي مصادر هذا الرجل ؟ ، وهل كانت جميعها مما يندرج — بشكل أو بآخر — تحت تعبير أو نوع أو بند « المصادر المخطوطة » على عادة الكثرة من أهل زمانه من الباحثين وواضح انها هنا « المصادر المنسوخة » ، لأن الطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، وانما كانت الرسالة تنسخ أو تخط بأعداد كبيرة فى دكاكين الوراقين والناسخين وبدور العلم والمكتبات وبعض الدواوين •

وفى تعبير آخر ، هل كان « الجاحظ » يتجه فى جمعه لمادة كتبه ورسائله وتصنيفاته المختلفة الى جانب أرفف دكاكين الوراقين ، وأضابير الدواوين ، وخزائن المكتبات يجمع من بين صفحاتها شتات مادته ، ويلملم المبعثر منها هنا وهناك ، ينقل معلومة من مخطوطة هنا ، وسطورا من مخطوطة هناك ، ورأيا من رسالة فى مكان مهمل وشذرات من مترجمة من المترجمات ، وحاشية من كتاب فارسى ، وأخرى من اضبارة هندية ·· هل كان يفعل ذلك كله ، ثم يوحد بين هذا الشتات المبعثر ، ويقرب بينه وبين غيره ويقوم بدراسته وتحليله واستخلاص النتائج منه ، ثم تقديمها فى صورة جديدة تماما ، هى من تأليفه هذه المرة ، يحمل بصمات فكره ، وطابعه الخاص شكلا ومضمونا ، لغة وأسلوبا ؟· هل كان هذا هو ما يفعله الجاحظ فقط ، أم انه كان يلجأ الى غير هذه من الطرق ، حتى وان اتبعها غيره ، أو كثرة من أهل زمانه ، وأهل زماننا أيضا ؟

ان الواقع يقول ، أن هذه كانت طريقته احيانا ، ولكنها لم تكن طريقته الوحيدة ، أو طريقته الأساسية ، وانما كان اعتماده على طرق أخرى كثيرة، أو على مصادر أخرى ليست مخطوطة فقط ، أو منسوخة فقط ، وانما مسموعة ، وبشرية أيضا ، قبل أن نتحدث عنها تفصيلا ، نقوم بالقاء سؤال آخر ، ذلك السؤال هو : هل كان ما كتبه الجاحظ كله تأليفا من بنات أفكاره، حتى وان كانت تسبقها خطوات البحث العادية فى بطون الكتب ، أم كان بعضه « جمعا » أو « تجميعا » من مصادر أخرى ، خاصة المصادر البشرية ؟

اننا — كمدخل نتائجى فقط — نقول ان « صاحبنا » كما كان مؤلفا « ماهرا » فقد كان على نفس الدرجة من المهارة « جامعا » و « متلقيا » و « مستمعا » وكذا « مسجلا » امينا ودقيقا وموهوبا ··

ومرة أخرى نعود الى مقرر الخبر ومصادره » أو الى « مصادر

الصحفى » بشكل عام ·· لنجد أن من المهم المميز منها «المصادر البشرية» ·· وهنا نقول ·· أننا لا نقصد بهذه المصادر عند الرجل ، أساتذته الذين كـان يستمع اليهم ، أو هذه الطائفة من «المسجديين» الذين شغف بهم واعتبر فى وقت من الأوقات واحدا منهم ، أو هؤلاء الذين كانوا يتحدثون فى المجالس والدور والقصور بحضوره ، وحيث كانت ذاكرته الدقيقة الحافظة تعمل عملها وتسجل « جوهر » ما يدور ، وخلاصة ما يجرى ·· وهى نفس طريقة غيره مع اختلاف بينه وبينهم ، ومع تفوق له عليهم بفضل هذه المواهب كلها ، التى لم تتح الا للقليل النادر من أهل زمانه ، وأقول ، وأهل زماننا ايضا ··

لا نقصد بهذه المصادر البشرية هؤلاء ، وانما نقصـــدهم فى صورتهم الصحفية عامة وفى ملامحها الاخبارية خاصة ··

أو ·· فى أسلوب آخر ، نقصد هؤلاء ممن كانوا يملكون تقديم ما يريده الجاحظ منهم ·· هؤلاء الذين كان يبحث عنهم ، كبحث المندوب الصحفى او المراسل ، فاذا عرفهم ، وحدد مواقعهم قام بالانتقال اليها وسعى من ورائهـم حتى يتم اللقاء ، أو يتم أكثر من لقاء واحد بينه وبينهم ، يحصل خلاله منهـم على ما يريد من مادة ، من أفواه أصحابها أو ابطالها أو شهود العيان عليها ، أو المتصلين بها عن قرب ، اتصال عمل ، أو قرابة أو نسب أو معرفة ··· وغيرها ، فاذا وجد ضالته عندهم ، لم يكتف بها بل سعى وراء المزيد والجديد والدقيق والمحقق منها ، عند غيرهم فى أماكن ومواقع أخرى ، وربما عنـد فئة ثانية وثالثة وهكذا ··

وفى سبيل ذلك ، انتقل الرجل الى المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ، وقطع البادية وخاض بقدميه فى بحر الرمال ، وأقام بين القبائل ، واقتحـم بعض الأحياء الخلفية واجتمع بهؤلاء يأخذ عنهم ، ويرصد ويجمع ويسجل ، وكان له من وراء ذلك كله زادا كبيرا ، ومحصولا وافرا ، توزع على فصـول ومباحث هذا التراث الجاحظى ·

لكن هذا الانتقال من جانبه الى مواقع من يريد الأخذ والاسـتماع والنقل عنهم ، لم يكن سوى هذا الوجه الأول لذلك النشاط ، اما الوجه الآخر له ، أو الصورة الأخرى ، فكانت تتمثل فى حضور هؤلاء اليه ، واجتماعهم أو لقائهم به ، ووصولهم حتى مكان وجوده ، وعرض بضاعتهم عليه ··· ووضعها بين يديه ، أو بين يدى فكره وتناوله ورؤيته الخاصة ··

واذا كان الأسلوب الأول ، هو الشائع صحفيا ، فان الأسلوب الثانى يعتبر موجودا أيضا وله صوره وشواهده العديدة ، فكم من مصادر بشرية عديدة تأتى ، لأسباب عديدة أيضا ، حتى دار الصحيفة — مهما بعدت بين هؤلاء وبينها الشقة ، وحتى صالة التحرير ، وحجرة المحرر أحيانا ، بل ويكون معها خطاب رقيق وأحيانا « هدية » لمن يقبل ، وأنوه هنا بما يفعله مديرو العلاقات العامة فى المصالح والشركات ، ومصــــــدرو النشرة الصحفية ، و «أصحاب المصلحة الخاصة فى نشر أخبارهم» (١) ·· وغيرهم، وغيرهم، خاصة هذه الطائفة الأخيرة ، التى تتصل بالمحرر أو بالصحيفة بطريقة ما لتقدم لهم أخبارها وتحرص على ذلك تماما (٢) ·

أريد أن أقول ، أن الجاحظ ، كما كان يبحث ويختزن فى فكره ، ويجمع الشتات ويؤلف بينه فقد كان كذلك يقوم بجمع مادته بطريقة يعرفها تماما مخبرو اليوم ومحرروه وكتابه لا سيما « المندوبون » و «المراسلون المتجولون» ومحررو الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، وان كان الى هــــذه الطائفة الأخيرة أقرب ، ولو كان عصره يعرف ، كما نعرف نحن اليوم استخدام « المسجلات » بانواعها وأشرطتها المختلفة ، أو كان يعرف « الفيـــديو » أو حتى « الكاميرا » لزاد مقدار ما جمعه أضعافا مضاعفة ولحققنا منه خيرا كثيرا جدا ، مما يتصل بالعلوم والمعارف السائدة عامة ، وجـــوانب الأدب والصحافة خاصة ·· لكن — وللاسف الشديد — لم تكن هذه المستحدثات قد عرفت بعد، تماما كما لم تكن «الطباعة» قد عرفت أيضا، والا لتضاعفت مؤلفاته ورأينا العجب العجاب مما قام بتاليفه أو جمعه ، ولما ضاع جزء كبير من هذين ·· بل اننا نقول فى النهاية ، أن ما فعله « الجاحظ » من تاليف وجمع معـــا ، ليس بدعة صحفية فى هذه الأيام ، فعدد كبير من المحررين ، خاصة ممن وصل الى مرتبة «الكاتب الصحفى» يؤلف أيضا، وبعضهم يتبع طرق البحث المعروفة، لكنه فى نفس الوقت لا يترك فرصة تمر دون حصول على الأخبار الهامة ، والهامة جدا ، كما أن بعض جوانب مادته المقالية ، وقبلها مادة التحقيقـــات الكبرى أو الأنموذجية التى يكتبها تتطلب مثل هذا الجانب « الجمعى » جانب السعى وراء الجديد من الأخبار والمعلومات والآراء والمواقف والتحليلات ، فتلك هى « مادة مادته » ان صح التعبير ، وبها تثرى ، وتجتذب افضـــــل العقول القارئة ··

أى أنه حتى فى الحالتين ، التاليف والجمع معا ، يبقى الجانب الصحفى

الجاحظى واضحا للعيان يقدم دليلا جديدا على « حضوره » الأدبى والصحفى معـا ٠٠

ثم ماذا ؟

غير أننى وأنا ألفت النظر الى هذه « المصادر البشرية » التى استقى منها « **الجاحظ** » مادة أدبه وصحافته أتوقف قليلا لأقول :

(أ) أنها كانت **متعددة** المستويات والفكر والشخصيات والمواقع والمهام أو المناصب ، كان من بينها الوزير والعالم والراوية للشعر لشاعر واحـد أو لأكثر من شاعر ، وكان من بينها أصحاب القصص والأخبار ورواة الأنساب، تماما كما كان من بينها فى بعض الأحيان طائفة من النوعيات الغريبة تجمع بين رجال الطرب وأهل الفن وهواة الغرائب ، وحتى اللصوص والسفلة ٠

(ب) انها لم تكن هى والمصادر المخطوطة مؤلفة أو مترجمة تمثـل مصادره الوحيدة الى ما جمع وألف ولكن كانت هناك بعض المصادر الأخرى، لا سيما **تجربته الخاصة** ، وما أجدرها بأن تكون فى مقدمة هذه المصــادر نفســـها ٠٠

وكالعادة ، يتبقى أن نقدم أمثلة مما ذكره « أهل الدار » ، من رجــال الأدب واللغة ، مما يتصل بهذا الموضوع نفسه ، ومما يؤيد دعوانا ، وأكــرر على طريقة « **شهد شاهد من أهلها** » ٠

★ ان دراسة قيمة ، بل هى عندى من أفضل الدراسات التى تناولت الرجل ، يقول فيها صاحبها مما يتصل بهذه الزاوية : « وأقام أركان بحثه واستقرائه على **المشاهدة والتجربة والاختبار** ، ورحل فى سبيل تحقيقه العلمى والطبيعى الى كثير من الأقاليم والأقطـــــار » (٣) ٠٠ أليس بالامـــكان ، أن نضيف هنا ، الى جانب « تحقيقه العلمى والطبيعى « تحقيقه الصحفى » أيضا ٠٠ ولا سيما وهذه المادة بالذات ـ كما أشرنا وكما سنرى بعد ذلك باذن الله ، كانت هى الأقرب الى الوان كتابته ، حتى ليفصلهما أحيانا خيط رقيق ، ورقيق جــدا ؟

★ ويقول رائدان من رواد الأدب العربى بحثا وشرحا وتحقيقا ، فى تركيز منهما على طريقته التى اتبعها فى تأليفه لكتابه الأشهر : « **البخلاء** » ٠٠

(الجاحظ)

« لم يجهد الجاحظ في صور البخلاء في كتابه هذا ، لأنه لم يبعثهم من بطون التاريخ وقديم الاخبار وعتيق الأسفار ، بل جاء بهم من بيئته واستمدهم من خلصائه وخلطائه ذوى الظرف والدعابة، اما من البصريين واما من البغداديين واما من غير هؤلاء وأولئك ممن سمع عنهم أو رويت له أخبارهم فى البخل ومذاهبهم فى الجمع والمنع » (٤) ··

ثم ماذا أيضـــا ؟

معايشــة ·· وحضـــور

عند حديثنا عن الجاحظ « **نتاج عصره** » ، خـــلال صفحات سابقة ـ الفصل الثانى : معالم جاحظية ·· توقفنا عند حد معين من تقديم الدلالات والشواهد التى توضح كيف أن الجاحظ هو نتاج شرعى أصيل ، للعصر الذى عاشه ، والذى أطلق عليه بعضهم ، على الرغم من كل ما زخر به وازدحم من صور ، تعبير « **عصر الجاحظ** » ، توقفنا حتى لا تختلط الحدود وتتشابك بين فقرة وأخرى ، وثالثة أيضا ، ومن هنا ، واذا كانت الفقرة السابقة تصـــور مؤثرات عصر الرجل عليه ، فان فقرتنا الحالية تتجه الى بيان صور مشاهد **تفاعل الرجل مع بيئته** ، ومعايشته لكل هذا « الزخم » العصرى ، بمن فيــه وما فيه ·· تماما كما سنتناول فى فقرة ثالثة ــ باذن الله ــ كيف قام الرجــل **بتصوير هذا العصر نفسه** وكان خير شاهد عليه ·· هل اقول ان جميعها تعتبر من بين الشواهد المؤكدة لجانب صحافة الرجل ؟ · أم أنتظر حتى نفرغ من سطورها وكلماتها ؟ · ان الأمر يستوى ــ فى رأينا ــ بعد أن اتضحت بعض ملامح صورة « الجاحظ صحفيا » ولكن مهلا ·· فما يزال هناك الكثير !

ان صحفى العصر الحقيقى ، ابن مهنته ، العارف بها وبمتطلباتها فى أى مكان كان موقعه من خريطة العمل الصحفى ، مندوبا كان أو كان مراســلا، أو مخبرا أو محررا أو رئيسا لقسم من الأقسام النوعية من مثل : « الخارجى ــ الشئون العربية ــ التحقيقات ــ الفنى » وحتى ان كان من قسم للاخراج أو ما يعرف عربيا بـ « سكرتيرية التحرير » ·· وغيرهم وغيرهم ــ وقياداتهم قبلهم ــ لابد لأمثال هؤلاء من الالمام بأشياء كثيرة ، ومعرفة أشياء أكثر ، ومثلها وعلى نفس الدرجة من الأهمية ، الانصهار فى بوتقة العمل ، والذوبان فيه الى أقصى درجة ، بل والى درجة « الوجد » و « العشق » أيضا ، فتكون الصحافة « محبوبته » التى تملك عليه لبه وحسه ومن هنا فهو يعيش صحفيا

طوال يومه ·· حتى وهو نائم تقتحم عليه أحلامه وتتداخل معها ، فيقفز من فراشه أحيانا لطلب مكالمة مهمة أو تسجيل فكرة جديدة بسرعة قبل أن ينساها، أو يحاول تذكرها فى الصباح ، فيجد أنها قد تبخرت منذ طلعت عليها شمس يوم جديد يكون حافلا بالعمل ككل أيام الصحفى ، أو هكذا ينبغى أن يكــون حاله ·· نحن نقول هنا - معشر الصحفيين - ما عبرت عنه - علميا - فى سطور سابقة بقولى ان الصحفى، أى صحفى ينجح لأنه يكون من بين ما يحرص على أن يحققه لنفسه وفى نفسه ، والى جانب أشياء وخصائص أخرى عديدة، هذين الجانبين :

أولا - المعايشة الكاملة لما حــوله ·

ثانيا - الحضور الذهنى الصحفى ، لما يسمع أو يشاهد او يجرب أو يحس ··

·· ما الذى يعنيانه هنا بالنسبة لموضوعنا ؟ ·· وما الذى يربط بين هذين ، وهما من شروط النجاح على المستوى الصحفى العام والخاص والفنى، وبكل أشكال العمل ، وبين « الأدب الصحفى » عند صــــــاحبنا ، أو جانب الصحافة فى شخصه ··

ولعله يكون من المناسب هنا ، أن يكون مدخلنا الطبيعى الى الموضـــوع، يتمثل فى قراءة سريعة ، لسطور من بعض مؤلفاتنا تتناول هذين الجانبين ··

● - أما عن الجانب الأول - المعايشة - فاننا نقرأ قولنا عن هذه النقطة أنها : « المعايشة - الصحفية هنا - الكاملة لكل هذه المصادر المتنوعة - المعايشة الكاملة للناس والمشاهد والصور التى يمر بها من زاوية امكانية أن يوجد بينها ذلك المشهد أو تلك الصورة ، او ذلك التعليق الشفهى ، أو تلك الهمسة الخافتة التى يمكن أن تتحول الى فكرة موضوع أو حديث أو تحقيق أو مقــــال (٥) »

● وأما عن الجانب الثانى - **الحضـــور الذهنى الصحفى** - فاننا نضيف قراءة قولنا :

انه يكـــون مثـــل حضور ممثـــل المسرح وهو يقدم دوره عـلى خشبته ، ويعيشه تماما ، انه أيضا ، الحضور الصحفى لكل ما يسمع أو يرى أو يقال ، فلا تكفى المعايشة الصحفية وحدها ، وانما لابد من جانب « الاثارة » نحو ذلك الموضوع أو الفكرة أو المشهد الذى لابد من التوقف عنده ، والكتابة عنه بما يعكس هذه المعايشة نفسها ومن هنا فالحضور هو أبرز الخطـوات الصغيرة أو الفرعية التى تتم من خلال هذه المعايشة وتتفاعل معها ٠٠ وحيث يصدق قول القائل : « المادة الصحفية عامة ، والتحقيقات والمقالات خاصـة ، هى بنات شرعيات للافكار التى لن تأتى بغير حضور صحفى كامل » (٦) ٠

٠٠٠ واذا كان ذلك كله ، على الرغم من اختصار ما قرأناه ، يقترب بنا من حقيقة ما نتناول ويؤكده أيضا ، فانه يعنى عندنا أن نعود فنتساءل فى مدخل آخر « مفتاحى » وأكثر اقترابا من الموضوع نفسه ، مع تركيز هنا ــ بشكل وقتى فقط ــ على الجانب الأول ، والى حين ٠٠ نقول ، نعـــود فنتساءل : **هل كان الجاحظ « معايشا كاملا » لما حوله من أحداث وصور ومشاهد وزوايا ازدحم بها مجتمع « آل عباس »و شهدتها حواضر « العباسيين » وبواديهم ،** وزخرت بها مساجدهم ومكتبـــاتهم ، وضجت بها ، أو تلألأت ، دورهـم وقصورهم ؟ ٠٠

هل عايش الرجل ذلك كله وباحساس مسئول ، وانخرط فيه ، وذاب معه، وشفه الوجد بصوره ، وأخذه العشق بملامحه ، أم انه وقف بمنأى عنه ، وعن أحداثه ، وبمعزل عما تتابع من ألوان نشاطه ؟

وفى تعبير آخـــر ، قد يكون هو الأكثـــر دقة ، ونحن نتحـــدث عن واحد من أبرز رواد البيان العربى نقول : هل تم التفاعل بين الرجل وبيئتـه وعصره ، شأن كل مفكر عظيم وأديب خالد ، وصحفى قدير ؟

من خلال هذه الزاوية الصحفية نقول ، ونقدم صورا ومشاهد معضدة ومؤيدة : وبطبيعة الحال ، فانه لا يمكننا ــ فى هذه العجالة ــ الاحاطة بكل ما كان ينبغى عليه ــ كرجل أدب وصحافة معا ــ أن يتفاعل معه ، أو يشـارك فيه ، أو يقتحم أتونه ، مما كان يمور به هذا العصر ، ويصطخب فى عبابه ، فحسبنا هذه الصور المختلفة كلها :

(أ) في المجال الديني العقائدي :

واذا كنا قد أشرنا من قبل في سطر واحد الى أن الرجل قد رأس احدى طوائف او فرق « المعتزله » وتحدث بلسانهم ، فاننا نفسر هذا الكلام كله ، ونضيف اليه مزيدا يلفت النظر الى هذه المشـــاركة الفعالة ، أو المعايشة الايجابية ، لما كان ينتشر في عصره من نزعات ومذاهب ، نقول عنها وعنه :

اذا كان من المعروف تاريخيا ، أن مسألة « الخلافة » هى الموضوع الأول الكبير الذى دب بشأنه الخـــلاف بين أمة المسـلـمين ، وتكونت حولها فرق الخوارج والشيعة ثم المرجئة والمعتزله الذين ينتسبون الى «واصل بن عطاء» الذى اعتزل مجلس استاذه « الحسن البصرى» على أثر مخـــالفته له مع « عمر بن عبيد » واستقلالهما بنفسيهما فى مسألة الكبيرة ، الى جـــانب تفسيرات أخرى عديدة لهذه التسمية (٧) ..

المهم ان من أبرز تعاليمها الاعتداد بالعقل وحرية الفكر .. ولم يكتف الجاحظ بأن كان من أتباع شعبتها الأساسية ومقرها البصرة ، بل انخـرط الرجل فـى هذه الفرقة ، وحارب مع قادتها بالوعى والفكر والدعوة الى العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين بالنسبة كمرتكب الكبيرة وكان له فى ذلك مواقف وكتابات عديدة ، خاصة فى مجال الدعوة الى أعمال الفكر واستخدام العقل والحرية المسئولة وعدم تقييد العقل والفكر ، كل ذلك مع ايمان كامل بالله ، وقدرته وعظيم صنعه فى خلقه .. بل لقد نشأت عن مواقفه مدرسة معتزلية جاحظية كاملة ، شأن قادة الفكر المؤثرين .. وعن ذلك يقـــول أحد الدارسين .. « ... وهكذا تقوت على يدهم — يقصد أساتذته كالأخفش والنظام وغيرهما — نزعته العقلية الى أن اكتملت شخصيته الفكرية فكون مدرسة مستقلة عن بقية المعتزلة سميت بالجاحظية » (٨) .

(ب) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى :

.. واذا كان الجاحظ — شأن كل قائد فكرى وأديب ملتـــزم وصحفى متفاعل — لم يرض الا بالدور القيادى فى صفوف المعتزلة ، وطور من أفكارهم وآرائهم ، فانه كذلك فى مجالات الفكر والعلم والثقافة الأخرى ..

ان نظرة على مشاركته الجادة ، في المجالس والدور والقصور والمنتديات الفكرية فى عهده لتؤكد ذلك كله ، وان جولة مع العديد من مؤلفاته ، فى هذه المجالات المتعددة ، لتضيف الى ذلك مزيدا من التأكيد . واذا كنا – فى سطور أخرى – سوف نشير الى هذه المؤلفات والتصنيفات المتعددة ، فاننا هنـــا نقـــول :

— فهو لم يترك مجالا معروفا ، الا درسه وألف فيه

— وهو قد سبق الى موضوعات وأفكار جديدة ، لم يتوصل اليها أحد من قبله ، وبذلك بلغ قمة تفاعله مع حضارته ، وتأثيره بالايجـــاب فى صورها ومشاهدها ·

— وهو قد قدم لمجتمعه ولتاريخ الأدب والعلم زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا فى ألوان شتى من المعرفة ·· « رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفـة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزى المتوفى ٦٥٤ هـ » (٩) ·· ألا يعنى ذلك أنه من واضعى أسس الموسوعية وصلتها وثيقة – كما قلنا – بصحافة المجلة ، وتاريخها ·

(جـ) فى المجال اللغوى والأدبى :

أما فى هذا المجال ، أو فى هذين المجالين ، فمن المؤكد أيضا أن كتاباته ، وان دراساته ، وأن كلامه ، وان لغته ، وأن أسلوبه ، جميعها ، قد امتـدت الى آخـر ما وصلت اليه هذه كلها فى عصره ، وتفاعلت معها ، وهضمتها ، وخبرتها ثم ، راحت بعد ذلك ، وبفعل هذا الحس اللغوى والأدبى والمجتمعى النادر المثال وكأثر للثقافات المتنوعة ، والمترجمات العديدة التى راح يغترف منها ، وينتهز فرصتها ويرد ينابيعها المتدفقة من حضارات أخرى عديدة ، راحت « العبقرية الجاحظية بعد ذلك كله تقدم لغة صحيحة متطورة ، وعصرية ، وأدبا جديدا فى فكره وموضوعاته ، لم يعهده النـــاس من قبل ، ولم يكن للمجالس أو المنتديات أو أهل الدور والقصور معرفة به ، بعد أن أعمل فكره ، وسلط بصيرته النافذة ، وأطلق عينه الفاحصة المدققة ، على مجتمعه ، ومن ثم راح يقدم لنا هذا الأدب الواقعى ، الذى نقول هنا ، ان المسافة كانت قريبة جدا ، بينه وبين الأعمال الصحفية بل لقد اختلطت المسافات والمساحات وذابت

الحدود والألوان وأصبحنا — باستثناء طابع العصر نفسه — فى حاجة الى عين خبير ، لتفصل بين ما هو أدب ، وما هو صحافة ولذلك ، قلنا ونقول ، أن هذا النتاج نفسه كان أدبا صحفيا رفيع المستوى . بل ان نصفه كان للأدب، ونصفه الآخر للصحافة ..

والأكثر من ذلك ، أن لغته قد طاوعته تماما ، وأن ثروته من الألفاظ والمفردات قد أعانته على تقديم هذا اللون الجديد من الأدب الحى الواقعى الذى يعيش بين الناس ، ويتحدث عنهم ، وبهم ، ومن هنا فقد قيل عن ذلك كله ، وعن حق وجدارة أيضاً :

● فعن أدبه يقول أحد الدارسين الذين أشرنا اليهم من قبل : « .. ومن هذه المظاهر أنه أدب واقعى لا أدب خيـــالى ، وهـــذه الواقعية تظهــر فى نواحيه المختلفة ، ومنها أنه يعتمد على ابراز الصورة كما يراها الرائى وكما يرسمها المصور لا على الصور الخيالية » (١٠) .

● وأما عن لغته وأسلوبه الذى عرف به ، فاننا نكتفى هنا بهذا القول الذى يتناولهما ، مما يقربنا من الأسلوب الصحفى ، وهو موضوع دراســـة خاصة خلال الفصل الأخير من هذا الكتاب .. يقول دارس آخر للغته أو « للنزعة الكلامية » عنده : « .. لم يكتف الجاحظ باختيار ألفاظ مطابقة للمعنى مطابقة مادية فحسب ، بل انه اختارها سهلة المخرج ، متلائمة الحروف ، موسيقية مناسبة صوتا للحركة المعنوية ، تتوافر فى مقاطعها صفة التجانس بين اللفظ والمعنى أما من حيث السهولة والسلاسة فاننا نعرف أن الكلمات الكثيرة الأحرف تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة » (١١) .

(د) فى المجال الاجتماعى :

عرف الجاحظ مجتمع العباسيين وخبره، ورأى صوره المختلفة، الايجابى منها والسلبى بل وانخرط فى بعضها ومارسه ، ولكنه — من زاوية صحفية — كان كغيره من المحررين ، من ذوى الاختصاص العام ، أو غير العام ، أضاف الى معـــرفته بهـــذا المجتمـــع ، بنـــاسه ورجـــاله وســـاسته وعلمـــائه ولغوييه وثواره ، وحتى أكثر جوانبه رمادية ، أو حتى أكثـــــر مواقع ثوبه الزاخرة بـــ « الرقع » .. أضاف اليها التفاعل الايجابى ، المتمثل ليس فقط

فى نقل صوره ومشاهده فى واقعية وصدق ، وليس فقط فى جانب رواية ماكان يجرى ، أو وصف ما كان يدور هنا أو هناك ، فى المساجد والمنتديات والدور والقصور والأسواق وأحيانا الزنج ومجتمعـــات الفـــارسيين والروميين ، والمكتبات وغيرها ، وغيرها ، وانما وباضافة النقد الاجتماعى اليها وكان هذا النقد يبلغ فى أحيان كثيرة ، مرتبة حادة ، أكثرت من حساده وخصومه ٠٠

بل اننا نستطيع أن نقول أن جوانب نقده ، قد غطت صور السلب فى مجتمع العباسيين كله ، بل وامتدت من المجال الاجتماعى ، أو المجتمعى ، الى غيره من المجالات لا سيما المجال السياسى نفسه ، شأن كل أديب وصحفى متابع ، متفاعل وملتزم ٠٠ واذا كنا هنا نكتب عن ذلك كله باختصار شديد ، لأن حياة الجاحظ وفكره وجوانب شخصيته تحتاج الى أكثر من مجلد ، فاننا نكتفى بهذه الكلمات ، نضيف اليها ـ كعادتنا ـ قولا لأحد من اقتربوا من الرجل ، أكثر مما اقتربنا ٠٠ وذلك عندما يقول :

« ٠٠ يكفى أنه نبه على فســاد أوضاع حاولت ثورة الزنج ٢٦ رمضان ٢٥٥ هـ ـ أغسطس ٨٦٩ م ـ أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمه ، وربما بدت المغالاة فى تلك المقالة الا ان من يقرأ كتاب البخلاء الذى وضعه الجاحظ فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مســتوى الكتب النادرة ، يلحظ أن صاحب الزنج أو قائد الثورة ، كان ينطلق فى الواقع من حيث انتهى صاحب البخلاء » ٠٠ (١٢)

فهل يعنى ذلك ، أن كتاباته ، كان لها أثرها فى قيام هذه الثورة شـأن جميع الكتاب المؤثرين ؟

بل لقد قمنا بعمل احصاء لهذه الفئات والصور والمشاهد والأشخاص الذين تناولهم نقده الاجتماعى ، وقلمه الذى اعتبر « ترمومترا » لقياس درجة حرارة هذا المجتمع بما فيه ومن فيه ، فبلغت أكثر من مائه فئة وصورة ومشهد . كان من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

« الذين يأكلون على جميع الموائد ـ المتلونون ـ المادبون ـ المنجمون ـ المتحذلقون ـ الدجالون ـ البخلاء ـ العصبيون ـ الجشعون ـ المستغلون ـ

الأطباء المزيفون ـ المسرفون فى تصوفهم وزهدهم ـ العـــامة الجاهلة ـ المتشدقون بما ليس فيهم ـ المغرورون ـ الذين يشوهون الحقائق ـ الـذين يفسرون الأشياء والظواهر على هواهم ـ الرواة ـ رواة الأخبار من البحريين ـ العامة الجاهلة ـ المترجمون ـ ··· الخ » ··

ونكتفى بهذا القدر ، حتى لا تختلط الأوراق ، ونقتحم مجال الحـــديث عن الجاحظ المؤرخ أو شاهد عصره ·· كما ستصوره السطور القادمة باذن الله ··

(هـ) فى مجال الامتاع الفكاهى :

لكننا فى هذا المجال السابق نفسه ـ مجال النقد الاجتماعى ـ لابد وأن نتوقف قليلا ، لنشير الى أن هذه الحاسة نفسها ـ الحاسة النقدية الأدبية الصحفية المجتمعية معا ـ قد امتدت به واطلعتنا على جانب آخر من جـوانب شخصيته المتفاعلة مع مجتمعها ، المؤثرة فيه ، المتأثرة به ، والراغبة فى تحويله من حالة الى حالة ، ومن صورة الى صورة ··

أما هذا الجانب ، فهو جانب الفكاهة عنده ، فانه لما رأى الثغرات تنتشر وجوانب السلب تزخر بهذا المجتمع، كانت الفكاهة بمعناها القريب من الأذهان، هى أحد أسلحته النقدية التى أحسب أنها حققت ـ مجتمعيا ـ ما كان يجب أن تحققه، كما قدمت لنا احدى مقدمات وطلائع «المقال الكاريكاتيرى» ·· وهو أدب صحفى من الدرجة الأولى ·· نكتفى هنا بالاشارة الى أن الرجل يعتبر فارسه بلا جدال ·· والى ذلك يشير أديب كبير قائلا : « ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعـــاصر الذى نســـميه الكاريكاتير هذا اللون من الكتابة الذى مارسه عندهم ـ الغرب ـ فى القرن السادس عشر رابين فى كتابه ـ الأحلام المضحكة ـ كما نجده عند ايراسم فى كتاب تمجيد الحماقة ··· » (١٣)

ونكتفى بهذا القدر من صور التلاحم وننتقل الى صورة أخرى ، أو جانب آخر هو :

شــاهد على العصر

ان المعايشة لما يدور حول الانسان من صـــــور ومشاهد ، مهما كانت درجتها أو درجة تأثيرها عليه فكرا وعملا وأداء ، ومهما بلغت شدتها ، لا تكفى وحدها لكى تصنع منه كاتبا ، أو مفكرا ، أو أديبا ، أو صحفيا ، خاصة ، هذا الأخير ، كما نعرفه وتعرفه المساحات الهامة المؤثرة ، والتى تستقطب أنظار القراء ، على صفحات جريدة أو مجلة ·· أقول ، ان هذه المعايشة وحدها لا تكفى لكى تصنع منه أمثال هؤلاء وانما ينبغى أن يتبعها هذه الصور ، كلها أو بعضها ، وبدرجات متفاوتة ما بين أديب وأديب ، ومحرر ومحرر ··

— رؤية خاصة لها – الأحداث والصور والمشاهد – الجليل منها والحقير ، العظيم والتافه ، الواضح والغامض ، البين والمستتر ، دون اهمال لجـانب منها ·

— حضور ذهنى يلمح ما يمكن أن يحظى به بعضها من جوانب أهمية حالية أو متوقعة ·

— استجابة لما يمكن أن يسفر عنه بعض هذه الأحداث والصور والمشاهد من دلالات ونتائج حالية أو مستمرة تستقطب اهتمامات القراء ·

— اختيار هذه كلها ، ورصدها وثبتها ·· تمهيدا لاعمال الفكر حولها ، والبحث عن عللها وأسبابها ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها من قضايا ذات أهمية أدبية أو علمية أو سياسية أو دينية أو تاريخية أو مجتمعية ·

— ثم التعبير عنها ، بعد استقراء واستنفاذ وتجربة ودعم مادتها ·

— فى شكل فنى أدبى أو صحفى معين ، أو هما معا

— وتقديمها للقراء بعد ذلك كله ، وبعد تحرير وحداتها الفنية المختلفة وصياغتها بالأسلوب المناسب لمادتها ، ولن ينتظر أن يقبل عليها من القراء قراء الصحف والمجلات كما نعـــرفها اليوم ، وقـــراء « الأوعية » الأدبية والصحفية خلال هذا العصر ·· عصر الجاحظ ·

ان المعايشة الكاملة ، ينبغى أن تترجم الى مثل ذلك ، والا كان الأديب أو الصحفى كغيرهما من العاديين من الناس ، أو اكتفيا بالجلوس فى مكان النظارة » أو « مقاعد المتفرجين » وهو ما لم يعهد الناس منهما ، ولا يرتضيه لهما أحد ، وانما يكون عليهما - جزاء ما منحهما الله من فكر وموهبة - أن يترجما ذلك التفاعل ، وأن يحولا ذلك الانصهار مع أحداث العصر ، الى مادة مقروءة ومسموعة ومشاهدة ، يكون فيها راحة للقلوب ، وملاذا للنفوس ، وثراء للعقول وتنمية للفكر ، وتوجيها وتثقيفا وتعليما ، وحثا على الخير ودعما للدين والوطن ومشاعر الانتماء اليه ، بل ويكون فيها امتاعا يجلو صدأ العقول ومؤانسة تضىء جنبات القلوب ، وترفيها يجدد النشاط ويغسل العقل مما علق به من أدران ويزيل كدر النفوس القلقة المعذبة المؤرقة ٠٠ تماما كما يكون فيها من زاوية الصحافة هذه المرة ، وبالاضافة الى ذلك كله ، اعلاما للقارىء بما يهمه ، واطلاعا له على ما يتصل بيومه وغده وتوضيحا وتفسيرا يساعدانه على تلمس الطريق واختيار الأصلح واتخاذ القرار ، كما تقدم له - ما يترجم اليه هذا التفاعل من مواد وانماط - حلا لمشكلاته التى تعذبه أو تؤرقه، وتوجيها مثمرا نحو الخير والعدل ، وتأييدا وتعضيدا لقيم مجتمعه ومثله ٠٠ وغيرها . وغيرها ٠٠

تلك هى ما ينبغى أن يسفر عنه هذا التفاعل ، أو هذه المعايشة ، فما بالك ونحن لا نتحدث عن أديب أو محرر عادى ، وانما نحن نتحدث عن « الجاحظ » ؟ ٠

وبلا تردد نقول أن الرجل الذى شهدناه خلال الفقرة السابقة ، يعايش أحداث عصره معايشة كاملة ، فى جوانبها المختلفة التى ازدحم بها هذا العصر نفسه دينية وعلمية وثقافية وأدبية واجتماعية ، وحتى ما اتصل بها من جوانب الفن والطرب أو اللعب واللهو ٠٠ وقدمنا لمعايشته لهذه كلها ٠٠ عدة صور مختارة ٠٠

نقول أن الرجل الذى فعل ذلك ، لم يكن من النوع الذى يقنع بالجلوس فى صفوف المتفرجين ، أو المستمعين فقط ، ما تقدم منها أو ما تأخر وانما وكما شهدناه غير مرتض بالوقوف كجزيرة معزولة ، وسط بحر من الأحداث المتلاطمة ، بل مشاركا فى تحديد مسارات بعضها ، وصنع البعض الآخر منها، وتوجيه دفة البعض الثالث ، والمعارضة القوية لبعضها الرابع ، والتأييد

بدرجاته وعن وعى كامل منه لبعضها الخامس ، وهكذا فاننا نقول أيضا أنه لم يتوقف عند هذا الحد من المشاركة « الشفهية » أو تلك التى تقوم لتهدأ بعد حين ، أو هذه التى تتم داخل المساجد ، أو فى الدواوين أو القصور أو الدور أو المجالس المختلفة مركزة على عشرات أو مئات الحاضرين حتى وان كانت تنتقل بعد ذلك منها الى غيرها من مجتمعات بغداد والبصرة وسامراء، والكوفة ، والنجف ، وكربلاء والأنبار والزبير ، وحتى خارج العراق أيضا ، لم يكتف الرجل بذلك كله ، لأنه بحسه الفنى والجماهيرى ، يعرف تماما أن صناعته هى الكتابة ، وأن الله قد يسرها له ، وبذر بذرتها فى صدره، لا لتظل حبيسة هذا الصدر ، أو تخرج فى مثل هذه المجتمعات وحدها ، وانما ـ وككل أديب وصحفى ـ لتصل بين الناس ، وتصل اليهم ٠

ومن هنا ، فقد راح الجاحظ يكتب فى ذلك كله ، وينقل صورة ذلك كله، حتى لم يترك كبيرة ولا صغيرة فى مجتمعه بكل هذا الذى ازدحم به واضطرب فى جنباته وثار على سطحه أو فى أعماقه ، أو قريبا من هذه الأعماق ، بما تردد فى أركان الدواوين ، وساحات المدن والأسواق ، وفوق رمال الصحراء، وتحت قباب المساجد وفى ظلال القصور الأسطورية ، وفى دهاليز الأحياء الشعبية ، جامعا بين ذلك كله ، وبين قراءاته فى بطون الكتب ، ومعاشرته للعلماء والأخذ عنهمحتى اجتمع للقراء منهما لم يجتمع من آخر٠٠ ومنثم فقد استحق ككل مفكر وأديب وصحفى مشارك بالايجاب لا السلب ، وبالفعالية لا الهامشية ، وبالقوة لا الضعف ، وبالنشاط لا الخمول ، وبالقول والفعل، والشد والجذب ، والهدوء والصخب ، هذه التعبيرات التى تطلق على أمثاله من هذا النفر ٠٠ خاصة من الكتاب الصحفيين ٠

فهو « شاهد على العصر » ، وكتاباته مرآة للسنوات التى عاشها ، بل ان هذه الكتابات الجاحظية نفسها ، والتى تمثل هذا التراث الضخم المتنوع، لتمثل أيضا اذا نحن رحنا نقسمها ونجزئها ، خير شاهد على صحافة عصره، بالأسلوب المخطوط نفسه والذى جمع كل هذه الألوان السائدة ، والتى كانت جديدة على الناس والقراء وقتها ، وأحسب أن بعضها ما يزال يحتفظ بجدته حتى اليوم ، الا بالنسبة لدارسى الأدب عامة ، أو متابعى الجاحظ خاصة ٠٠

وقبل أن نعود الى هذه النقاط بالتفصيل مرة أخرى ، فى فقرة خاصة توضح بعض معالم « الجانب الصحفى » عند رجلنا ، وقبل أن نقدم « شهادة

الأهل » التى تتصل بهذه الزاوية ، زاوية الجاحظ الأديب الصحفى شاهد عصره ومرآته، بكل هذه المعايشة والحضور، وببعض ما أسفر عنه من «أديب صحفى» نقوم بالقاء نظرة الطائر على كتابات هذا الرجل ، نقرأ فيها عصره ، ونشاهد — فى مرآتها الصادقة — صورة وملامح ذلك العصر · بل اننا فى هذا السبيل، وحتى يكون حديثنا مستمرا ، ولنصل من الكلام ما انقطع ، فاننا نختار عددا من المجالات السابقة نفسها التى عايشها الجاحظ ، ثم نقوم بالتقاط أجـزاء من رصده لها واختيار الصالح منها ، ومعالجته اياها وتصويره لدقائقها ، مما لا تقع عليه ولا تدركه بنفس هذه الدرجة غير عين اديب او صحفى ، أو أديب صحفى ، او صحفى اديب ، ثم تقدمها للقراء . تقديما مناسبا لها ولهم فى شكل ومضمون غلب عليه الطابع الأدبى مرة ، والصحفى مرة ·· وهكذا··

● **فعلى سبيل المثال لا الحصر ، من قوله عن هذه الطائفة التى انتشرت فى عهده والتى تسمى الزنادقة ، وما اتصل بكتبهم والتأليف عموما قوله** (نقد أدبى ومجتمعى وسياسى) ·· « لو كانت كتب الزنادقة كتب حـكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس ، وسنن تبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرف الناس أبواب الصـــناعات أو سبل الكسب والتجـــارات أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب — وان كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مأثم — لكانوا ممن يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التبين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طـريق تعظيم الملة ، والذى يدل على ما قلناه أنه ليس فى كتبهم مثل سائر ولا خبـر طريف ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحله ·· لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثا موفقا ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الاطاعة والتخرج بالديانة على جهـة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون الا دينا أو دنيا » ·

● **واذا كان قد أوضح بذلك رأيه فى الكتب والكتابة الهادفة ، واعلن عن واقعية تفكيره ، فاننا نقرأ له فى جانب آخر وهى هنا عدة صور من كتابه: « البخـــلاء » ·**

وكان رجل يغشى طعام الجوهرى ، وكان يتحرى وقته ولا يخطىء ، فاذا دخل ، والقوم يأكلون وحين وضع الخوان ، قال : « لعن الله القدرية من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله ؟ » فلما أكثر من ذلك ، قال له رياح : « تعال بالعشى أو بالغداة ، فان وجدت شيئا فالعن القدرية والعن آباءهم وأمهاتهم » (١٤) ٠

وجاء غلام الى خالد بن صفوان ٠٠ بطبق خوخ ، اما أن يكون هدية ، واما أن غلامه جاء به من البستان ٠ فلما وضعه بين يديه قال : « لولا أنى أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة » (١٥) ٠

● ونعود مرة أخرى الى رؤيته لبعض جوانب الطوائف التى شاعت فى مجتمعه ، فيصور بذلك هذه الزاوية من زوايا عصره ، وما حفل به من فرق ومذاهب وشيع وجماعات ٠٠ ليثبت بذلك كله ، ويصور عديدة أخرى ، هذه الشهادة الجاحظية على عصره ، أنظر قوله عن طائفة « المانوية » ٠٠ أصحاب مانى بن فاتك الذى أخذ مذهبه الدينى من المجوسية والنصرانية ٠٠ يقـــول الجـــاحظ :

« ان أناسا حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا الى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شيء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم ، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشيء ، قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وسخط وذم الدار وبانيها ٠٠ » (١٦) ويضيف قائلا ٠٠ « فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وانهم لما غبيت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صـــاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى اتقان خلقتــه ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منها على الشيء يجهل سببه والأرب فيه، فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والاحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة » ٠٠ الخ (١٧)

كانت هذه مجرد قطرات قليلة من ذلك الغيث الأدبى الصحفى ، الذى صور به مجتمعه بما فيه ومن فيه ، أو كانت عدة نقـــــاط من ذلك « المحيط الجاحظى » الذى انعكست على صفحته الهادئة حينا ، غير المستقرة فى حين آخر ، الثائرة فى أحيان كثيرة ، لكنها الصادقة الى أبعد حدود الصدق ، الأمينة الى أبعد حدود الأمانة وذلك فى حدود وسائل البحث العصرية المتاحة انعكست على هذه الصفحة ، أحداث ووقائع وظواهر وعلوم وفنون وجـــدل وفلسفة وأدب وأشخاص وعادات وتقاليد وجد ولهو ولعب وتفاهات وقيان ورقيق وفساد ولصوص عصره ، تلك التى عاشها وخاض غمارها ، ورآها بعينى أديب وصحفى معا ، وعبر عنها تعبير الرجلين معا ٠٠

لكننى وحديثى عن الجاحظ ، لا أترك هذا المجال أيضا ، دون أن أتوقف قليلا لاستشهد مرة أخرى ــ بأقوال من هم أقرب منى الى ساحته والى تراثه ، أو من سبقنى الى الوقوف على مشارفه ، أو خاضوا عبابه ، وخبروا أمواجه ٠٠ بالعلم ، والعلم وحده ٠

★ ان واحدا من هؤلاء يقول ، بعد أن يعدد جوانب تخصصه العام الذى أخذ فيه من كل بستان زهرة وعلى سبيل المثال لا الحصر : « ٠٠ وكما مثل الجاحظ حرية الفكر فى عصره ، مثل أيضا نتيجة تلك الحرية وهى مزدوجة : نتيجة حسنة هى ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هى الانحلال فى العقيدة والأخلاق فمثل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاقة العلوم واتساع الآفاق ٠٠ ــ ومثل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها فى فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار وخزعبـــلات المتسولين وسخافات الشبان المتخنثين وزندقة المتزندقين وما اشبه ذلك من ضروب الفساد » (١٨) ٠

★ وبعد أن يتحدث عن بعض معالم طريقته الفنية وأساليب تناوله للناس والأشياء والصور والمواقف فى عصره ، وهو ما سنعرج عليه بعـــد قليل باذن الله ، يقول أحد رواد الدراسات الأدبية العربية : « ٠٠٠ اننا نجده يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلا دقيقا بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه » (١٩) ٠

★ ويقول الأستاذ نفسه فى مكان آخر ٠٠ وفى معرض حديثه عن هذا

الموضوع : « أما بعد ذلك فانه كان مصورا عظيما ، اذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة ، كما يحسن القصص من جهة أخـرى ٠٠ » (٢٠) ٠

وهكذا يبدو الجاحظ الكاتب الواقعى ، القريب من الناس ، المعـايش لهم المصور لعصره ، بكل ما فيه ومن فيه من صور الايجاب والسلب ونكتفى بهذا القدر من النقاط التى تقف مؤيدة لشهادته على العصر ، ودقة وصـدق وحالية وواقعية تصويره له ٠٠ وهى ـ فى مجموعها ـ تمت بصلة نسب غير منقطع ووشائج قربى « أصيلة » الى المادة الصحفية ٠٠ كما سنضيف الى « مصداقية » ذلك ، جوانب جديدة ، تتناولها السطور القادمة باذن الله ٠٠ فالى نقطة أخرى هى :

٠٠٠ وأكثر من حاسة

واذا كنا قد تحدثنا فى سطور سابقة ـ هى السطور الأخيرة من الفصل الثانى ـ عن بعض المعالم الجاحظية ، التى تعتبر من جنس الصحافة ، قـدر اعتبارها من جنس الأدب ، أو تلك التى تقف بصاحبها على الجسر الموصل بينهما ، ومع اقتراب من جانبه الصحفى ، وكانت هى على وجه التحـديد حسه أو حاسته الاجتماعية وحسه أو حاسته الحافظة ، وحسه أو حاسـته الثقافية ، أو النهمة دائما ، الظمأى أبدا ، الى المزيد من الثقافة والمعرفة ٠٠

اذا كنا قد تحدثنا عن هذه الحواس ، أو الاحساسات عنده ، فاننا هنا نواصل ما بدأناه ، أو نصل من الحديث ما انقطع ، لنقول أنها لم تكن الحواس أو الاحساسات السابقة وحدها ، وانما تجمع له غيرها ، مما يضعه أيضا فى مرتبة أفضل المحررين وكبار الكاتبين ، خاصة فى مجالات الأخبار والموضوعات والتقارير والتحقيقات والمقالات بأنواعها خاصة مقالات التجربة الخاصة ، والنقدية والكايكاتورية ٠٠ أما هذه الحواس أو الاحساسات التى نضيفها هنا والتى تصلح لأن تضعه فى مصاف هذه الطائفة الموهوبة والموهوبة جدا ، من الصحفيين ، تماما كما هو بين الأدباء ، فانها :

١ ـ الحس الاخبـارى

٢ ـ الحس السـياسى
٣ ـ الحس الاتصـالى
٤ ـ الحس الجمـاهيرى
٥ ـ الحس الفكـاهى
٦ ـ الحس الأدبى
٧ ـ الحس الفنى

أما عن الحسين الأخيرين ، فلا أعتقد أننا نستطيع أن نضيف الى ما قاله عنه النقاد والمؤرخون ورجال اللغة العربية ، من معاصريه ومعاصرينا ، من عرب وأجانب ، من مؤيدين ومعارضين ، من مستشرقين وغير مستشرقين ، لا نستطيع أن نضيف الى ما قاله عنه هؤلاء جديدا مؤثرا ، ونكتفى هنا ـ مؤقتا ـ باشارة واحدة مختصرة الى قول المستشرق المعروف « شارل بلان » والذى جاء فيه ، ونحن معه فى ذلك الى حد كبير ، بعد أن رأينا « العجب العجاب » خلال هذه الرحلة مع كتابات رجلنا ••• « **ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ** » (٢١) ••

على أننا وان كنا سوف نعود الى تناول هذين الحسين فى سطور قادمة باذن الله ، تتناول « الأسلوب الجاحظى » وصلته الشديدة بالأسلوب الصحفى، فاننا ـ باختصار شديد جدا ـ نحاول أن نحيط ببعض معالم هذه الحـواس كلها ، التى تجعل ممن يفوز بها ، أو يتمتع بوجودها فى نفسه وصدره ، تجعل منه صحفيا « أنموذجيا » •• قل أن يوجد مثله فى زمانه ، وأقول وفى زماننا أيضا •• أنها :

١ ـ الحاسة الاخبارية :

ذلك أن المشاهد للمادة التى كان الجاحظ يقـوم بجمعها خاصة من « **المصادر البشرية** » وعن طريق « السماع » •• من الملاحظ ان هذه المـادة تعكس حسا اخباريا كانت هذه بعض ملامحه •• التى يعرفها جيدا « مخبرو الصحف » و « مراسلوها » هذه الأيام ••

• ـ الاهتمام بالجوانب التى ينتظر أن تعكس **اهتماما بين أبناء عصره**
• ـ القيام **برحلات وأسفار وزيارات** متتابعة للمـواقع والأماكن والأشخاص التى يعرف بحاسته وخبرته وتجربته ، أنها يمكن أن تقدم أخبارا

— القرب والاختلاط الشديد بـ « الاخباريين » فى زمنه ، حتى يأخذ عنهم بعض ما يتابعه ويقدم الجديد بشأنه ، ويضيف اليه ما يستطيع ، كما يتعرف على طرقهم فى الحصول على مادتهم الاخبارية ، ويختار منهـــا ويطورها

— الاهتمام بتنوع مادته الاخبارية ، وجعلها تضرب فى أكثر من مكان وموقع ، وتتحدث عن أكثر من غرض

— اعطاء عنصر « الشهرة » حقه ، ولذلك فقد كانت عنايته بالغة بأخبار مشاهير عصره من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة وقضاة أولا ٠

— وفى المقابل ، الاهتمام بأخبار « الحوادث » وأخبار « الناس » من تلك التى يعرف تماما أنها تستقطب أكثر من غيرها أنظار الجماهير ، وتكون حديثهم لعدة أيام أو شهور أو سنوات ، انطلاقا من جوانب تشويقها واثارتها ، وتلبيتها لغريزة « حب الاستطلاع » عند أبناء مجتمعه ، والمجتمعات الأخـرى عامة ٠٠ خاصة وقد كان مجتمع العباسيين فى صورته « السالبة » يقبل ذلك كله ، مع وجود هذه الصور به ٠

— الاهتمام بجانب صحة المصدر ، والتأكد من ذلك قدر الطاقة ، بوسائله الخاصة ، كما يفعل الصحفيون اليوم ، فما ثبت صحته منها اعتمده وأضافه ، وما لم يتأكد من صحته انتظر حتى تواتيه شواهد هذه الصحة ، وما لم تثبت صحته ألغاه وأبعده ، وقد يشير الى ذلك أيضا ٠

— الاهتمام بجانب ثبت مصادره ، والاشارة اليها فى مقدمة كلامه وأحيانا أكثر من مرة ٠٠

— الاهتمام بأن تستقطب أخباره جميع الطبقات الموجودة فى مجتمعه ، ومن هنا فانه لم يقصرها على قطاع واحد أو قطاعين أو ثلاثة ، وانما راحت تغطى جميع الأفراد والطبقات والأعمال والوظائف السائدة فى عصره ، نعم ، لقد تحدثت أخباره عن اللصوص والحواة بأنواعهم ، ولكنها تحدثت أيضا عن العلماء والشعراء وأصحاب الفرق والجماعات ، كما لم تهمل أصحاب الحرف ولا القيان ولا أرباب التجارة ومن هنا ، فقد راحت تغطى جميع المواقع الهامة ، التى يمكن أن يوجد فيها صناع هذه الأخبار ، وفى سبيل ذلك ، فانه لم يرحل

الى البادية فقط ، وانما غاص بقـــدميه فى أحيـــاء البصرة ، ودهاليزها ، ومستنقعاتها أيضا ، وكان « حى الزنج » يجد كثيرا من اهتمامه ، فى نفس الوقت الذى شهدته فيه مجالس العلم ، ومساجده ومنتديات الفلسفة والكلام ، وأروقة المغنيين ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

كان الرجل راوية ، وكان اخباريا ، وكان مؤرخا ، وجميع هؤلاء يمتون بصلة قربى كبيرة ، الى رجال الأخبار ، والى مندوبيها ومحرريها دون أن ننسى أو نتجاهل طابع عصره نفسه ٠٠ بظروفه واهتماماته ٠

بل لقد اثبتت بعض كتابات الرجل من تلك التى أشرنا وسوف نشير اليها أنه كان يتمتع ببعض مواهب العاملين فى حقل جمع الأخبار وملكاتهم الفريدة لا سيما : حب الاستطلاع ، والتوقع ، والتوجه المباشر الى مواقع الأحـــداث وصناعها ٠٠ بل انه لابد من وقفة أخرى عند طبيعة مادته الاخبارية نؤجلها الى صفحات قادمة فحسبنا ذلك حديثا عن هذا الجانب ٠

٢ ـ الحاسة السياسية :

وهى تلك التى بواسطتها يدرك الرجل أبعاد ما يجرى فى مجتمعه من أحداث سياسية ، ويعرف كنهها ويصل الى ما خفى من مقاصدها ، ويضـــع يده على أبعادها ، وتتكون له من خلال ذلك كله نظرة غالبا ما تكون صائبة ، يستطيع بها أن يحكم على مسار الحدث أو القضـــية وعلى ما وراء الآراء والاتجاهات والنزعات والمواقف ، بل ويمكنه جمع خيوط هذه كلها الى بعضها ، والربط بينها . والخروج من خلال ذلك كلها بالتحليلات التى تصبح فى معظم الأحوال ، وبالنتائج المحتملة أو المتوقعة ، والتى يقدمها للقراء أو يفيد منها هو نفسه فى جوانب اتجاهاته المختلفة ٠٠

وواضح أن هذه الحاسة لا تتكون بين يوم وليلة ، وليس من السهولة بمكان أن يتمتع بها كاتب من الكاتبين أو أن تتوافر له ، وانما يكون من دون ذلك مشاق ومشاق ٠٠ فهى تحتاج الى مثل هذه المعرفة بالأجواء والأحزاب والطوائف وخططها وبرامجها ومعايشتها ، حاجتها الى الثقافة العــامة والسياسية ، حاجتها الى معرفة التاريخ المعاصر ، والاتصال بأبطاله وصناعه ،

والقرب منها ، ثم حاجتها الى ملكة استقراء وتفسير وتحليل واستنباط للنتائج، لا تتوافر للجميع وعلى نفس المستوى ٠٠ كما أن التجارب المعلمة تكون خير دليل الى هذه الحاسة نفسها ٠٠

ولا أحسب أن هناك أحد المتابعين المنصفين ، للعصر وتياراته السياسية يمكنه باستقراء حياة الرجل ، ومعرفة جانب فكره السياسى ، وانتماءاته ، ومعايشته لهذه التيارات ، الا أن يحكم له بتوافر هذه الحاسة مرتين ، مرة من خلال هذه المعايشة نفسها ، ومرة من خلال كتاباته وهو يصور هذه الأحداث ويفسر بعض ما خفى منها ويعلق عليها ويستخلص أبرز نتائجها ، ضاربا المثل من التاريخ والأحداث المماثلة والمتاحة ، ثم ينهى ذلك كله بتوجيه مفيد ومثمر للقراء ، دون أن ينسى فى ذلك كله ، أن يهاجم خصومه ، وأن يحمل عليهم حملة شعواء يفند بها حججهم ويفضح أساليبهم ويكشف عن فساد ما يدعون له ٠٠ وهكـــذا ٠٠

أليس هذا هو ما يفعله بعض كتاب السياسة ، أو معظمهم هذه الأيام ؟٠ مرة أخـــرى نقول ان دليلنا الى ذلك هو كتابات الرجل نفسها ، واليك طرفا منها ، يتصل بهذا الموضوع نفسه ، موضوع حاسته السياسية ، والكتابات التى نتحدث عنها مما حفل به التراث الجاحظى :

● فهو يقول عن منهجه فى الشك كطريق الى اليقين ، وبعد أن يروى احدى الروايات عن عالم الحيوان : « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقربه ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ولا يعجبنى الا قرار بهـذا الخبر ، وكذلك لا يعجبنى الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل ، وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما » (٢٢) ٠٠ وقد اتبع هو هذا المنهج على المجالين الاخبارى. والسياسى ، بل والأدبى النقدى معا ٠٠

● واذا كان قد مر بنا خلال الصفحات الســـابقة بعض كلامه عن « الزنادقة » كفرقة دينية ، فاننا نلاحظ أن من أهم مظـاهر كتاباته وفكره السـيـاسى :

ـــ الاهتمام بالجانب العقلى التفكيرى الشكى التحليلى

- الاهتمام بالمناظرة وطرح الشيء وضده
- الاهتمام بالأساليب الجدلية العديدة ••

● وفى النهاية ، نشير الى دفاعه الحار عن العرب ، كموضـــوع سياسى وجد اهتماما كبيرا عنده ، وأبدع فيه ـ ككاتب مقالة سياسى ـ أيما ابداع ورد على مهاجميهم والطاعنين فيهم ، كما رد على « الشعوبية » واتباعها حتى أفحمهم بالمنطق والحجة ، والجدل السياسى رفيع المستوى ، والثقافة العامة والتاريخية ، التى تبهر القراء •

٣ ـ الحاسة الاتصالية :

يختصر الطريق الى النجاح ، ويقطعه بسرعة وتمكن فى آن واحد ، هذا النفر من المحررين أو الكاتبين ••

- من ذوى الشخصيات الجذابة
- الذى يزن الكلام على مواضعه ولا يتحدث الا بما يعرف
- حلو الحديث طيبه ، دبلوماسى الكلام
- الذى يضيف الى رصيده من المعارف والأصدقاء كل يوم جديدا
- الذى يحترم الآخرين ، ويفصح عن هذا الاحترام
- الذى تراه لأول مرة وكأنك تعرفه منذ سنوات
- الذى يحرص على حسن علاقاته بالآخرين ، ويدعمها كلما وجد الى ذلك سبيلا

- الذى يفيد منه جلساؤه ، معرفة وثقافة وأدبا وخلقا ، وحتى فى مجال الملح والطرائف ••
- الأوفياء بطبعهم وطبيعتهم ••

اننا نعبر عن ذلك كله بالمحرر من ذوى « **الحس الاتصالى** » ، من ذوى العلاقات العامة الحسنة القوية المدعمة مع الجميع ، خاصة صناع الأحداث وأبطالها ، وحتى هؤلاء الذين يكونون « **الصف الثانى** » أو «**الصفوف الخلفية**» فكثيرا ما يكون هؤلاء من ذوى الفائدة الكبيرة التى يقدمونها لأســـباب عديدة (٢٣) •

فهل كان رجلنا ممن يملك هذا الحس ، هل كان سهل التعرف والتعارف، يقيم العلاقات ويحرص عليها ، ويزين المجالس بحلو حديثه ، من الأوفيـــاء والمعارف والأصدقاء ؟

اننا نقول هنا ، أن عددا من معالم هذا الحس الاتصالى قد توافر للرجل وتاريخه والمجتمعات التى كان يغشاها وبعض الأقوال عنه وكتاباته ـ وهى مصادرنا اليه ـ شاهدة على ذلك ، أقول عددا ولا أقول كل هذا العدد ، أو كل معالمه ذلك أنه ولعـدة أسباب لم يتمكن دائما وفى جميـــع الأحوال من أن يكون هذا الرجل ، ومن هنا أقول أن هذا الجانب قد توافر له بنسبة معقولة، لا بأس بها وفى حدود ٦٥ بالمائة مثلا ، لكنه لم يتوافر بما هو أكثر من هذه النسبة ، أما هذه الأسباب فهى :

ـــ دمامة وجهه ونتوء عينيه

ـــ خوف الحساد له من نشاطه وسرقة الأضواء منهم ولذلك فقـد اجتمعوا عليه ، وحاول هو قدر ما وسعه أن يكون بمنأى عنهم

ـــ جرأته وشدته فى الحق ، ومثله لا يرحب به الجميع

ـــ بعض انتماءاته السياسية والحزبية والطائفية الحالية أو السابقة من تلك التى تغيرت ، أو انقلب الزمن عليها وعلى أصحابها

ـــ تقده اللاذع وسخريته المرة بمن يستحق ذلك ، حتى من أصحاب هذه المجالس التى كان يغشاها

واذا كان الدارسون له أو متابعوه أو معاصروه ، واذا كان هو نفسـه أحيانا ، جميعهم قد عبر عن ذلك بأقوال عديدة من بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هذه الأقوال كلها :

● ما يذكر عن بعض حاسـديه ، ومؤيديه ٠٠ قال أبو القـــاسم السيرافى : « حضرت مجلس الأستاذ أبى الفضل بن العميد فجرى ذكر الجاحظ فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت للوزير : سكت أيها الأستاذ عن الرجل فى قوله ٠٠ قال ، لم أجد فى مقالته أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبينت له لنظـر فى كتبـــه وصـار بذلك انسانا » (٢) ٠

● وأعجب من ذلك ، ما رواه « المسعودى » فى كتابه الأشهر : التنبيه والاشراف من أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه الى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى اليه ، ولا الارادات تتم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها ، لا لشىء الا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عنى بتشييدها » (٢٥) ·

اذا كان ذلك هو ما حدث بالنسبة لجانب « الحس الاتصالى » ، ومما عانى منه الرجل نفسه ، فاننى أرى هنا أنه لم يكن شرا كله ، فقد وفر له الوقت المناسب للبحث والدرس والتأليف ، وأبعده ـ نسبيا ـ عن حاقديه وحاسديه ومثله يكون له العديد منهم ، تماما كما صرفه الى دعم وتنمية الحواس الأخرى غير أننى هنا أيضا ، وفى مجال الاقتراب من الجانب الصحفى عند الرجل ، أعود فأقول :

ـــ انه لم تكن له اليد الطولى فى ذلك ، وبمعنى أن ذلك لم يكن موقفه من الناس بقدر ما كان موقف البعض منه للاسباب السابقة ، حتى اليوم يحسدونه ويعارضونه ·

ـــ أن ذلك لم يكن ديدنه دائما ، ولم يكن حظه باستمرار ، بل لقد كان للرجل صداقاته وعلاقاته الطيبة والوطيدة ، بل وكما كان يوجد من يحقد عليه أو يحسده أو يغار من شخصه ويضايقه علمه وأدبه ولا يرحب به فى مجالسه ، فقد كانت هناك أيضا هذه الكثرة التى رحبت به وحفلت بمجلسه واستمعت اليه وأخذت عنه ، وأنصفته ··

ـــ ان ذلك لا ينفى عنه كثيرا هذا الجانب من « المكونات الصحفية » ، لأن بعض المحررين والكاتبين يعيش أيضا هذه الصورة ، وربما لمثل هذه الأسباب او لغيرها ، بينما الكل يشهد أنه « متصل ماهر » وأن علاقاته تكون جيدة ومفيدة وقائمة ودائمة ، وعلى الرغم من وقائه الذى جبل عليه ··

تلك صورة موجودة أيضا ، وفى أواسط عدد ناجح ومرموق من المحررين ··

— ان من المؤكد أن هذه النسبة من الضعف القائم فى جانب هـــذا الحس الاتصالى عند الرجل ، كان يتجه أولا ، الى هؤلاء الذين أرادوا ابعاده أو عزله أو عزلته ، وهؤلاء ، ووفقا لنوعياتهم ، لم يكن يرتجى منهم خيرا كثيرا أو حصادا مثمرا ، وانما المر والعلقم ..

— وحتى هؤلاء ، فقد قدم بعضهم للرجل فرصـــة كبيرة ، لتنــاول مواقفهم ، ومعارضتهم ، وحسدهم ، وانكارهم للحق ، فجاءت كتاباته عنهم، خاصة فى جانبها الفكاهى الساخط ، قمة فى موضوعها .. ومثلا ما يزال يحتذيه محررو المقالات الفكاهية والكاريكاتيرية ، وغيرهما ، بل كان نقده لهم ، فريدا فى بابه ، وجميعها سوف نعود اليها فى سطور قادمة باذن الله ..

٤ ـ الحاسة الجماهيرية :

وبالمثل ، يفوز بعطف القراء عليه ، وتأييدهم له ، ويحيطونه بحبهم ، ويكون مثار اعجابهم ، ذلك المحرر الذى يتمتع بما نطلق عليه تعبير : « الحس الجماهيرى » ومن ثم يتابعونه وتحظى كتاباته باهتماماتهم ، ويبحثون عنها وينتظرونها ، ليس لأنه وعلى طريقة بعض المخرجين السينمائيين : « الجمهور عايز كده » .. أو هذا « نجم شباك » وذلك نجم « رصيف » .. وما الى ذلك ..

ان الحس الجماهيرى هنا يعنى أولا ، وبادىء ذى بدء ، هـــذه الأمور بعضها أو كلها أو أمثالها :

— أن يكون المحرر مع الجماهير فى أفراحها وأحزانها وربما معهــم فى هذه الأخيرة أولا ..

— أن تكون قنوات اتصاله بهم وعلى جميع المستويات قائمة وقوية ودائمة ..

— أن تكون لديه فكرة كاملة ومعرفة طيبة ، عما يؤرق منامها ، ويطحن أحشاءها ، ويهدد يومها وغدها ..

— أن يقف الى جانب قضاياها بكل قوة ، لا سيما قضايا الضعفاء ،.

والذين ليس لهم سند ، والمظلومين ، والذين يعانون من النكران والجحود ، او يطلق البعض على انفاسهم ، أو يضطهدهم لسبب من الأسباب ..

— أن يحاول أن يأخذ بيدها . ما وسعته فى ذلك المحاولة ، وأن يفكر لها وبها ومن أجلها ، وأن تكون هى مجال فكره ، ومقيـاس جهده ، ومعين مادته ، كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وأن يجاهد من أجل شق الطرق ، والحصول على الفرص التى تتيح ذلك كله .

— أن يمتعها ويؤنس وحشتها ويزيل صدأ قلوبها ويبدد قلقها ، قدر الطاقة ، وبمقدار ما تسعفه أدواته الى ذلك فكرا وتعبيرا ..

والى غير ذلك كله من جوانب تلقى بمسئوليات مضاعفة على كاهل المحرر أو الكاتب ولكنها فى مقابل ذلك كله ، تكتب له النجاح وتحقق لكتابته الذيوع والانتشار ، ويكون من ورائها العائد المناسب معنويا وماديا ، بل لقد ترفعه الجماهير هنـا الى مرتبة القادة ــ قادة التفكير ــ الذين تنتظـر كلماتهم وتوجيهاتهم وتأخذ بها ، وهكذا يكون امثال هؤلاء ، محل ثقة القراء ، ومحط أنظارهم ، ومبعث آمالهم وسعادتهم ..

.. اننا نتبع هنا طريقة جديدة ، فمن رصيدنا الذى استطعنا جمعـه من هذا التراث الجاحظى نفسه ، نقدم صورا مما يعكس هذا الحس عنـد الرجل ، مقداره ودرجته وربما ، مما خالف فيه كثرة من كتاب أهل عصره، الذين كان جل اهتمامه وغايته موجها الى الخلفاء والأمراء والأثرياء ، ومن اليهم ... وصحيح أن ذلك كان هو طابع العصر ، وأن الأديب كان يقـدم شعره أو نثره ليعيش ، ولا اعتراض لدينا على هذا الواقع الذى أملته الظروف نفسها ، ولكن ، فى نفس الوقت فانه لا يسعنا الا أن نثبت ذلك للرجل ، ومن بين صوره على سبيل المثال لا الحصر :

« سكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقنا له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات ــ من يبدى زايه ــ وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته الى منزله ، فجعله ارتكازا لامرأته ، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقده ، فقيل له انك قد كسوته فلانا ، فبعث اليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز !..

وبعد فانى أكره أن يكون لى حمد ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فرده على حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس ، فانى أكره أن يذهب شىء من مالى باطلا ، فلما رآه قد صمم وأقبل عليه فقال يا هذا ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله ٠٠ قال له الرجل ، انى قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى على الأرض حتى جيبته لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فان أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه ٠٠ قال نعم ! ، آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك ، قال فانه عند الصباغ، قال فهاته، قال ليس أنا أسلمته اليه، فلما علم أنه قد وقع قال بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر » (٢٦) ٠

٥ ـ الحاسة الفكاهية :

واذا كنا نرى أن كثيرا من الصحفيين الأدباء ، أو الأدباء الصحفيين ، فى الماضى والحاضر يتمتعون بقدر لا بأس به من الحاسة الفكاهية ، التى نرى مالا يراه الآخرون ، من جوانب السلب ، ومن الرقع الموجودة فى ثوب المجتمع ، ثم تتبع ذلك نقدا لاذعا يهدف الى الاصلاح ، ويدفع الى العمل على تقديم الحلول ، ويثير من يتناول هذا النقد بما يتضمنه من قدر كبير من التفكه والتندر ، يثيره الى الحركة ، فى اتجاه تغطيه ما كشف وستر ما جرت عليه هذه الروح ، واذا كنا مع بعض كبار الممارسين فى قولهم بأن الكاتب ، لابد أن يكون على قدر من الحس الفكاهى ، وأن محرر المقالات الصحفية بالذات يحتاج الى هذا الحس أكثر من غيره من مؤلفى الكتب أو الباحثين ٠٠ اذا كان ذلك كله هو ما يدور ، فمن المؤكد أن « رجلنا » لم تنقصه هذه الحاسة أيضا ، بل كان له من طبعه وطبيعته ، وتجاربه وثقافته ، وجلساته ومخالطته الناس ، ومن عينه « الجاحظة » التى تطول المشاهد كلها ، ومن بصيرته النافذة ، ثم من روح الدعابة المتأصلة فيه ، كان له من ذلك كله الرصيد الطيب الذى يتصل بهذه الحاسة نفسها وما تستطيع أن تقدمه فى المجالس ، ودكاكين الوراقين ، والمنتديات ، وعلى الورق ، مما يبهر حتى قارىء اليوم نفسه ، ويدفعه الى تقبل نتاجها ، من ملح وطرائف ونوادر وألوان نقد وكاركاتير جميعها قدمها قلمه فى أكثر من مجال ومقال ، أشرنا فى السابق الى بعضها، وسوف نشير فى اللاحق أيضا ، الى بعضها الآخر ٠

ان هذه الحاسة نفسها ، وأن هذا القدر الكبير من تمتع الرجل بها ، كان وراء هذا النتاج المتميز مما أطلق عليه الباحثون تعبير « أدب الفكاهة » .. والذى نستطيع أن نقول أنه من أبرز كتابه العرب ، لا بل من أبرز كتابه فى العالم كله ، بل من رواده الأوائل كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ذلك لأن مستوى كتاباته الفكاهية ، ولأن كثرتها وتنوعها .. جميعهـــا تعطى له هذه المنزلة الرائدة ، فاذا أضفنا الى ذلك أن هذه الفكاهة ، كانت فى أغلب الأحوال ذات المضمون الهادف ، الذى يفيد منه الفرد والمجتمع ، فضـــلا عما كانت تزخر به من معالم هذا الحس نفسه ، لاسيما فى مجال اختيار وانتقاء هذه الصور والمشاهد والمواقف والشخصيات والافكار والقضايا ، التى تعرض لها قلمه اللاذع ، وتحويلها — جميعها — الى عمل فنى رفيع اذا أضفنا ذلك كله ، لعرفنا أى نوع من الرجال كان ، ولازدادت معرفتنا بهذه الحاسة ، ..

اننا نقرأ — على سبيل المثال — لأحد المهتمين بدراسة هـــذا الجانب ، دراسة جادة هذه السطور :

● « فالجاحظ كثيرا ما كان يستخدم الاطار الفكاهى ليوجه نقداته الهادفة وسخرياته المرة الى الأدواء الاجتماعية والنقائص الأخلاقية التى يراها فاشية فى الناس من حوله ، فكان يعالج تكيره لها ، ويصب نقمته عليها فى ذلك القالب الأدبى الرفيع ، الذى رأينا أن نطلق عليه : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » (٢٧) ..

● ويقول المؤلف نفسه أيضا : « ويعد الجاحظ أسبق الكتاب العرب احتفالا بالفكاهة، وحشدا لها فىثنايا مؤلفاته، وهو صاحب مذهب مشهور فى مزج الهزل بالجد ، والخروج بقارئه من أدق المسائل — فلا غرو اذا أن نعد الجاحظ رائدا للادب الفكاهى عند العرب بحسب أنه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه وتفنن فى امتـــاعهم ، وادخال السرور عليهم ، ابقاء على نشاطهم وابعادا للملل والسأم عنهم » (٢٨) .

واذا كانت هذه — بعون الله — ليست آخر كلماتنا عن هذا الجانب من جوانب الفكاهة عند صاحبنا ، فاننا نقول هنا أن ارتباط هذه الحاسة الشديد بكتاب المقالات ، وان اتصالها الوثيق بالأساليب التحريرية الصحفية الهادفة الى « كسر » حدة جمود مادة معينة ، ومســـاعدة القارىء على المتابعة ،

والقبض على « حبل انتباهه » كما يقول المؤلفون الأجانب فى موضـــوعات التحرير الصحفى ، فضلا عن الرؤية الناقدة النافذة المحتجة المطالبة بالتغيير ، نقول أن فى ذلك كله ما فيه من جانب صحفى كان الرجل يتمتع به ، الى جوار هذا الجانب الأدبى ٠

وفى تعبير آخر ، ان هذه الحاسة الفكاهية قد أنتجت أدبا صحفيا كذلك، مما يقف الى جوار ما ندعو اليه من القاء الضوء على « الجاحظ » الأديب الصحفى معا ٠

●● هوامش هذا الفصل :

(١) محمود أدهم : « فن الخبر » ص ٢١٠

(٢) أخذ عنى هذا المصدر الخارجي الذى انفردت بذكره على هذا النحو وباستخدام هذه الكلمات ، ضمن كثير جدا مما أخذه من كتابى : « فن الخبر» دون اشارة الى ذلك الا مرتين « ذرا للرماد » وبطريقة خاطئة ، فى هامشه ، وثالثة بقائمة مراجعه التى أخذ كثيرا منها عن قائمة مراجعى بالكتاب المذكور، وبوقوع الخطأ أيضا ، فعل ذلك مكتفيا بطريقة غير أمينة وسهلة الاكتشاف ، وترك بصماته تدمغه صاحب صفحات أطلق عليها اسم : « الخبر الصحفى ، وضوابطه الاسلامية » ، وقد آليت على نفسى التنويه بفعلته كلما جـــاء ذكر ما نقله عنى دون اشارة الى اسمى ، حتى لا يعود اليها ، هو وأمثاله لما فى ذلك من تثبيط للهمم واضعاف للمعنويات ومجافاة للروح العلمية وأمانة البحث وتعارض مع روح الزمالة ، بل ومع « الضوابط الاسلامية » التى غلف بها هذه الصفحات وظن أنها تعطيه الحق فى السطو على مجهـــود غيره وابتزاز أفكاره ٠

(٣) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٩ ٠

(٤) الجاحظ : « كتاب البخلاء » ص ٢١ من المقدمة بقلم : أحمـــــد العوامرى وعلى الجارم ٠

(٥) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام » ٢١٩ ٠

(٦) من حديث خاص أدلى به الى الباحث المرحوم الأستاذ سليم اللوزى» بالرياض ١٩٧٦ ٠

(٧) للاستزادة ، انظر احمد أمين : « فجر الاسلام » ص٢٨٣ ومابعدها٠

(٨) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى اســـلوب الجاحظ » ص ٢٥ ٠

(٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة المحقق عبد السلام هارون ص ٥ ٠

(١٠) الجاحظ : « كتاب البخلاء » من مقدمة المحقق د٠ طه الحاجرى ص ١٥ ٠

(١١) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلاميـــة فى اسـلوب الجاحظ » ص ٥٢ ٠

(١٢) أحمد كمال زكى : « الجاحظ » ص ٥ ــ ٦ ٠

(١٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ١٩٨٥/١/٢٢ ، من مقال بقلم توفيق الحكيم ٠

(١٤ ــ ١٥) الجاحظ : « كتاب البخلاء » ص ١٣٣ ٠

(١٦ ــ ١٧) حنا الفاخوزى : « الجاحظ » ص ٦٤ ٠

(١٨) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٩) شوقى ضيف : « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ١٦٣ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٢١) محمد زغلول سلام : « دراسات فى الأدب العربى » ص ٤٥٦ .

(٢٢) الجاحظ : « الحيوان » ج ٦ ص ٣٤ .

(٢٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع فى جانبه الاخبـــارى أقترح العودة الى كتابى : « فن الخبر » لاسيما ما اندرج تحت عنـــوانى : « مفتاح العمل الاخبارى » ، « الأخبار من الكبار والصغار أيضا » .

(٢٤) الجاحظ : « الحيوان » حـ ١ ص ١٠ .

(٢٥) حنا الفاخورى : « الجاحظ » ص ١٨ ، نقلا عن المسعودى .

(٢٦) الجاحظ : « كتاب البخلاء » .

(٢٧ ـ ٢٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ ، ٦ .

الفصـــل الرابع

الحاسة الصحفية عند الجاحظ

خلال الفصل السابق ، تناولنا بالحديث بعضا من الحواس التى يقول أساتذة الصحافة وعلماؤها بضرورة توافرها بقدر طيب ، فى ذلك الشخص الذى يرغب فى العمل المتميز ، وفى ارتقاء سلم النجاح فى بلاط صـــاحبة الجلالة ، حتى يصل الى درجة «الكاتب الصحفى» المرموق ثم قدمنا عدة نقاط توضح وجودها مجتمعة . مى صدر صاحبنا وفى فكره ٠٠

وبالمثل ، وخلال السطور الأخيرة من الفصل الثانى ، قدمنا عدة شواهد على حاسة « الجاحظ » الاجتماعية ، وعلى حاسته الحافظة ، وكذا على حاسته الاجتماعية ٠٠٠

وذلك كله فضلا عن حاستيه الأدبية والفنية ، ولنا معهما وقفة أخرى ، من الزاوية التى تعنى هذا الكتاب أيضا ٠٠

أقول خلال سطور عديدة سابقة ، رحنا نقدم هذا الحديث عن وجود هذه الحواس جميعها عند الرجل ، وتمتعه بقدر كبير منها ، الى درجة يحسـده عليها العديد من كتاب وصحفيي هذه الأيام ، شرقا وغربا ٠

تحدثنا عن هذه ، وعن ازدحامها فوق صفحات الرجل ، وانســياب ما يدل عليها بين ما يدل على ملكاته العديدة ، لكننا ، خلال هذه السطور السابقة نفسها لم نتحدث عن حاسة أخرى هامة جدا ، بل لقد أغفلناها عن عمد ، ذلك كله بينما يستطيع أن يدرك اغفالنا للحـــديث عنها ، أى طالب اعلام ، أو أى محرر جديد ٠٠ حيث ترتبط بها بشدة هذه الحواس السابقة كلها ، بل ونستطيع أن نقول أن محصلتها النهائية _ محصلة هذه الحواس _ تصب فى بحرها الصاخب وفى عالمها المتجدد ، الذىيموجبالحركة والحياة٠٠ والذى لا يعرف السكون أو الركود أبدا ٠

أريد أن أقول ، ان هذه تصـــب وتنتهى الى « الحاسة الصـــحفية » والا أصبحت حواسا تعمل فى فراغ ، ولا تنتج عملا صحفيا جديرا بالنشر والقراءة والمتابعة ٠٠

أى أننا هنا ، وخلال هذا المبحث ، وبالاضافة الى ما سبق تقديمه من صور عديدة ، تستطيع أن تقف شاهدة على هذا الجانب « الصحفى » عنـد

« الجاحظ » الأديب ، والتى كانت انعكاسا لدرجة طيبة من تمتعه بهذه الحواس كلها بالاضافة الى ذلك ، فاننا نواصل تقديم هذه الشواهد ، ولكن من زاوية أخرى وفى صور متجددة ، ترتبط هذه المرة ، بالحاسة الصحفية نفسها ·

لكن من المؤكد ، أن ذلك يعنى أولا — وكما حدث بالنسبة للحواس السابقة أن نتوقف عند محاولة لتحديد « ماهية » هذه الحاسة نفسها ، ثم تقديم الصور والشواهد والدلائل الخاصة بها بعد ذلك ··

ولن نجهد أنفسنا كثيرا فى تتبع هذه الحاسة الصحفية فى الكتب والمراجع العربية والأجنبية لأن كثرتها لم تتوقف عند تعريف لها ، وانما سوف نختلس عدة نظرات سريعة الى ما يتصل بها وبصورها من هنا أو هناك ، بينما التجربة نفسها هى خير معرف لها ، ومن هنا نقول أن هذه الحاسة تظهر واضحة ، وتتمثل وتتجلى فى أكثر من مشهد أو « محك » أو « اختبار » لوجودها من عدمه ، ولهذا القدر من الوجود نفسه · ودرجاته فى صدر صاحبها وفكره ·· ومن بين صور هذه الحاسة وما يتصل بها مثلا « ١٨ صورة فقط » ·

١ — فهى تتمثل فى حاسة توقع الأخبار وأماكنها وأبطالها أو مواقعها وصناعها ·

٢ — وهى تتمثل فى حسن اصطفاء أو اختيار ما يصلح من بين هذا الكم الاخبارى الهائل ، للنشر والقراءة ·

٣ — وهى تتمثل كذلك فى حسن الانتقال والسعى وراء الصور والمشاهد الجديدة التى قد لا يهتم بها غير من يملك هذا الحس ·

٤ — ثم فى واقعية رصد واختيار وتحرير هذه كلها بأمانة وصدق ·

٥ — وهى تتمثل كذلك فى اختيار الأفكار والموضوعات الجديدة من تلك التى يمر بها الآخرون من كاتبين ومحررين مر الكرام ، ولا يحفل بها غير من يتمتع بهذا الحس نفسه ، حتى وان بدا للناس تافها حقيرا ·

٦ - وهى تتمثل أيضا فى بعث الروح فى الصور والمشاهد والأفكار والموضوعات القديمة ، ووضعها فى أطر فنية وأشكال جديدة مبتكرة ورؤية معاصرة وصحيحة ٠

٧ - وهى تتمثل أيضا فى التناول العكسى للافكار والموضوعات المطروقة قديما أو حال طرقها على يد الكاتبين الآخرين أو الكاتب نفسه بما يشبه المعارضة أو المناظرة لهذه الأفكار والموضوعات نفسها « الشيء وضده » ٠

٨ - وهى تتمثل بعد ذلك كله فى تقديم الفكرة الأجنبية المترجمة أو المنقولة « معربة » ٠٠ ثم الوقوف منها موقف التأييد او المعارضة ٠

٩ - وهى تتمثل أيضا فى ذلك التقديم الشمولى للفكرة المطروقة ، بما يعد سبقا لصاحب التقديم على غيره ، حيث يحيط بها من جميع جوانبها وزواياها القريبة والبعيدة وظلالها ونتائجها بما يذكر بكتابات الموسوعيين المختلفة ٠

١٠ - وهى تتمثل أيضا فى حسن اختيار زاوية جديدة فى الجانب المطروق ، أو الظاهرة المعروفة ، لكن لم يره أحد من قبل ، ولم يضع يده عليه، بل ولم يشر اليه ببنانه ، لكن الحاسة الصحفية هنا تعرف كيف تتصيد ، وترى هذه الزاوية ، وتتناولها ٠

١١ - وفى الحس الفكاهى وروح الدعابة ، والقدرة على تجسيم العيوب نجدها كذلك ٠

١٢ - وهى تتمثل أيضا فى التركيز على جانب البطل ، لاسيما عندما يكون جديدا بصورته وشخصيته وعمله وتفرده به فى جانبى الايجاب والسلب٠

١٣ - أو جانب المكان ، فقد يكون هو البطل ، وغيره انصاف ابطال ، أو ارباع أبطال ، أو على هامش البطولة ٠

١٤ - وفى حاسة نقدية تعرف كيف تفرز الجيد من الردىء والصحيح من الفاسد ٠٠

١٥ ـ وهى تتمثل فى حسن استخراج الشـــواهد والدلائل والبراهين والأمثلة ، لاسيما من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والسنة الكريمة ، وأعمال الصحابة ، وتوجهات أهل العلم والثقة ، ومن بطون الكتب ، وصور التاريخ ٠

١٦ ـ أو تكون فى براعة التوصل الى اللغة التى تكون أكثر صدقا فى تصوير ما كان وما يكون وأصدق تعبيرا عن الصور القائمة ، والمشاهد التى تجرى أمام الناس ، حتى وان اختلفت عما يكون قد عهده قراء ذلك الزمان ، بل ان فى هذا الاختلاف نفسه ما يؤكد حاسته ، وما يدعم تفوقه مادامت لغة صحيحة بغير خطأ أو لحن ، وبغير اسفاف أو تعال على القراء ٠٠ وحيث يتعدى المحرر أو الكاتب بهذه اللغة ، حدود عالمه ، وابعاد حاضره ، ويقفز فوق جوانب محدودية القراء ٠

١٧ ـ بل ان هذه الحاسة قد تتجلى فى حسن صياغة وحدة فنية واحدة أو أكثر من الوحدات التى يتكون منها العمل الفنى كله ، أو النص التحريرى كله ـ الصحفى هنا ـ فقد تكون فى جمال ودقة وواقعية وجاذبية العنوان ، أو فى براعة الاستهلال ، أو فى حسن التقسيم أو فى مؤثر ومؤكد ومقـــرر النهاية أو الخاتمة ٠

١٨ ـ تماما كما تكون فى حسن اختيار الكلمات الصادقة والمعبـــرة والدالة ، وبراعة نسجها وتحويلها الى جمل معبرة شكلا ومضمونا ، ثم فقرات متماسكة ، تعكس ما يريد الكاتب التعبير عنه من أفكار ، وتتشابك ، وتأتلف وتتوحد مع غيرها لتكون هذا النص كله ٠٠

٠٠ أى انها فى النهاية وتقريبا تتمثل فى :

• حاسة التعرف على الأخبار والأفكار والموضوعات الجديدة ذات الصلة بجوانب الأهمية المختلفة ، ومواقع استقطاب الأنظار ، ومواطن الجمـــال والجاذبية ونواحى المجتمع والثقافة والفكر والعلم والدين والسياسة ورصد هذه كلها والتعبير عنها تعبيرا مفيدا وواقعيا يقدمها ويبرزها ويحللها ويصل الى سبر أغوارها ، أو عرض أكثر من رأى أو موقف أو نتيجة بشـــأنها فى

اطار فنى معين بحيث تؤدى جميعها عدة أهداف حالية ومستمرة يفيد منها العام والخاص ، القارىء الحالى ، والباحث والمؤرخ » ٠

أو فى تلك الظواهر المتصلة بالحاسة التى ترى وحدها وترصد وتعبر عن هذه كلها ٠٠

اننا هنا ـ فى واقع الأمر ـ لا نملك الا الاعتراف بشيئين ، أو التوقف عند ملاحظتين هامتين :

● **أما الملاحظة الأولى :** وهى الأقل أهمية هنا على الرغم من جدارتها بالتوقف عندها ، فهى أن هذه الرؤية لما تعبر عنه هذه الحاسة وارتباطها بالنشاط الجاحظى أدبا وصحافة ، تكاد تقترب كثيرا ، بل تتداخل وتتشابك أيضا ، مع تعريف لا نستطيع هنا التغاضى عنه ، أو تجاهله ، فى هذا المجال بالذات ، وهو تعريف التحرير الصحفى ، ذلك الذى يقول أنه :

« طريقة الكتابة الفنية ، التى تتيح للمحرر الصحفى ، استنادا الى فكر متميز ، ومن خلال قيامه بمسئوليات وظيفته ، تسجيل الأحداث المهمة الحالية والمتجددة ، ونقل الوقائع والتفصيلات والصور والمشاهد المرتبطة بها ، والتعريف بما أسفر عنه البحث وراء عللها وأسبابها الظاهرة والخفية ، وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة ، وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات المختلفة والمؤثرة ، وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والافكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات الجدارة والنفع وتناول ما يستحق من تطوراتها ونتائجها المتتابعة ، انطلاقا من صالح الفرد والمجتمع والانسانية ووسيلة النشر ، والتعبير عن ذلك كله ، تعبيرا دقيقا وموضوعيا فى أغلب الأحوال فى عبارات قصيرة ومتماسكة ٠ وبواسطة لغة صحيحة سهلة واضحة وجذابة ، فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة اعلامية موجهة الى القراء ، تكون صالحة للطبع والنشر والتوزيع فى الوقت المناسب ، على صفحة أو صفحات جريدة أو مجلة » (١) ٠

وبصرف النظر عن استخدام المصطلحات الاعلامية لا الأدبية ، ومما يتصل بها من أطر وأهداف وكذا ، بصرف النظر عن طبيعة الفترتين وفى ضوء هذه الرؤية الجديدة لأدب الجاحظ ، فاننا نقول ان هذا التعريف نفسه

المتداخل مع تعريف هذه الحاسة الصحفية ، يصدق كثيرا على عدة ألوان من كتابات الرجل ، فهى أدبية صحفية ، أو صحفية أدبية ، معا ··
ثم ماذا ؟

● وأما الملاحظة الثانية : وهى الأكثر أهمية هنـا ، فهى تلك التى تقول ، بأن أكثر صور هذه الحاسة ، ما ذكرنا منها خلال النقاط السابقة ، وما لم نذكر ، جميعها لا يمكن لمتابع مخلص ودقيق لكتابات الجاحظ ، وعلى اختلاف أنواعها ، بل ولانعكاس تأثيراتها فى حياته وشـــخصه ·· الا أن يعترف بوجود ما يقترب من بعضها اقترابا شديدا حينا ، وأقل شدة فى حين آخر ، بل وما يكاد ينطبق على بعض هذه الصور تمام الانطباق ـ وكما يقول علماء الرياضيات ـ لتتجلى فى صورة منها أو أخرى هذه الحاسة نفســـها ونجد أثرها واضحا جليا فى هذه الكتابات الجاحظية ، مما يؤكد وجودها ، هى والحاسة الأدبية معا ، فى صدر هذا الرجل ·

اننا ، خلال السطور القادمة ، سوف نتناول هذه الصـــور ، وآثارها ودلالاتها فى بعض كتابات الجاحظ ، ولكن من خلال مستويين من مستويات التناول ، اذ من غير المعقول تتبعها كلها فى هذه الكتابات جميعها على مستوى واحد ، أو من خلال طريقة واحدة ··

أو ـ فى أسلوب آخر ـ فاننا سنلقى على بعضها نظرة سريعة ، ومن عل ، تساعدنا ـ وهى نظرة طائر محلق ـ على المرور بهـا مرا سريعا ·· وأما بعضها الآخر فاننا سنقترب منه اقترابا شديدا ، الى حد التوقف عنده تماما ، ومحاولة سبر غوره ، من زاوية هذه الحاسة نفسها :

أولا :
اشارات ودلالات سريعة

نعم ·· عند اعادة استعراضنا لهذه الصور السابقة ، من تلك التى تؤيد أو تؤكد وجود الحاسة الصحفية ، عند أحدهم ، وهو هنا « الجاحظ » ومن خلال النظرة السريعة لوجدنا وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ فالمتتبع لكتاباته ، خاصة الاخبارية منها ، والتى تعكس جهده فى

سبيل الحصول عليها ، وبالذات ، عندما يكون من العاملين فى حقل الأخبار الصحفية ، يدهشه حقا عندما يلمح ـ بخبرته أن الرجل قد توصل الى بعض مبادىء وأسس وقواعد « العملية الاخبارية » ٠٠ واذا كنا قد أشرنا عند حديثنا عن « الحاسة الاخبارية » الى بعض هذه المبادىء والأسس ، فاننا نضيف اليها هنا جوانب « توقع » الحصول على مادة اخبارية ، وحديثه هو عن انتقاله أو ارتحاله طلبا لها ، أو كرد فعل لهذا التوقع فى أماكن وجودها ومع صناعها وأبطالها فى المواقع المختلفة ٠

٢ ـ ثم فى السعى وراء ثلاثة جوانب أساسية تعكس بعض صور هذه الموهبة نفسها ، وتلك الجوانب هى :

(أ) جانب انتقاء أو اصطفاء ما يصلح منها للنشر على قرائه (ليس كل مادة اخبارية تصلح للنشر فى زمانه وظروفه وان صلح بعضها للنشر فى زماننا وظروفنا) ٠

(ب) جانب العناية بما وراء المادة الاخبارية المنتقاة أو المصطفاة ، وعدم التوقف عند حدودها الاخبارية ، أو ما نطلق عليه اليوم الاهتمام « بما وراء الأخبار » ومن هنا كانت صوره القلمية ومادته التى اقتربت فى أحيان كثيرة من الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، فضلا عن الدراسات والمقالات المعتنى بها ٠

(حـ) جانب استكمال هذه المادة أو تلك بما يضيف اليها الجديد المفيد من معلومات وتجارب وكتابات الآخرين ٠

ولمن شاء أن يرى أو يقرأ مصداق ذلك كله ، فان عليه بصفحات أو سطور فقط من أمثال هذه الكتب والرسائل والكتابات كلها : « الزيدية ـ الرافضة ـ الصرحاء والهجناء ـ الجن والانس ـ التاج فى أخبار الملوك ـ النصارى واليهود ٠٠٠ الخ » ٠

٣ ـ وأما عن حاسة « بعث الروح فى الصور والمشاهد والموضوعات القديمة التى كتب فيها من سبقه ، وتناولها بما يعكس هذه الموهبة نفسها ، فقد بدا فى كتابات عديدة للرجل ، يستطيع القارىء أن يتتبعها فى أمثال هذه

المؤلفات والرسائل ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر بالاضافة الى بعض ما ذكر منها سابقا : « الأصنام — الهاشميات — خلق القرآن — الحجة فى تثبيت النبوة — الحنين الى الأوطان — الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ... » وغيرها .

٤ — ومن هذه أيضا ، ومما يعكس حسه الأدبى والصحفى معا ، هذه الصور بالغة الدقة ، صادقة التعبير ، واقعية النقل ، التى قدمها لعدد كبير من الأشخاص الذين عرفهم المجتمع العباسى عامة ، والبغدادى والبصرى خاصة ، أو من هؤلاء الذين طفوا على سطحه ، أو اشتهروا به ، وقد تناولها الرجل وكما نقول ، ليس تناولا أدبيا فقط ، وانما **اختلطت فى سطورها مظاهر التناول الأدبى والصحفى معا** ، لاسيما ما يتصل بجوانب المقال الصحفى ، والنقدى والفكاهى ، بل اقترب فى بعضها اقترابا شديدا من « تقارير الشخصية » ، فضلا عن جوانب الصورة القلمية الأدبية .. وأدب الرجل زاخر بهذه المعالم الصحفية لاسيما فى هذه المقالات والرسائل والتصنيفات كلها :

« البخلاء — الصرحاء والهجناء — التربيع والتدوير — فى الوكلاء — المؤلف المحسود — الجاحظ والمجوسى — القاضى والذباب — كتاباته عن العلماء»

ونكتفى بهذا القدر من تلك الاشارات والدلالات السريعة ، التى ألقينا خلالها نظرة الطائر على آثار هذه الحاسة عنده ، وننتقل الى جوانب أخرى، مؤكدة لهذه الدعوى نفسها ، وبأسلوب « المتابعة البطيئة » هذه المرة ..

ثانيا :

شواهد صحفية مختلفة

.. ونتوقف اخيرا عند عدد ثان من هذه الشواهد على قيام الحاسة الصحفية ، فى صدر هذا الرجل النابغة ، والذى قلنا أنه مكون من عدة رجال لعل أبرزها خلال هذا الحديث ، وبعد الجاحظ الأديب ، الجاحظ الصحفى ، وغيرهما ايضا مما سنشير اليه بعد قليل ..

وكما قلنا ، فاننا سنتوقف عند كل نقطة من هذه النقاط ، اكثر مما

توقفنا عند النقاط السابقة ، ومن هنا ، فلن نتناول جميع ما تركنا ، وانما بعضه فقط ، وقد نضيف اليه جديدا مؤيدا ، معبرا بالأسلوب نفسه عن صحة ذلك الذى ندعو اليه ، وفى هذا نقول :

(١) الأفكار الصحفية الجديدة

للصحفى الموهوب دلالات وامارات ، وفى حيـــاته وقراءاته ومتابعاته أكثر من شاهد على ذلك ، ولكن أبرزها خاصة فى مجالات ما وراء المـــادة الاخبارية ، من موضوعات وقصص وتقارير وتحقيقات ودراسات ومقـالات صحفية بأنواعها ٠٠ أبرزها هنا هو ذلك القـــدر الذى يتمتع به من الحس الصحفى من زاوية **العثور على الأفكار الجديدة** ،غير المعروفة أو غير المطروقة، أو التى تمر على غيره دون ادراك لجوانب أهميتها وفائدتها وجاذبيتها ٠٠ لكنه بحسه ، وما يتمتع به من موهبة ، يضع يده عليها ، ويقتنصها ، ويتوقف فكره العامل بجد عندها ، وحتى اذا كانت من تلك الأفكار القـــديمة ، التى سبق طرقها وتناولها على الصفحات ، فان له من هذا الحس ما يدرك به كيف ينفذ الى زاوية جديدة فى هذه الفكرة القديمة ، لم ينفذ اليها أو يتناولهـــا الآخرون ؟ أو كيف ينفض عنها الغبار ويقدم فى شكل واطار وتناول جديد يكون الفارق كبيرا بينه وبين تناول السابقين بتناولها ؟ ٠ وهكذا ٠

واذا كنا قد أشرنا مجرد اشارة سريعة ــ الى مثل ذلك وفى كلمات قليلة جدا أيضا ، عند حديثنا عن معالم « الأدب الصحفى » (٢) ، فاننا نتساءل هنا: هل أسفرت الموهبة الجاحظية ، عن مثل هذه الافكار الجديدة ؟ هل وضع الرجل يده عليها ، بما لم يحدث من قبل عند غيره تماما ؟ أو بما لم يحدث بمثل أسلوبه ؟ وهل نجح الرجل فى تصيد بعضها ، وفى ازالة الغبار والصدأ عن بعضها الآخر ؟ وفى تقديم البعض الثالث فى صورة جديدة كل الجدة ، أو من زاوية جديدة أو أكثر من زاوية جديدة ؟

قبل الاجابة عن ذلك كله وتقديم الشواهد والأمثلة على قيامه من عدمه؟ وأيضا ، قبل أن نقدم أقوال الذين عايشوه عن قرب ، مما يتصل بهذه الأفكار٠٠ فاننا نقربها الى الأذهان ، عن طريق نقل سطور قليلة توضح ماهيتها ٠٠ وتلقى بعض الأضواء عليها ، ان هذه الافكار التى نقصدها بالدرجة الأولى هى :

— « الموضوع الجديد الذى يطرقه الاعلامى - الصحفى هنا - أو المادة أو البذرة أو الخميرة أو العنصر الأساسى الذى يقيم عليه جميع العناصر الأخرى ، تلك التى يقيم عليها بناءه الاعلامى - الصحفى هنا أيضا - ويشد اليها أركان عمله ، وتمثل هى جوهر هذا العمل ولبه وصميمه الذى تمتد منه خيوط نسيجه وتتشابكويطول بعضها ويقصر البعضالآخر ولكنها - جميعها - تؤدى فى النهاية الى اقامة هذا الثوب الاعلامى ، أو البناء الاتصالى الذى قد يكون موضوعا أو تقريرا أو تحقيقا أو تحليلا أو تعليقا اعلاميا عاما ... الخ » (٣) .

— « جميع هذه الأعمال وغيرها ، وغيرها تولد أولا كبذرة ، كفكرة فى نفوس وصدور وعقول أصحابها ثم تتحول الى عمل يقرأ أو يسمع أو يشاهد » (٤) .

— « الحصول على الأفكار هو مسألة تعود الى الاعلامى نفسه بالدرجة الأولى » (٥) .

— « انها هذه الفكرة التى يمكن أن يتصيدها المحرر او رئيس القسم أو رئيس التحرير الموهوب اللماح من بين ما يصله ومن حصيلة ما يتجمع لديه كل يوم من اكداس الاخبار والموضوعات » (٦) ..

.. نقول أن الرجل ، بموهبته المنقطعة النظير ، بكل ما توافر له من خصائص الحاستين الأدبية والصحفية معا ، وبكل ما توافر له أيضا من عين بصيرة نافذة ، ونظرة لماحة وانخراط فى صفوف الطبقات المختلفة ، علية القوم ، وأواسطهم وعامة الناس ، وحتى « زعر الحارات الجوانية » كما كان يقول مؤرخنا « الجبرتى » . .وقبل ذلك كله ، باستقراء ما يصلح من الصور والمشاهد لكى يتوقف عنده ، ويقول : وجدتها ، وجدتها ثم يسرع بالقبض عليها حتى لا تطير أو تنوى ، أو تتبخر أو تكون كعرائس الأحلام بكل ذلك ، وبأكثر من كل ذلك ، نستطيع أن نقول أن حاسة الرجل الأدبية والصحفية معا كانت موجودة ، بكل ما فى الوجود من معنى الحيوية والتدفق والانطلاق ، وأنها أسفرت عن العديد ، عشرات ومئات من الأفكار الجديدة ، أو الغريبة على مجتمعه أو التى لم يتوقف عندها غيره ، أو لم يفلح فى تصيدها سواه ،

وكانت لذلك عدة اماراث ودلالات من الفكر الجاحظى نفسه ، ومن خـــلال السطور الجاحظية ذاتها ٠٠

لكن هذه الأقوال لا تكفى وحدها ، وانما لنبحث معا عن الدليل ، وما يشير الى صحة ذلك ، خلال هذا التراث الأدبى الصحفى معا ٠٠

لقد اختلط الجاحظ بجميع الفئات الموجـــودة فى عصره ، وزار اكثر الأماكن والمواقع أهمية ، وقرأ أكثر الكتب المعروفة فى زمنه ، أدبية وعلمية ، عربية ومترجمة ٠٠ وسمع وأخـــذ عن أكثر الرواة ، وارتحل طلبا للبحث والمعرفة والسماع وقد أسفر ذلك كله عن عدد كبير جدا من الأفكار الجديدة ، الأدبية والصحفية معا أو تلك التى يستطيع الأديب أن يعتبرها أدبا ، ويمكن أن نعتبرها صحافة ، أو ذات صلة كبيرة بالصحافة ، والفنون الصحفية ٠٠ وكان من بين هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر ومما لم يعرف تقريبا قبل تناوله له ، ولم يلتفت اليه كثرة من كتاب عصره :

١ ـ فكرته بافراد كتاب خاص غير مسبوق على المستويين العربى وغير العربى ، يتناول كله ، من الغلافة الى الغلافة « البخلاء » وصورهم وأبرزهم ، وأعجب حكاياتهم ونوادرهم وطرائفهم ، بحيث يمكن أن يمثل هـــذا الكتاب سلسلة موضوعات اخبارية كثيرة جدا عن هؤلاء القوم ، بل يرتفع بعضها الى مستوى التقارير والتحقيقات المركزة ، فاذا كان ينقصها عنصر : « الصورة الصحفية » فيكفى أنه صورها بقلمه أبدع تصوير ، وقدم لها الصور القلمية المختلفة ، التى لا تقل عن الصور الملتقطة بالكاميرا ، فى بعض الأحيان٠

٢ ـ وبالمثل ، كانت هناك بعض الأفكار الجديدة تماما على « جمهور » هذه الفترات ، من قراء وكاتبين معا ، وهى هنا اقـــرب ما تكون الى افكار التقارير والتحقيقات والدراسات الصحفية رفيعة المستوى ، من تلك التى يمكن أن تنشرها المجلات اليوم ، وكذا الصحافة الأسبوعية ، مع اختلاف فى الأسماء والمواقع والظروف وطرق ووسائل النشر ، وكان من بين هذه على سبيل المثال لا الحصر الأفكار الآتية كلها ، والتى تناولتها كتابات الرجل :

« حيل اللصوص ـ حيل لصوص الليل ـ حيل لصوص النهار ـ الغش والغشاشون ـ زنوج البصرة وعاداتهم وتقاليدهم ـ نخيل البصرة ـ أساطير

الصيادين ورجال البحر - الجواهر والأحجار الكريمة وما يتصل بالعاملين بتصنيعها والتجارة فيها - حياة البدو وحياة الحضر - عادات الأمم والشعوب التي دخلت الاسلام - نوادر القصور وحكاياتها الغريبة - أصحاب الالهام - الجوارى وأصولهن ومراتبهن وعاداتهن - العبيد - الأحلام والرؤى - الجن والعفاريت واتصالهم ببعض البشر - سرقات الكتاب والشعراء - الحب عند العرب وغيرهم - قصص وأخبار الملوك السابقين - الهدايا وقصصها وتاريخها وأنواعها - النرد والشطرنج » ..

ويضيق بنا المقام ، لو حاولنا عمل احصاء لأمثال هذه الأفكار الجديدة فى معظمها ، الأدبية والصحفية معاً .

٣ - وحتى بالنسبة لكتابه : « الحيوان » فصحيح أن كثيرين من عرب وأجانب ، قد سبقوه الى ذلك ، ويمثل هذه الشمولية نفسها ، وقد قرأ هو وأخذ عن « أبى عبيدة » صاحب المؤلفات فى الحيوان والطير ، وكذا عن « الأصمعى» الذى تناول بعض هذه الموضوعات وغيرها ، كما قرأ ما كتبه « أرسطو » عن الحيوان أيضا .. قرأ الجاحظ هذه كلها ، وافاد منها لكنه كان كالمحـــرر الصحفى الماهر ، الذى يدلف الى مركز معلومات الصحيفة ليرى هل تناول أحد قبله فكرته ؟ وكيف تناولها ، حتى يختلف عنهم ، وهو فى ذلك يجد عند موهبته ما يعينه على الاختلاف .. ومن هنا ، وعلى الرغم من سبق هؤلاء وغيرهم بالتأليف أو الكتابة فى موضوعات الحيوان الا أن رجلنا :

— قام بتصيد أفكار جديدة لموضوعات عن الحيوان لم تعرفها كتب هؤلاء .

— تعمق الأفكار القديمة المطروقة ، وتناولها من زاوية جديدة .

— وأحيانا من اكثر من زاوية جديدة .

— قام بـ « توليد » عدد من الأفكار الأخرى ، البعيـــدة تماما عن أفكار غيره فى نفس المجال والتخصص .

— قام بعمل جسر اتصال بين هذه الأفكار وما يجذب جماهير اكثر من القراء .

— وضعها فى اطار جديد ، وتناولها بأسلوب جديد ..

وهكذا وجدنا فى النهاية ، أن كتابات السابقين عليـــه وكـذا كتابات معاصريه فى موضوع الحيوان ، تقترب اكثر من كتابات العلماء ، ويكون لها مثل خصائصها ، بينما نجد أن كتاباته تقتـــــرب أكثر من كتابات « المحرر المتخصص » فى موضوع علم الحيوان ، عندما يكتب لصحيفة أو لمجلة عامة ، أو ذات اتجاه خاص ، وليست متخصصة تماما ، كان غيره يقترب من اللون العلمى ، قدر اقتراب الجاحظ من اللون الصحفى ٠

٤ ـ وأما عن التناول العكسى للافكار والموضوعات القائمة ، وما يتصل بجوانب المناظرات وهى ذات صلة نسب وثيقة بأبرز أنواع المقالات النقدية والنزالية فقد استغرقت جانبا هاما من كتابات الرجل ، ودلت على تمتعه والى درجة قل أن تتوافر عند كثير من الكتاب بهذه الزاوية من زوايا الحس الصحفى المقالى ، بل ان تناول الرجل لهذه الموضـــوعات كان مشربا بطابعه الخاص الفريد أحيانا ، لاسيما وهو هو الذى يكتب عن الشىء ، ثم يعود فيكتب عن ضده ، باسهاب وفهم كبيرين يدلان على ثقافته وشموليته وقوة حجته ، بل كثيرا ما كان يجمع بين الضدين ويؤيد ويعارض هذه من زاوية ، وتلك من زاوية أخرى ، فى نفس حدود واطار المقال الواحد أيضا ٠

ولن يجهدنا البحث عن هذا الجانب الهام من جوانب « الحس الصحفى المقالى النقدى » عنده ، فهو منتشر فى كتابات كثيرة ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها : « مفاخرة السودانوالحمران ـ الرجال والنساء ـ الذكور والأناث ـ الجن والانس ـ الملائكة والجن ـ الـــرد على الجهمية ـ المحاسن والأضداد ـ فى تفضيل النطق على الصـــمت ـ فى الحاســـد والمحسود ـ سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف ـ العثمانية ـ فخـر السودان على البيضان ٠٠٠ الخ » كمـا انتشرت فى بخلائه ، وغيرها من الكتب ٠

٥ ـ وأما عن « تصيد » الفكرة الخـــارجية ، أو الأجنبية المترجمة أو المنقولة والتصرف الايجابى معها ، بما يعكس جانبا آخر من جوانب هــذه الحاسة الصحفية نفسها فقد ظهرت واضحة عند الرجل فى مواقف كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمته فى نقل بعض أفكار الفلاسفة اليونان ، لا سيما هؤلاء الذين عرفوا باسم : السوفسطائيين » ولا يعنى تلك

أنه كان مترجما لها ، وانما « مذيعا » لمثيلات هذا الأفكار « ناشرا » لها فى كتاباته الجدلية وتلك التحليلية والنزالية ، وقد لاحظ كثير من المتابعين ذلك ، لكنهم - كالعادة - تناولوا مظاهرها على أنها لغوية أدبية فقط ، وكان من بينهم على سبيل المثال « طه الحاجرى » الذى « لاحظ آثار السفسطة فى أسلوب الجاحظ البيانى » (٧) ·· لكننا نراها أدبية لغوية صحفية مقالية معـا ، تماما كما هى « فلسفية » الطابع ، كما نشير من بينها أيضا الى نقل بعض الأفكار الأخـــرى عن أرسطو ، وغيره ، حتى فى كتابه « الحيوان » نقل عن بعض هـــؤلاء ··

لكن الملاحظ هنا - وهو ما يقترب بنا من معالم حاسته الصحفية أيضا - أنه لم يكن ينقل الفكرة المترجمة ، ويذيعها فقط ، وانما ، وعلى عادة كبـــار الكاتبين والمحررين المبتكرين :

— يتخذ منها ركيزة الى أفكار عربية مماثلة (ما هنا ، وما هناك)
— يتعمقها ويخرج منها بأكثر من فكرة جـــديدة مختلفة (توالد الأفكار)
— ينظر فى عكس هذه الفكرة (الشىء وضده)
— يتناولها تناولا شموليا غير مسبوق ، يسبر غورها ويقتلها بحثا، الى غير ذلك كله ، فهو ناقل ماهر ، ومنشىء مبتكر ، ومفكر مبدع ·· وكل ذلك ظهرت آثاره واضحة جلية على مقالاته ··

قبل أن نترك هذا الجانب الابداعى الأدبى والصحفى معا ، أو « الأدبى الصحفى » أيضا ، جانب الأفكار المبدعة الجديدة أو المجددة ، التى لم يطرقها قبله كثيرون لغرابتها أو لعدم قدرتهم على تصيدها ، أو استشعارهم لجوانب أهميتها ·· نقوم بالتوقف عند عدد من الأقوال التى تشير الى ذلك ، ولو كانت من وجهة النظر الأدبية فقط ، بعد أن وضحت معالم ما ندعو اليه من قيـــام الجاحظ ، الأديب والصحفى معا ·

● أن باحثا كبيرا واستاذا للادب يقول : « وهو أول من شف لـه الحجاب فرأى فى مخالفات العامة وعاداتهم وفى تقاليدهم ومعاملاتهم وفى أحاديثهم وأسمارهم فنا يستروح الخاصة به ويرى العلية فيه جماما من كدهم فى جدهم » (٨) ··

● ويضيف قائلا : « وهو أول من وضع الكتب والرسائل فى المعانى والأغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب كقوله فى طبائع البخلاء وفى حيل اللصوص وفى أحوال المكدين وفى أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعور والعرجان والبرصان وكذلك ذوى العاهات الخلقية كالسكيرين والزناة والطفيليين والقحاب وفتيان السوء » (٩) ٠

● ويقول دارس آخر : « يتوخى التصنيف فى الموضوعات الشهية اللذيذة أو التى لم يسبق اليها كاتب ، أو الأمور الحقيرة التى لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام » (١٠) ٠

(٢) حول الاخبار الجاحظية

اقتربنا خلال صفحات سابقة ، من موضوع الأخبار الجاحظية من زاويتين (١١) أولاهما زاوية نوعية مصادره العامة ـ وليست الاخبارية وحدها ـ وثانيتهما زاوية بعض جوانب الحس الاخبارى عند الرجل ٠٠ ونضيف هنا بعضا مما يتصل بهذه الأخبار الجاحظية ككل ، وبعدد من الزوايا ذات الصلة الوثيقة بها على وجه الخصوص ، من تلك التى توقفنا عند عدد من جوانبها الأخرى ، أو لم نتوقف حتى الآن ٠

(أ) الأخبار الجاحظية وعنصر الدقة :

فى كلمات قليلة جدا ألمحنا فى مجال سابق ، دون أن نقدم الدليل الذى أرجأنا تقديمه حتى هذه السطور ، الى اهتمام الرجل فى مجالات بحثه وجمعه لمادته عامة ، ومن بينها المادة الاخبارية ٠٠ اهتمامه بجانبى « صحة المصدر » ٠٠٠ و « ثبته » ٠٠ ونفسر هنا ذلك الكلام فنقول :

●● عن صحة مصادره الاخبارية ودقتها :

يستطيع القارىء ـ وليس الباحث وحده ـ أن يتبين بما لا يدع مجالا للشك حرص « الجاحظ » الكبير على صدق أخباره ودقتها وموضوعيتها ويتجلى ذلك من استقراء هذه المادة الاخبارية الواردة فى كتبه المختلفة ، وفى كتاباته

التى تناولت هذا الموضوع تماما كما يدرك ذلك الباحث عند محاولته النفـاذ الى شخصية الرجل ، ومتابعة طريقته أو طرقه فى جمع المادة ٠٠

— فهو عندما يروى خبرا ، فانما يعود به الى مصدره الحقيقى الذى سمع عنه أو أخذ أو نقل ٠٠

— بل انه أحيانا يرجع المادة الاخبارية الواحدة الى أكثر من مصدر واحد ، ولو على سبيل التأكيد ، وكأنه يطلع القارىء على ذلك ، ويلفت نظره اليـه ٠٠

— ويتضاعف ذلك ، عندما يحس الرجل أن ما يرويه من الأمور التى قد لا يصدقها البعض بسهولة ، أو فى بساطة ، ومن ثم يجد أن عليه واجبـا أساسيا ، وهو أشعار القراء ، بأن هذه المادة مصدرها كذا وكيت ٠٠

— فاذا أحس الرجل أن هذه المادة الاخبارية غير دقيقة ، أو تنقصها الحيدة أو الموضوعية نبه الى ذلك وحذر منه ٠٠

— فاذا أحس أنها مادة غير صادقة ، وأن الكذب يلفها ، وأن صاحبها يريد خداع القارىء أو المستمع ، نبه الى ذلك أيضا ، وذكر ما يحمل عـلى شك القراء به ، وكأنه بذلك يريح ضميره من هذا الجانب ٠٠

— وأكثر من ذلك ، أنه كان فى روايته الاخبارية ، لا يكتفى بذكر الخبر المجرد دائما ، وانما كان وفى كثير من الأحوال يقدم قصة حصوله على هذه المادة ، وكيف بدأت أحداثها ، الى جانب صناعها ، ومصادرها البشرية ، مع معلومات قليلة جدا لكنها مفيدة أيضا عنهم ٠٠

— بل انه كثيرا ما يضع الأخبار المتتالية نفسها ومع تتابعها خـلال النص نفسه ، فى مجال المقارنة من زاوية الصحة أو الصدق ودرجـاتهما ، فينبه بذلك الى أن خبرا أكثر صدقا من خبر يسبقه ، وهذا بدوره أكثر صحة أو أقل من خبر يليه ، بل ان هذه المقارنة نفسها قد تمتد وتتصل لتكون بين المصادر المختلفة من بشرية أو مخطوطة ، فيقول أن ذلك المصدر أكثر صدقا من ذلك ، وهكذا ٠٠

— كذلك فان الرجل لم يكن يهتم كغيره من الاخباريين والروائيين في عهده ، أو ممن سبق هذا العهد ، بجلنب الشكل ، وجمال الأسلوب ، وأناقة العبارة قبل غيرها ، وانما كانت تسبق ذلك عناية بالمادة الاخبارية نفســـها والمضمون الاخباري ذاته ، ثم وضعه بعد ذلك في أبسط القوالب اللغوية ، وأكثرها سهولة في التعبير والايضاح ··

— بل انه ليدهشنا حقا ، ويأخذ بلبنا أن يقوم الرجل وأكثر من مرة بحملة كبيرة على الرواة الذين يقومون بتلوين الأخبار ، أو باصطناعها ، أو بعض الفئات — كالبحريين مثلا — الذين يجيدون «فبركتها» ومزجها بالأسطورة، مما يذكرنا بتلك الأخبار البحرية التي كان يتدوالها بحارة الساحل الفينيقي ، وجاءت عندهم ممتزجة بالأساطير البحرية الشهيرة ·· حمل الجاحظ عـلى هؤلاء حملة شعواء ودعا الى الشك الكامل في مادتهم ، والتأكد التام من صحتها قبل نقلها عنهم ··

●● من كلماته تأخــذ :

ونكتفي بهذا القدر من الاشارة الى جوانب عنايته بدقة اخباره ، ولفته أنظار القراء الى مستوياتها من الصحة ·· ونقدم عددا من الأمثلة على ذلك من كتابه « الحيوان » بأجزائه المختلفة ··

● فهو يبدأ بعض مادته الاخبارية مما لا يريد أن يتحمل مســـئولية صحتها بقوله :

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدساس تلد » : الحيوان جـ ٦ ص ٣٣

● أو تراه يقول أيضا : « والشائع أن ···· » ولا يقول : والصحيح أن لأنه يدرك الفارق بين التعبيرين ، ويريد أن ينبه القراء الى ذلك ··

● وفي مجال المقارنة التي أشرنا اليها يقول الرجل : « وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدلفين — وليس الخبر عن الكركدن أيضا مثل الخبر عن » الحيوان جـ ٧ ص ١٢٨ ··

● كذلك ، وكدليل آخر على أنه لم يكن يأخذ كلام مصادره الاخبارية

على عواهنه أو يسلم بجميع ما يقوله المصدر مهما كان نصيبه من الصحة أو التصديق ، فاننا نقرأ له من أمثال قوله :

— فهو عندما يكتشف بعض الخطأ في الرواية يعلق قائلا : « فكيف أسكن بعد هذا الى أخبار البحريين ؟ » الحيوان

— وهو عندما يستمع الى خبر مشكوك فى صحته يكتب قائلا : « قلت وما على ان سألته ؟ فانه يقال أن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملحة » : الحيوان جـ ٣ ص ٢٢ ..

— ويقول فى موضع آخر : « وزعم لى بختشيوع بن جبريل انه عاين الخرق الذى في ابرة العقرب وان كان صادقا كما قال فما فى الأرض أحـــد أبصر منه وانه لبعيد وما هو بمستنكر » : الحيوان جـ ٥ ص ٣٥٧ ..

— ويقول فى موضع ثالث : « وقد زعم البحريون أنهم يعرفون طائرا لم يسقط قط ... الخ » : الحيوان جـ ٣ ص ٢٣٤ ..

● بل ان الرجل نفسه قد كتب كثيرا عن هذه المجالات ، مؤكدا ، أو منبها أو محذرا ، خاصة فى مقدمات كتاباته ، أو فواتحها ، اقرأ له عـلى سبيل المثال لا الحصر قوله :

— « وأما قرن الكركدن فقد خبرنى من رآه ممن اثق بعقله وأســـكن الى خبره » الحيوان جـ ٧ ص ١٢٩ .

— « .. عن ثقات لا أشك فى خبرهم .. » الحيوان جـ ٣ ص ٢٣٦

— « .. ولم أكتب هذا لتقربه — وهكذا يقول — ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبنى الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبنى الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل » : الحيوان جـ ٦ ص ٣٤

(ب) بعض أساليب تثبته لمصادره واسناد مادته الخبرية :

كذلك فقد حفلت مؤلفاته ورسائله ومقالاته عامة ، ومادته الاخبـــارية

خاصة ، بكثير من الأساليب التى يثبت بها مصدره ، ويشير بها الى أن هـذا الخبر سمعه عن فلان ، أو قرأه لفلان ، أو وصل اليه من فلان ، وما الى ذلك كله وصحيح أن هذه قد تكون من نوع الوسائل «البدائية» من وجهة نظر صحفيى اليوم ، لكن المدقق فيها ، والمتمعن فى جوانبها وأنواعها يجد أنها لا تختلف كثيرا عما يفعله المندوبون الآن فى الصحف ووكالات الأنباء والاذاعات، من طرق وأساليب ذكر المصدر ، وعموما ، فقد وضعنا أيدينا على عدد كبير من هذه الأساليب ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر :

— « ونبئا بالأخبار عن ... »
— « نبدأ بتمام القول فى .. »
— خبرنى ... »
— « خبرنى .. وخبرنى .. وخبرنى »
— « وروى لى ... »
— » وروى بعضهم لى ... »
— « وسمعت حديثا من شيوخ ملاحى الموصل ... »
— « ... ورأيت الحديث يدور بينهم »
— « قال الشيخ الاباضى ... »
— « وكان عندنا .. فقلت له يوما .. فقال »
— « وقال لى ... »
— « وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار ... »
— « وحدثنى شمشون الطبيب قال : »
— « ودخلت على فلان فسمعته يقول : »
— « وذكر .. عن .. قال .. »
— « وقال قائل من بنى ... »
— « من الاحتجاجات الطبية ، ومن العلل الملهية ما حدثنى به ابن المدينى قال : »
— « وسئل .. أجاب »
— « وسئل .. قال »
— « .. وقد علمنا أنه »
— « .. وقد علمنا »
— وفلان قال .. وفلان قال .. وفلان قال »

ــ « ٠٠٠ أن ٠٠٠ وأن ٠٠٠ وأن »

ــ « قال أصحابنا »

ــ « نبدأ بأهل خراسان لاكثار الناس فى أهل خراسان ٠٠ »

ــ « ورأيت أنا ٠٠٠ »

ــ هذه ملتقطات من أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا »

(٠٠٠ الأحاديث هنا بمعنى الأخبار ، ومفردها أحدوثة)

ــ « وخبرنا جار له ٠٠ »

ــ « والأعراب تقول ٠٠ »

ــ « والعامة تزعم »

الى غير هذه كلها ٠٠

(٣) ٠٠٠ وشــواهد أخرى

٠٠ ونواصل هنا هذه المحاولات لاثبات أن لنا ــ نحن رجال الصحافة ــ فى هذا الرجل بعض ما لرجل الأدب فيه ، وربما ــ من خلال عدد من كتاباته ــ قدر ما لهم فيه أيضا ، ونقدم هنا أكثر من دليل جديد ، على هذا الجـــانب الصحفى فى حياة الرجل ، وفى آثاره ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر:

● أنه فى عدد من هذه الكتابات لا سيما تلك التى تميزت بجـــانب الأخبار وما وراء الأخبار ، كان يجتهد وراء المصدر البشرى أو المصادر البشرية ويسعى من ورائها سعيا حثيثا ٠٠ ذلك كله بينما كان يتجه فى مقالاته الى المصدر أو المصادر المكتوبة ، من كتب لعرب ، او مترجمة ، ويمكن للقارىء العادى أن يلمس ذلك ، وهو الأقرب الى الطابع الصحفى ــ طابع البحث الميدانى عن المصادر والنقل عنها ــ من خلال كتب عديدة ، لا سيما تلك التى امتلأت بالمادة الاخبارية من أخبار بحتة ، الى مواد قريبة الشبه بالموضوعات والقصص والتقارير الاخبارية نفسها ، وقد وضح ذلك من رسائله العديدة التى أشرنا اليها ، ومن كتبه العديدة أيضا ٠٠

واذا كنا قد أشرنا من قبل الى انه وصف البخـــلاء كما رآهم أو سمع من مصادره البشرية عنهم (١٢) ٠٠ فاننا نضيف هنا من اشارته الخاصة الى

مصادره التي جمع من أفواهها بعض جوانب الأهمية الاخبارية فى كتابه أو فى « سفره » الآخر : الحيوان ٠٠ حيث كان يسعى وراء هؤلاء الذين جرت لهم الحوادث مع موضوع كتابه : « ٠٠ وربما بل كثيراً ما يبتلون بالناب والمخلب واللدغ واللسع والعض والأكل فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء » (١٣) :

● ان ذلك ـ فى واقع الأمر ليذكرنا بأكثر من شىء لعل من أهمها وكما يحدث عند الصحفيين والباحثين المتميزين ، قبل أن يحدث فى مجال الأدب ، فى عهده ـ على الأقل ـ ٠٠ ومن بينها على سبيل المثال :

ـــ أن سعيه وراء مصادره كان يتجاوز المكان الذى يقيم فيه

ـــ أنه لم يكن يقتنع بأى مصدر كان ، واذا كان قد هاجم البحريين والمترجمين فانه هنا يرسم صورة طيبة لما ينبغى أن يكون عليه المصدر البشرى ذلك الذى يكون عنده :

٠٠ قد ابتلى بالناب والمخلب واللدغ ٠٠ الخ أى « صاحب تجربة »
٠٠ فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجانى ٠٠ الخ أى «متابع ودارس»
٠٠ لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ٠٠ الخ أى « صاحب خبرة شخصية مكتسبة وموروثة ايضا ٠٠

فاذا اضفنا الى ذلك اشتراطه عنصر الصدق ومهاجمته للبحريين وبعض أصحاب الأخبار لتغاضيهم عن ذلك، وسريان الأسطورة والأمور المؤلفة وشيوع « الفبركة » عندهم ، واذا اضفنا هجومه على بعض المترجمين ممن لا يراعون الدقة لوضحت عندنا بعض معالم اختياره لمصادره البشرية ، والشروط التى ينبغى أن تتوافر فى هذا المصدر أو ذاك ٠

● اننا نضيف هنا ـ على سبيل المثال ايضا ـ بعض هذه المصادر البشرية التى اخذ عنها ، مع تنويهه بمستوى كل منها ، وأين يقف من الزعم والتصديق ، وما هو منزلة كلامه ، ان من بينهم :

« كبار زنوج البصرة ـ رأس الأنباط بها ـ شيوخ الملاحين ـ أبو عبيدة

معمر بن المثنى ـ أصحاب اللهو ـ محمد بن الأشعث ـ ثمامة ـ محمد بن أيوب جعفر ـ شمشون الطبيب ـ ابن الجهجاه ـ الشيخ الاباضى ـ داود بن المعتمر ـ هشام بن حسان ـ بختشيوع ـ أبو هفان ـ أبو الحسن المدائنى ··· الخ وغيرهم كثير ··

بل انه عدد ذات مرة مصادره ، فبعد ذكر القرآن الكريم والحديث الشريف والمأثورات والأشعار والأمثلة قال : « ·· أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب، ومن قد أكثر قراءة الكتب أو بعض من مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستدرى بالهضاب ودخل فى الغياض ومشى فى بطون الأودية » (١٤) ·· يريد من ذلك شهود العيان والتجربة والمتخصصين ، وماذا يفعل المحررون ، غير السعي وراء أمثال هؤلاء من المصادر البشرية ·

● ·· واذا كنا قد اعتبرنا فى مجالات سابقة ، ان بعض كتابات قدماء المصريين والأشوريين والفينيقيين وغيرهم هى بمثابة لون من ألوان الجذور الصحفية ، واذا كانوا يقولون أنه لو عرفت الشعوب القديمة الصحافة بمعناها الحالى لتضاعفت معرفتنا بهم وبحضاراتهم المختلفة ·· وما يمكن أن يستتبع ذلك ، من اعتبار بعض الكتابات الصحفية الحالية ، بمثابة تاريخ لهذه الأيام ، يعود اليها باحث وقارىء وطالب ومؤرخ الغد ، بشرط الأناة والدقة والمقارنة والحذر ، واذا كان « هـ · ج ويلز » صاحب المؤلفات الأدبية والتاريخية الهامة قد صرح قائلا ، بأنه ليس أكثر من صحفى ومرة أخرى بأنه ليس أكثر من صحفى يعشق التاريخ ·· اذا كان ذلك كله قد حدث مما يؤكد الصلة الكبيرة بين الصحافة والتاريخ ، وأن بعض كتاباتها ـ ولا أقول كلها ـ تصلح لأن تكون تاريخا ·· تماما كما أنه : « برغم التحفظات التى تحيط بالصحف كمصدر للتاريخ ، وهى تحفظات تتعلق بالشائبات فى الرواية تبقى حقيقة لا خلاف عليها، وهى أن الصحف تقدم لنا نظرة شاملة للحياة وهذه النظرة ضرورية للمؤرخ حتى لكأنه عاش العصر الذى يكتب عنه من خلال قراءاته لصحفه ، وهذه النظرة الشاملة ، برغم كل ما فيها وما عليها تجعل الصحف مصدرا من مصادر التاريخ » (١٥) ·

أريد أن أقول من خلال هذه المقدمة الطويلة ، أنه وكما يحدث عندما يجيد بعض الكاتبين تصوير عصرهم بكل ما فيه ، بجوانب الايجاب والسلب ، حتى

لتصبح كتاباتهم تاريخا له ، هذا الجانب التاريخي الصحفي ، أو التاريخي الذى توافر لبعض الزملاء من الصحفيين حتى اعتبر من خصائص نشاطهم التحريرى ، نجده قد توافر أيضا وتماما عند الجاحظ ، وربما بشكل يصعب أن تجد له مثيلا عند أحد ممن سبقه من كتاب العربية ، ولم يتكرر الا قليلا ، بعد الجاحظ بالنسبة لعصره وصوره ومشاهده وأحداثه وأبطاله ومغامريه وساسته وعلمائه ومؤلفيه ووزرائه وغيرهم ، وغيرهم ٠

بل ان هذا الذى فعله الرجل يجعله الي الصحفى المؤرخ ، أقرب منه الى المؤرخ الصحفى ، ذلك لأنه اذا كانت أغلب كتابات الصحفيين الذين قلنا أنها ترتفع الي مستوى التاريخ ، أو تقترب منه حتى لتصبح تاريخا كاملا يعود الناس اليه بعد حين قل أم كثر ، اذا كانت أكثرها تتجه الى الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية فى معظم الاحوال - هـ ٠ ج ويلز - مثلا ، فان كتابات الرجل - الجاحظ هنا - لم تكتف بذلك ، ولم تقتصر على هذه الجوانب وحدها ، وانما - وهذا معنى قولنا أنها أقرب الى الصحافة التأريخية - كان لتعددها الكبير ، وتنوعها الذى يجل عن الحصر ، ووصولها الى سطح المجتمع العباسى ، والى قاعه معا ، ونقلها لجميع الصور من أول صور القصور الشامخة وما يدور داخلها ، والى الحارات الضيقة والقذرة ، من مجتمعات الخلفاء والأمراء والوزراء حتى مجتمعات اللصوص وحلبات الجولة والمشعوذين ٠٠ أى أنه بالنسبة لهذا الجانب الصحفى التأريخى نجد لهفيه باعا طويلا ، وقدما راسخا ٠

● ٠٠٠ **هل كان الجاحظ عالما ؟ بالمعنى الذى تتجه اليه هذه الكلمة اليوم ؟ وفى اسلوب آخر : هل ما كتبه الجاحظ عن الحيوان مثلا ، يجعله عالما فى هذا التخصص مثل هؤلاء العلماء الذين نراهم فى كليات العلوم وفى تخصصات علم الحيوان أو الحشرات أو غيرهما ؟**

صحيح أن الرجل كان باحثا من الطراز الأول ، ولكن هل كل باحث عالم؟ وهل كل من يبحث ، يكون للفائدة العلمية المقننة ، أو المنظمة والمرتبطة بطلاب العلم أو بباحثيه ؟

وصحيح أن الرجل قد يكون أكثر ثقافة فى ميدان « علم الحيوان » من بعض علمائه الحاليين ، ولكن هل تكفى هذه الثقافة ليكون صاحبها عالما بالمفهوم

الحالى للكلمة ، أم أن هناك أطر وأساليب ونظريات وتجارب معملية ومادة تصل للمتخصصين أو ينبغى أن تتخذ مسارها اليهم ؟

وصحيح أيضا أن كتاب الحيوان قد يشق جمع مثله ـ ولا أقول تأليف مثله ـ على عدد كبير من الباحثين فى هذا الميدان ، فهل يعنى ذلك أنه عـالم العلماء ، فى هذا الميدان ؟ ٠٠ الحق أننى بعـد تفكير ملى ، فى مثل هـذه التساؤلات وغيرها ، وباستقراء مواد كتبه ، وطرق الحصول على ما جاء بها ، وتوجهاتها وأساليب كتابتها ومواطن العناية الأولى بها ، وما يتصل بذلك كله، وقد انتهيت الى رأى يقول ان الرجل لم يكن عالما بالحيوان، ولا كان فى ذهنه أن يكون كذلك ، وانما كان يقرأ ويبحث ويتثقف وينقل للجميع ما قرأ وما جمع ويطلعهم عليه ، ويغلف ذلك كله بما يحبب القراء الى مادته ، ويضمنها للغريب. والعجيب ، فهو جامع نعم ، باحث أيضا لكنه ليس عالما ٠٠ وان قال كثيرون بذلك وذكرناه أيضا بشكل عمـومى ٠٠ وانما هو هنا أقرب الرجـال الى « المحرر العلمى » فى مجال علم الحيوان وكذا المحرر صاحب الاهتمـام العلمى ، وليس المحرر المتخصص ، اى أنه ليس متخرجا فى كلية العلوم ، ولا يحمل درجات عالية فى هذا التخصص ، ولا يكتب أيضا كتبا علمية كاملة ودقيقة ، ولا يحرر أيضا لمجلات علمية متخصصة تماما ، وذات تخصص دقيق تماما ، وانما هو محرر مهتم بتحرير الجانب العلمى فى :

١ ـ مجلات تخصص عام

٢ ـ مجـلات عامة ٠٠

أى أن كتاباته وتوجهاته هى لعامة القراء ، وان كانت ذات موضوع غالب هنا هو : « الحيوان » ٠٠ وهى فى ذلك أشبه أيضا ببرامج « عالم الحيوان » فى الاذاعة والتليفزيون بل من الذى يستطيع أن يقول انها ذات موضوع واحد، وكتاب الحيوان نفسه ـ ان غلب عليه هذا الطابع ـ الا أن به الكثير من جوانب الأدب واللغة والتاريخ وغيرها ٠٠ ؟

وبالمثل ، هذه الكتب الأخرى المماثلة ، من لدن « البخلاء » و « البيـان والتبيين » وغيرهما ٠٠ لكنها « العبقرية الجاحظية » المتعددة الجوانب ومجالات الاهتمام ٠٠

وهكذا نجد أنفسنا أمام جانب صحفي جاحظي آخر ، هو جانب الجاحظ المحرر العلمى » ‥ محرر الاختصاص العام فى مجالات عديدة ، أبرزها الحيـوان ‥

● وقد يؤكد ذلك ـ أولا ـ ما قلناه من أن هذا الكتاب كان من الممكن قسمته ، على أكثر من عدد واحد من مجلة ذات تخصص عام فى مجـــال الحيوانات ، مثل هذه المجلات العديدة التى نراها مهتمة بنفس الموضـــوعات، وتطرح للبيع على قارعة الطريق ، وفى الأكشاك ، وليس للمتخصصين وحدهم.

● وقد يؤكد ذلك ـ ثانيا ـ عدد من الأقوال المتصلة بهذا الكتاب نفسه عن قرب تماما كاتصالها بصاحبه الصحفى المحرر العلمى المتخصص ، الأديب معا ، وسبحان الله الذى يجمع كل هؤلاء فى رجل واحد ، لكنه الرجل الصحفى، أو ـ كما كانوا يقولون عن الصحفى ـ الرجل المكون من عدة رجال ‥ إن هذه الأقوال من مثل :

ـ ما يقوله الرجل نفسه فى مقدمة كتابه من طابعه فى كتابته ، بما ينفى أنه قصد أن يكون عن الحيوان فقط أو للخاصة وحدهم :

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم » أى أنه لجميع الناس ، ومن جميع الأجناس أيضا ‥

« فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجـــربة وأشرك من علم الكتاب والسنة ‥ ويشتهيه الفتيـــان كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجد ذو الحزم ويشهيه الأريب ويشتهيه الغبى كما يشتهيه الفطن » (١٦) ‥

أى أنه أيضا كتاب لعامة الناس ، فضلا عن تنوع مادته ‥ ومن هنا كان قولنا باقترابه من مجلات التخصص العام ‥

ـ بل ‥ وأكثر من ذلك كله ، ومما يؤكد هذا المعنى الأخير نفسه ، معنى اقترابه من اعداد لمجلات تخصص عام فى علم الحيوان ، ومن العجيب أيضا ، أن يكون الرجل نفسه ـ الجاحظ ـ قد قام بتقسيم كتابه هذا الى أجزاء

أطلق عليها اسم « المصاحف » ٠٠ من الصحف هنا ، وهى ليست بمعنى المصحف الشريف كتاب الله ، وانما مجموعة الصحف أو الصفحات ٠٠ اقرأ فى ذلك قوله :

« كان العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ٠٠ ويضيف محقق الكتاب قائلا :

« كان يسمى كل جـــزء من اجـــزاء الحيوان مصحفا ، وفى النسـخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوبا فى نهاية كل جزء : تم المصحف ٠٠ من كتاب الحيوان ، ويليه المصحف ٠٠ » (١٧)

● وقبل أن ننتقل الى مناقشة مسألة أخرى ، من تلك المسائل التى نقيم بها هذا الرأى فى كتابات الجاحظ ، نقوم بالقاء نظرة طائر سريعة أخـرى ، على عدد من مجالات نشاطه وكتاباته وشخصيته ـ معا ـ نرى فيها ، من منطلق صحفى ، اقترابا من هذا الجانب الذى ندعو الى ملاحظته وتبيانه ، بل ودراسته أيضا ، جانب الجاحظ الصحفى والأديب معا ٠٠ اننا نجد أن الرجل :

ـــ كان من أوائل الذين استخدموا « وراقا » خاصا يكتب ما يمليـه عليه ، ويقوم بنسخ عدة صـــــور مما يكتب ، مما يذكرنا بهؤلاء العبيد من الناسخين الذين كان يستخدمهم « باعة الأخبار » فى الموانىء الأوربية عامة والايطالية خاصة ، ثم استخدمهم أصحاب الصحف المخطوطة ، واذا كان محقق كتاب ـ أ٠ عبد السلام هارون ـ يقول فى هامش كتابه : (ما كان أجدر بهـذه الكلمة أن تستعمل فى معنى السكرتير التى حيرت اللغويين) يريد كلمة «الوراق» ٠٠٠ فاننى أرى أن وراق الجاحظ لم يكن يقترب من السكرتير فقط وانما من الكاتب والناسخ الذى تطور بعد ذلك الى جامع الحروف٠٠ وهكذا، عموما فقد كان هذا الوراق واسمه « زكريا بن يحيى » ٠٠ ينسخ من الرسالة الواحدة ، أو « المصحف » الواحد عشرات يبعث بها الى من يريد الجاحظ أن تصل اليـــه من علية القوم ٠

ـــ واذا كان بعض الكاتبين والنقاد ـ خاصة القدماء ـ يأخذ على الجاحظ ان كتاباته كان يعوزها الترتيب أحيانا والتهذيب فى أحيان أخرى ،

فاننا نرى أن لذلك أكثر من سبب يدخل ضمن الدائرة الصحفية أيضا ، خاصة دائرة كتابة المادة المقالية ٠٠ أى أن هذه الحاجة الى الترتيب والتهذيب ، كانت تظهر عندما يتعرض الرجل لكتابة مادة مقالية أولا ٠٠ وما ذلك الا :

● لأن الرجل كان موسوعيا يحتفظ فى ذاكرته وصدره بمئات من المعلومات المختلفة والمتباينة عن الموضوع الذى تتناوله كتابته ، ومن ثم فقد كان يواجه شأن كتاب المقالات من الموسوعيين ، صعوبة بالغة فى تنظيم ثم ترتيب وتهذيب ٠٠ هذا الكم الهائل من المادة المتجمعة لديه ، خاصة فى وقت لم تكن طرق التنظيم والفهرسة وحفظ المعلومات قد تقدمت كثيرا ٠٠

● لأن الرجل كان مشدودا الى جانب الهدف الثقافى الذى يريد تحقيقه من وراء مثيلات هذه المقالات ، ومن ثم فقد كان هذا التنوع الكبير فى مجال واطار ومضمون المادة المقالية الواحدة ، شأنه شأن بعض المتميزين من كتاب المقالات ٠٠

● ثم لأن طبيعة المقال نفسها ، وخصائصه التحريرية ـ منذ عرفت المقالات ـ وهى ترتبط بذلك النظام « اللاقاعدى » أو بالحاجة الى « الاكتمال » و « النظام » فى آن واحد ، بحسبه مجرد « محاولة » (١٨) غير مكتملة أو غير ناضجة تماما ٠٠ تؤكد ذلك بعض الأقوال التى تناولت هذا الفن الأدبى الصحفى القديم الجديد معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

ـــ « المقال هو انشاء كتابى معتدل الطول فى موضوع ما ، وهو دائما يعوزه الصقل ومن هنا يبدو أحيانا أنه غير مفهوم ولا منظم » (١٩)

ـــ « وثبة عقلية لا ينبغى أن يكون لها ضابط من نظام وهو قطعة انشائية لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس صاحبها ، أما الانشاء المنظم فليس من المقال فى شىء » (٢٠) ٠

ان استقراء هذه التعريفات ـ خاصة الأخير منها ـ ليقدم الاجابة المنطقية على قلة ترتيب وتهذيب مادته المقالية ٠

● وفضلا عن ذلك كله ، فقد كان فى جدة موضوعاته وأفكاره وتنوعها

بالاضافة الى كثرة مادتها المتجمعة - وفى بعض ذلك الذى لم يساعده تماما على الترتيب والتخطيط والتهذيب ·· وقد أشار الى ذلك أحد كبار المتصلين به عندما قال عن حاجة كتابته الى هذه الخصائص : « ·· فهو شأن كل كتابة جديدة فى أمر متشعب الأطراف ممدود النواحى » (٢١)

·· فى النهاية أقول ، أن حاجة كتاباته هنا الى مثيلات هذه الخصائص ترتبط أولا بالمادة الأدبية، لا الصحفية، أما وقد كانت هذه الى المقالات الصحفية أقرب فاننا لا نرى فيها عيبا ، أو تقصيرا من جانب الرجل ، فقد كانت تعـود الى نصفه الصحفى لا الأدبى ·

ـــ ومما يذكر باقتراب كتاباته من مادة الصحف والمجلات التحريرية، فضلا عن ذلك كله (الأفكار الجديدة - التنوع - المادة الاخبارية - المصـادر المختلفة والصادقة - الواقعية واعطاء صـورة العصر - حسن الاختيـار والاصطفاء - جوانب الأهمية والجاذبية فى المادة) ·· الى غير ذلك كلـه مما ذكرنا ، ومما سنذكر باذن الله ·· مما يذكر بهذا الاقتراب أيضا ، أن كتاباته ورسائله ومصاحفه وكتبه ، كانت تنتشر بين الناس بسرعة لم تعرفها كتب غيره من ناحية ، وتذكر بالانتشار والتوزيع السريع للصحف والمجلات من ناحية أخرى ، كانت الرسالة أو كان المصحف - الجزء من الكتاب بما يشبه مجموعة الملازم - وكان الكتاب نفسه سرعان ما ينتشر ، وينسخه الناسخون ، ويقبـل عليه العامة والخاصة ويتنافس الجميع من اجل ذلك، ولنا فيه أكثر من دليل على سرعة انتشار كتبه وشهرتها ·· من بينها :

● قيل **لأبى هفان** - عالم وراوية معاصر له - لم لا تهجو الجـاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست الا بالصين شهرة !

● وذات مرة ، أظهر أحدهم بعض الخطأ فى كتابه « البيان والتبيين » فأسرع اليه حتى يقوم باصلاحه ، نظر الجاحظ اليه وكأنه يقول له ، لقد فات وقت الاصلاح ·· وأصبحت النسخ بأيدى القراء ·· قال له : الآن وقد سار الكتاب فى الآفاق ، هذا خطأ لا يصلح » ··

(٤) يؤلف فقط
أم يجمـع أيضا ؟

حتى نصل اخيرا الى نقطة أخرى هامة من النقاط المتصلة بهذه الدراسة ٠٠ والتى يمكن أن تضيف جديدا مفيدا الى موضوعنا ، بعد كل هذه الرحلة للدلالة على أن الجاحظ له جانبه الصحفى ، كما أن له جانبه الأدبى ، وان اختلفت مستويات الجانبين من آن لآخر ، من كتابة لأخرى ، من مجـال لمجال ٠٠

وهذه النقطة نقدمها هنا فى صورة سؤال أساسى يقول : هل كان ما يفعله الجاحظ كله ، من أوله الى آخره ، بجميع جزئياته ، مما يدخل فى مجـــال التأليف ؟ والتأليف الابداعى وحده ؟

وفى أسلوب آخر : هل كان هذا النتاج الجاحظى المتعدد والمختلف ، يأتى من بنات أفكاره ، أو من بنات أفكاره وحدها ، مختلطة ومتشابكة مع مواهبه التى منحه الله اياها ، تماما كما هو الحال عند الشعراء والقصاصين وغيرهما من المبدعين ؟

● اننا نقول أولا : لعل فى اكثر المقدمات السابقة ، ما يؤكد أن الرجل كان مبلغ همه ، وكان أكثر نشاطه ، وكان جل اهتمامه موجها بالدرجة الأولى الى :

— البحث عن موضوعات مهمة وجديدة وجذابة

— ليجمعها ولينقلها عن المصادر المختلفة ، خاصة المخطوطة ، مؤلفة أو مترجمة ، ثم البشرية من الذين صنعوها أو عاصروها أو كانوا شـــهود عيان عليها ، أو عن طريق رواتها ، أو تلك التى كان هو شاهدا عليها

— بعد أن يصهرها فى بوتقة الجاحظية الخاصة من حيث شرحها وتحليلها ومقارنتها بغيرها ، والخروج من كل ذلك بعمل فنى جديد يمـكن أن يصبح نتيجة لهذه المقدمات، كما يمكن أن يصبح أيضا بمثابة مقدمة لأعمال فنية جديدة وأخرى ٠٠

— مع تقديم كل ذلك بالطابع الجاحظى الخاص فكرا ولغة وأسلوبا

● ثم نقول ثانيا : أن النقطة الأولى (البحث) والنقطة الثانية (الجمع والنقل) •• هما من خصائص الباحث والصحفى ، أو الباحث الصحفى ، أكثر من كونهما من خصائص المؤلف الذى يقدم بنات أفكاره الخاصة ، وابداعه الذى يعكس مواهبه •

— ان الجاحظ — مثلا — لم يترك لنا ديوان شعر كامرىء القيس أو كزهير بن أبى سلمى أو كالنابغة ، أو كحسان بن ثابت ، أو كالبحترى أو كأبى تمام أو كأحمد شوقى ••

— ولا هو ترك لنا عدة خطب عصماء ، مثل تلك التى تركها قس بن ساعدة الأيادى أو على بن أبى طالب ، أو قطرى بن الفجاءة أو مصطفى كامل أو غيرهم ••

— ولا هو بالذى ترك لنا بديع مقاماته العربية

— ولم يعرف عنه أنه قام بتأليف قصة من القصص العربى ، الذى كان بعضه قد عرف فى عهده ، وقبل عهده •• وعلى الرغم مما جمع وروى من قصص العرب وأخبارهم وأنسابهم وتاريخهم الى غير ذلك كله ، من ألوان النشاط الأدبى الفنى البحت ، وانما أخذ هذه الفنون والأطر الأدبية التى كانت معروفة فى عهده أو على عهد سابقيه ، (أى قام بجمعها) •• ثم روى بعضها لنا عندما كان المجال هو مجال الرواية ، وحكى بعضها الآخر عندما كان المجال هو مجال الحكاية ، ونقد بعضها الثالث عندما كان المجال هو مجال النقد ، وسخر من بعضها الرابع عندما كان المجال هو مجال السخرية •• وقل مثل ذلك فى أغلب ما قدم على صفحاته ، مختلطا بالطابع الجاحظى نفسه ••

● ثم نقول ثالثا : واذا كان « البحث » طابع العالم ، فهو ليس طابعه وحده . فهناك الباحث الصحفى ، والاجتماعى والقانونى والتراثى •• وغيرهم. لكن مادة الرجل المتنوعة والمتعددة ، وحسن اختياره للموضوعات التى تشبه موضوعات صحف اليوم ومجلاته — خاصة الأخيرة — وطرق وأساليب بحثه ، والقالب الذى وضع فيه مادته ، ولغته وأسلوبه ، تجذبه بشدة الى الجانب الصحفى . واذا كنا نرى كثرة عديدة من الصحف والمجلات الآن . تبذل عنايتها الكبيرة من أجل انشاء أقسام « الأبحاث » الصحفية ، وبعضها يضم « المكتبة الصحفية » وبعضها يضم « مركز المعلومات » كله حتى يكونا فى خدمة «البحث

الصحفي» أو «الدراسة الصحفية» ٠٠ وصلتها كبيرة جدا بـ : « التحقيق الصحفي » أو « التحقيق الدراسي » الذي يقوم المحرر المناسب ، أو أكثر من محرر بتنفيذه على مهل ، ويستغرق منه ـ أو منهم ـ ذلك التنفيذ وقتا طويلا ٠٠

واذا كان ذلك كله هو ما يحدث ، فلعله يذكرنا بموقف كتابات جاحظية كثيرة ، ان المحرر هنا لا يؤلف ، وكذلك الباحث ، ومثلهما الجاحظ نفسه ٠٠

● وحتى في المجالات التي احتل الرجل فيها موقف « المؤلف » عن جدارة واستحقاق فلم يكن مثله مثل « المخترع » الكامل ، أو « الشاعر » أو « القصاص » الذي يبدع ويبتكر ، وانما كان يستند الى أصول وقواعد واقعية تعيش ويراها الناس أو قصها عليه الرواة والقصاصون والاخباريون ومن اليهم، لكنه ـ وكما قلت ـ صهرها في البوتقة الجاحظية ، مثل ما يفعله الأديب ـ نعم ـ ولكن ليس الأديب وحده ، فالكاتب الصحفي يفعل ذلك أيضا ، ويقدم للناس الصور والمشاهد والألوان والتجارب والمواقف والقضايا بعد أن تنصهر في بوتقته الخاصة ، وأصبحت مشربة بروحه الخاصة ٠٠ والا لما استحق أن يكون مثل هذا الكاتب ٠٠ صاحب القلم وهو نفس الشيء ، بالنسبة للخروج من نتائجها بمادة جديدة مفيدة ، للقراء والمجتمع كله في نهاية الأمر ٠٠

● وأما عن الطابع الجاحظي من حيث اللغة والأسلوب ، فسوف تثبت السطور القادمة ـ باذن الله ـ أنه لغة الجاحظ وأن أسلوبه ذواتا صلة قوية ، بلغة الصحافة وبأسلوبها ، وأن « البيان الجاحظي » كان من أكثر بيان عهده قربا من اللغة الصحفية التي نستخدمها اليوم ، بقدر ما ابتعدت عن لغـــة معاصريه ، وأساليبهم ٠٠ واذن ، ومن خلال المقدمات السابقة ، فقد كان الرجل يؤلف ويجمع معا ، أي أنه لم يكن مؤلفا فقط ، أو اديبا فقط ، وانما كان جامعا ناقلا ، يلتقط بمهارة ويجمع في دقة ، وينقل لنا في بلاغة ٠٠ أليس كذلك ؟

● ثم اننا نتساءل رابعاً : هل جميع الصحفيين من الجامعين الناقلين الملتقطين لما يقدمه غيرهم فقط ؟ أو ـ في أسلوب آخر ـ هـــل يقتصر دور الصحفي ـ كائنا من كان ـ وفي جميع الأوقات والأقسام والظروف والمستويات على مجرد النقل عن الآخرين ، والنقل وحده ؟ ٠٠

الحق أن هناك نماذج ومستويات كثيرة من العمل الصحفي ، والصحيفة

- كخلية نشاط - يوجد فيها من يجمع « الرحيق الاخبارى » .. من يقوم بجمع الأخبار ، ومن يقوم بصياغتها ، ومن يقوم باستكمالها ، ومن يقوم بكتابة ما يمكن أن تسفر عنه من موضوعات وقصص اخبارية ، ومن يقوم بكتابة ما تسفر عنه من تقارير وتحقيقات ودراسات وبحوث ، ومن يقوم بشرحها وتفسيرها وتحليلها وبيان ما تسفر عنه وتأييد ذلك أو تأكيده أو معارضته وهكذا ، وهكذا أيضا نجد أن هناك المحرر الذى يجمع وينقل عن غيره - وهم كثرة - ونجد كذلك المحرر الذى يجمع وينقل ويثبت ذاتيته وتفرده بما يقدم بعد الجمع والنقل ، تماما كما لا نعدم وجود المحررين المؤلفين ، أو المؤلفين من المحررين الصحفيين ، بعضهم يؤلف فى مجال السياسة ، وبعضهم الثانى يؤلف فى مجال الأدب ، وبعضهم الثالث فى مجال الفن ، والرابع فى مجال الاقتصاد ... وذلك كله فضلا عن الباحثين الصحفيين المتميزين من أعضاء أسرة قسم الأبحاث ، أو التحقيقات الصحفية أو غيرهما .

بل اننا اذا نظرنا الى التأليف بمعناه القريب ، أو حتى معناه الأدبى - ودون اسراف منا فى ذلك حتى لا تختلط الحدود - فاننا لن نعدم وجود عدد من المحررين « الأدباء » بل والشعراء أيضا ، فهذه واحدة ، وتلك أخرى ، على الرغم من كل الفروق القائمة ، بين الصحافة الخبرية ، أو الاخبارية ، وبين الأدب ، ولا أقول بين غيرها من ألوان الصحافة ، وبين الأدب الصحفى ..

● باختصار شديد أقول أخيرا ، خذ عندك أحد الكتب الجاحظية الشهيرة من أمثال : الحيوان - البخلاء - اقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات - الزرع والنخل والزيتون والأعناب - الملوك والأمم السالفة والباقية - الأمصار - رسالة فى الكيمياء - المعادن - رسالة فى الخراج »... تجد أن الطابع الغالب عليها هو طابع الجمع والنقل من هنا ومن هناك ، فهو بالنسبة لها جامع ناقل ، باحث ، أكثر منه مؤلف علمى ، أو فنى ، بالمعنى المتعارف عليه فى هذين المجالين ، وقد أشرنا من قبل الى أنه لم يكن عالما بالمعنى المعروف والقريب من الأذهان عندما يذكر تعبير العالم .. كذلك هو فى بعض أدبياته ، ولا أقول كلها بالنسبة لتعبير « المؤلف » ..

● بل اننا لنتساءل خامسا ، واكثر من سؤال واحد :

ـــ هل وصفه الحى الواقعى للبخلاء ، والزنوج واللصوص والحواة كما شاهدها بعينيه ·· هل يعتبر ذلك أدبا ؟ أم صحافة ؟ أم هما معا ؟

ـــ وهل يعتبر نقله لجميع الصور والمشاهد التى جرت أمام عينيه فى البصرة وبغداد ، أيعتبر أدبا ؟ أم يعتبر صحافة ؟ أم هما معا ؟

ـــ وهل فى عشقه للحرية ، ورفضه للمناصب الحكومية وزهده فيها ـ ما يقربه ما طابع الأديب ؟ أو الصحفي ؟ أو من طابعهما معا ؟

ـــ وهل في كتاباته القائمة على الصدق أولا ، وعلى الدقة ثانيا ، وعلى الموضوعية ثالثا ، ونبذه بذلك كل رواية مختلقة ، أو ملونة ، أو أضيف اليها كروايات بعض رجال البحر والسماكين وبعض المترجمات ·· هل ذلك كله يدخل في عالم الأدب ؟ أم فى عالم الصحافة ؟ ، أم فيهما معا ؟

ـــ وهل فى بعده عن الخيال ، الى حد كراهيته له وحديثه عن ذلك كثيرا مما يقربه من الأدب أكثر ، أم من الصحافة أكثر ؟

الحق أن بعض هذه الصور والانشطة والمعطيات قد يأخذ من الأدب بجانب ، ولكنه يأخذ ايضا من الصحافة فى مجموعه ، وعلى سبيل التركيز ، بالعملية التحريرية وما تتجه اليه من أطر وأنماط وأساليب ، نتوقف عندها قليلا ، وعلى اثر رصدنا لبعض الأقوال التى تناولت الرجل ·· مما يذكر بهذه النقاط السابقة فى مجموعها ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

● ان بعض المؤلفين قد حاول الوصول الى جوانب هذا التعدد الذى يؤكد وجه الجاحظ الاخر ـ وجه الصحفى هنا ـ فكتب يقول عن الجاحظ أنه : تناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الاسلام ، أو نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس ، أو يخطر بالبال ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ عالم بالحيوان والنبات والموات وصاف لأحوال الناس ووجـــــوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم » (٢٢) ··

(الجاحظ)

أى أنه ليس أديبا فقط ؛ وانما يجمع بين أكثر من رجل واحد ، لعل أقربهم اليه . هو الصحفى ، الذى يتسع عمله فى أحيان كثيرة ، لبعض أعمال هؤلاء معا .

● ويقول آخر ، عندما رأى تعدد كتاباته ، حتى أنه لم يترك موضوعا الا وكتب فيه، حتى الشطرنج والتفاح والأصنام وأخلاق الملوك والجن والغول والطعام وغيرها ، وغيرها بما يؤكد طبيعة الرجل « الجامع » الماهر ، المجدد للفكر ومتعدد الجوانب أيضا : « .. لم تقف به همته عند احدى تلك الغايات التى بلغ بها أكابر الكتاب ممن تقدمه أو عاصره فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا بل حمل نفسه على أن يبزهم جميعا ـ لأنك تراه لم يترك علما معروفا فى زمنه لم يضع فيه مؤلفا ، ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف رسالة موجزة ، وقد يكون سفرا متعدد المصاحف والأجزاء »(٢٢) ..

هل يمكن ـ بعد ذلك كله ـ أن نقول ، أن للرجل أكثر من مستوى واحد، من مستويات الكتابة ؟.

— **أما المستوى الأول** ، فهو المستوى الأدبى الكامل ، الذى كان الرجل يقف فيه مبدعا منشئا مبتكرا :

— **وأما المستوى الثانى** ، فهو مستوى الباحث العام ، الجامع الناقل الدقيق والصادق .

— **وأما المستوى الثالث** ، فهو مستوى الكاتب الصحفى ، الجامع الناقل الدقيق والصادق أيضا ولكنه وبالاضافة الى ذلك ، مستوى مصور عصره ، فى واقعية ومطابقة لمقتضى الحال ..

الأول أديب والثانى باحث والثالث صحفى . لكن الباحث والصحفى يلتقيان فى مواقع عديدة ، وصفحات عديدة أيضا ، ومن هنا كان الرجل كل هؤلاء معا . بل ان الصفحات القادمة سوف تثبت ـ باذن الله ـ أن الرجل عرف مستويات التعبير الصحفى كلها .. الأصلية والفرعية أيضا ، وليست هذه المستويات الثلاثة الأخيرة فقط .

هوامش الفصل الرابع :

(١) محمود أدهم : « الأســس الفنية للتحرير الصــحفى العام » ص ١٦ ـ ١٧ ٠

(٢) خلال الفصل الأول من هذا الكتاب ٠

(٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦)محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » صــفحات ٩ ، ١٠ . ٤٩ ٠

(٧) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أســلوب الجاحظ » ص ٨ ٠

(٨ ـ ٩) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٦٦ ٠

(١٠) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ٢٢٣ ٠

(١١) رجاء العودة الى الفصل الثالث ٠

(١٢) خلال الفصل الثالث أيضا ٠

(١٣) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ١ ص ٢٠ ٠

(١٤) المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٢ ٠

(١٥) محمد سيد محمد : « الصحافة بين الأدب والتاريخ » ص ٢٢ ٠

(١٦) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ١ ص ١١ ٠

(١٧) المصدر السابق . ص ٢٧ ٠

(١٨) "Essay"

(١٩) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى »ص٢٢٧

(٢٠) عبد العزيز شرف : « فن المقــال الصــحفى » ص ٧ ، عن د٠ جونسون ٠

(٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة أ٠ عبد السلام هارون جـ ١ ص ١٨ ٠

(٢٢) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوســيط فى الأدب العــربى وتاريخه . ص ٢٢٢ ٠

(٢٣) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٧ ٠

الفصـــل الخامس

جذور الفنون الصحفية فى أدب الجاحظ

بعد ذلك كله نتساءل : هل هناك صـلة ما ، بين الفنون التحـريرية الصحفية وبين كتابات الجاحظ ؟ هل توجد هذه الجسور التى تمتد بين الأنماط والأطر التحريرية المختلفة ، التى نراها فوق صفحات الجرائد والمجلات اليوم، وبين هذا النتاج الجاحظى المتعدد ؟ وأقول : الفنون والأنماط التحريرية فقط، وليس غيرها ، اذ المعروف أن الصحيفة أو المجلة تحتوى ـ أيهما ـ على مواد أخرى عديدة ، بعضها تحريرى ، وبعضها اعلانى وبعضها ترويحى ، وبعضها مصور ، وبعضها جمالى ، وما الى ذلك كله ٠٠

٠٠ فاذا عدنا الى احد مؤلفاتنا السابقة ، لقلنا أننا خلال هذه السطور، نبحث عن تلك الصلات التى يمكن أن توجد أو أن نجد رابطة ما تقوم بينها وبين هذا الجانب من جوانب « محتوى » الصحيفة أو المجلة الحديثة ٠٠ انها:

« ـــ مادة « تعريفية » بالصـحيفة أو المجلة وبصـفحاتها وأبوابها وزواياها ٠٠٠٠ الخ ٠

ـــ مادة « خبرية » أو اخبارية حدثية وقائعية مفردة أو موزعة أو متشابكة ٠

ـــ مادة تجمع « بين الرأى والخبر » أو تأخذ من كل منهما بنصيب٠

ـــ مادة « معلوماتية » متداخلة مع المواد السابقة أو مفردة ٠

ـــ مادة « تقريرية » تسجيلية » تجمع بين أكثر من مادة من المواد السابقة ٠

ـــ مادة « توجيهية وارشادية » مفردة أو متشابكة ٠

ـــ مادة « تعليمية » ٠

ـــ مادة « خاصة أو متخصصة » ٠

ـــ مادة « مسلية » أو ممتعة ومؤنسة بالحرف والكلمة والسطر ٠

ـــ مادة « متنوعة » تجمع بين أكثر من جانب واحـد من الجوانب السابقة » (١) ٠

وبطبيعة الحال ، فاننا لن نركز على جميع هذه المواد ، وما تعنيه بالنسبة لتحرير الصحيفة أو المجلة من جانب ، ومن حيث الصلة بكاتابات الجاحظ من جانب آخر ، وانما نركز على بعضها المهم أولا ، والذى تتضح هذه الصلة نفسها فى مجاله ٠٠ كما نشير هنا الى أن اعتمادنا الأول ، سوف يكون على

عدد من مؤلفاتنا السابقة سواء تلك التى تناولنا فيها هذه الفنون من جانب ، أو تلك التى أشرنا فيها الى الصلة التى قامت بين جذور هذه المادة التحريرية، أو هذا الفن التحريرى ، من جانب آخر ، أو ما استجد لدينا من خلال المادة الجاحظية ، مما يعكس هذه الصلة نفسها أو يقيم بينهما الجسور المختلفة ، ومن هنا نقول :.

أولا : من حيث المادة التعريفية بالصحيفة أو المجلة ..

اذا كنا قد اعتبرنا أن هناك أكثر من وجه من وجوه الشبه بين بعض كتابات الجاحظ . لا سيما بعض رسائله ، وأجزاء كتبه الكبيرة ، وكتبه فى مجموعها ، فان هذه الصلة بين المادة التعريفية بالصحيفة أو المجلة لم تكن قوية ، وذلك لأكثر من سبب :

ــ أن ارتباط التعريف هو أساسى بالصحيفة أو المجلة الحديثة ، وبدلا منه ، فانه يوجد لكل كتاب أو رسالة عنوان يكون أكثر ارتباطا به ، وقد كانت آثار الجاحظ الفكرية كذلك .

ــ أن صفة الدورية وتتابع الصدور لم تكن معروفة بالنسبة لهذه الاثار على النحو الذى تعرف به الآن بالنسبة للكتب الدورية ، أو الكتيبات أو النشرات الدورية مثلا .

ــ أن التعريف بالأثر الجاحظى ، كتابا كان أو كان مصحفا أو كانت رسالة ، كان يقدم فعلا ، ولكن من خلال « فاتحة الكتاب » أو مقدمته ، وكانت هذه أقرب الى المقال منها الى مجرد التعريف البسيط الذى يقدم كلمات قليلة جدا ، كما هو الحال بالنسبة للمادة التعريفية الصحفية أو المجلاتية ، ومن ثم ، فان تعريف الجاحظ بكتبه ــ كرأينا ــ هو أقرب الى المادة المقالية ..

ثانيا : من حيث المادة الخبرية :

وأما من حيث المادة الخبرية . وصلة الكتابات الجاحظية بها فقد تناولناها أكثر من مرة . خلال صفحات الكتاب . ومن ثم فلا حاجة بنا الى اعادة ذلك التناول . وانما نحن نقول فقط وباختصار شديد :

ـــ أن الرجل كان جامعا للاخبار من الطراز الأول . وضح ذلك من كتبة جميعا ، فلم يك يترك المناسبة دون ذكر ما يعرف من الأخبار الجديدة عنها التى جمعها أو أتاه بها مصدر ما من هنا وهناك ٠

ـــ وأن المادة الاخبارية عنده بعضها كان مفردا لحاله ، وبعضها يتشابك مع غيره من المواد ، شأنه فى ذلك شأن كثرة من أخبار المجلات التى تأتى عبر موادها التحريرية وفى ثناياها ٠

ـــ انه عرف **الأسس والقواعد الرئيسية** التى تقوم عليها الآخبار ، بل ووضع الرجل رسالة فى ذلك أطلق عليها اسم : « الأخبار وكيف تصح » ٠

ـــ أنه كان يسعى من أجل تطبيق عنصر « **الانتقاء** » لمادته الاخبارية فلم ينشر أى خبر كان ، ولم يورد أية مادة اخبارية بين ثنايا كتاباته على أى نحو تكون وانما كان الرجل يصطفى من بين ما يتجمع لديه منها الجـــديد والمهم ، والصادق ، والجذاب ، والطريف ٠٠ قبل غيرها من أخبار قديمة أو معروفة . أو غير مهمة ، أو جافة أو غير صحيحة ٠

ـــ أن عنايته كانت تتجه الى أهمية الخبر فى حد ذاته ، ومن حيث كونها مادة خبرية . فلم يقدم مالا يستأهل التقديم من أخبار الحكام والأمراء، فى الوقت الذى قدم فيه ما يستحق من أخبار العامة ٠٠ الذين يقفز بعضهم الى قمة الأحداث ، فتتحقق لهم الشهرة من خلال الحدث نفسه ـ كزعيم الزنج مثلا ـ وليس من خلال أى شىء آخر ، أى أنه كان ينظر الى عنصر الشهرة ، بتفاعله مع العناصر الأخرى ، وليس مجردا ، وهى نظرة جديرة بالتأمل ، بل انها لتسبق نظرة كثير من صحف اليوم ومجلاته الى هذه الزاوية ، تلك التى تلهث وراء أى عمل مهما تكن درجة أهميته ، مادام أن صاحبه شهيرا ، أو أنه من النجوم ، بينما لا تهتم الاهتمام المماثل ، ولا نصفه ولا ربعه أحيانا، وقد تتجاهل تماما عملا كبيرا ، علميا أو أدبيا مثلا ، طالما أن صاحبه ليس له مثل شهرة هذا النجم ٠

ثالثا : من حيث المواد التى تجمع بين الرأى والخبـــر وتلك التقريرية التسجيلية :

الحق ، أن هناك أكثر من مادة ، وليست مادة واحدة فقط ، هى التى

تدخل ضمن حدود هذا البند ، ولذلك ، فاننا سوف نتناول هنا من بين هذه المواد ذات الصلة بكتابات الرجل المختلفة ، هذه كلها ، من خلال استعانتنا بقراءة فى بعض مؤلفاتنا السابقة ·

(أ) كتابات الجاحظ وجذور الحديث الصحفى :

لم ينتقل الجاحظ من مكان لمكان ، ولم يلتق بالعديد من المصادر ، رواة وبحريين ومربديين ومسجديين وعلماء ، من أجل الارتحال فقط ، أو لمجرد اللقاء بهؤلاء ، تماما كما أنه ليس من أجل النزهة ، رحل الى هنا والى هناك، وليس من أجل التعرف على هذه المصادر ، أو قضاء وقت فراغه بينها ، كانت جلساته الطويلة معها ، وانما كان ذلك ، وفى أكثر الأحوال :

— ليعلم عنها بعض ما تعلمه . مما كان يجهله أو يعلم غيره ، أو يعلم مثله ·

— ليسمع منها الأخبار والقصص والتاريخ والانساب وغيرها ·

— ليتأكد منها من بعض ما يريد أن يتأكد منه ، فى موضوع يشغل فكره ·

— لتصحح له بعض ما يريد أن يصححه ·· لاهتمامها به أو تخصصها فيه ·

— ليعرفها أكثر ، لأنها شخصيات جديرة بأن تعرف لذواتها أو أهميتها أو أنشطتها الى غير ذلك كله من أهداف ·· حيث كانت « المقابلات » تجرى بينه وبين هؤلاء ، ومعها تطرح الأسئلة ، وتدور المناقشات ، وتأتى الاجابات · ويتحول بعضها الى أسئلة جديدة ، تتتابع بالتالى اجاباتها ·· كل ذلك بينما ذاكرته الحافظة تعمل ، وتسجيلاته أو تسجيلات وراقيه تتم ، وجميع حواس الرجل قائمة على قدم وساق ··

أى أن الرجل كان يسأل ··

وحتى ان لم يكن يسأل ·· فقد كان يستمع ، ويعلم ··
ولكن ·· فى النهاية ، نقول : لم كان كل هذا الجهد ؟· وقبل أن نقدم

الاجابة تشير الى أنه كان يفعل ذلك أكثر من غيره من أمثاله الكاتبين ، خلال هذه الفترة ، وحيث كان أكثرها يعتمد على ما تقدمه له دكاكين الوراقين والمكتبات ‥ وما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات ، وصحيح أن الجاحظ كان يستخدم هذا الأسلوب نفسه ، وربما بأكثر من بعضهم ، وقد أشرنا الى ذلك فى حينه ، لكن اعتمـاده على هـــذه المصـــادر المكتبية ، أو الوثائقية لم يكن دائما ولا كاملا وانما كان يصحبه فى أوقات كثيرة اعتماده على عنصر السماع ، خاصة فى تلك الموارد التى تقترب من الطابع الصحفى لا الأدبى ، من ذات الطابع الحالى ، الاخبارى وما يتصل به من معلومات مختلفة ·

مرة أخرى ، لم كان كل هذا الجهد فى السماع والتساؤل والمناقشـة وما يتصل بهذه الأمور ؟ ‥

من البديهى ، ومن المؤكد ، أن حصيلة ذلك كله ، كانت تصب فى المعين نفسه ، معين نشر ما يتجمع لديه من مواد بعد تعرضها لجوانب الاختيار والاختبار والحذف والاضافة والصقل والتهذيب · ·وما الى ذلك كله ‥

ونظرة على كثرة من كتـــابات الرجل التى ذكرنا والتى لم نذكر ، تجد عددا كبيرا منها :

— اما أنها تأتى كما تأتى الاحاديث ذات الأســـئلة والاجابات الضمنية ، أى دون حاجة الى ذكر السؤال والاشارة الى طبيعة الجواب ·

— واما بدون السؤال مع استخدام أكثر من تعبير دال على الجواب

— أو بذكر المصدر فى بداية الكلام على النحو الذى سبقت الاشارة اليـــه ·

— أو باستخدام المداخل المختلفة ، الاشارية أو القولية أو غيرهما ·

— وأحيانا باستخدام السؤال والجواب أيضا ،

— أو بجعل المادة كلها . نصا واحدا بينما هو فى الواقع نتيجة لهذه التساؤلات وتلك المناقشات ·

— أو بوضعها فى أشكال وقوالب أخرى ‥ كانت نتاجا لموهبتـــه الكتابية الكبيرة ‥

بل ان هذه الموهبة نفسها هى التى تدفعنا الى القول ــ دون اسراف فى ذلك أو مبالغة ــ أن الرجل قد اقترب أحيانا فى عرضه لمادته المتجمعة من وراء هذه الاحاديث والمناقشات ، من بعض قوالبها التى تعرفها صحف اليوم ، لاسيما قالب « العرض المباشر » ٠٠ الذى يضع المادة بين أطر كلمات من مثل: « أوضح ــ لاحظ ــ استهجن ــ أشاد ــ امتدح ــ ذكر ٠٠ الخ » وكذا اقترب من قالب « العرض الحوارى » الذى يضعها أو يقدم لها بالفعل « قال » ومشتقاته فى الأعم ، كما اقترب أيضا ، خاصة فى حالات وصفه لبعض الأفراد من قالب « العرض الوصفى » الذى يركز على تقديم صورة لهم وهم يتحدثون : « قال وهو ــ تمطى ثم قال ــ تثاءب وهو يقول ــ وهو يتعجب ــ ٠٠ الخ » ٠٠ وذلك كله فضلا عن اقترابه من بعض ملامح « القالب الاخبارى المباشر » كراوية واع وفذ ، لما كان يدور حوله أو يشارك فيه ٠

واذا كنا ــ خلال الكلمات السابقة ــ قد حاولنا أن نقرب بين طرقه فى كتابة أمثال هذه المواد المنقولة عن الغير عن طريق التساؤل والمناقشة والسماع والرواية ٠ فانه يتأكد لنا من خلال ذلك كله ، كم كانت هذه المواد التى عاش الرجل مناخها وسمعها عن الغير وشارك فى مناقشاتها أو أخذها عن آخرين كم كانت قريبة من بعض ألوان الأحاديث الصحفية لاسيما والهدف كما قلنا ، هو النشر واطلاع القراء عليها فى رسائل أو مصاحف أو كتب سرعان ما كانت تنتشر فى الآفاق ، وتسير بذكرها ألسن الركبان ٠٠

أو ليست « الأحاديث الصحفية » أو « المقابلات الاعلامية » تعنى مثل هذا التسجيل الحى الواقعى فى أغلب الأحوال لما دار أو يدور من مناقشات تتزاحم فيها الأسئلة ، وتزخر بالاجابات ، وتتصارع فيها الآراء ، وتقدم المعلومات ؟ ٠٠ وجميعها لا تفوت على العين البصيرة ، والأذن الخبيرة والذاكرة الحافظة ، التى تعى وتفهم وتسجل ٠٠ ثم تعود وكأنها تكتب بذلك كله ، تقريرا عما حدث ، لتحمله بعد ذلك عدة صفحات تتناسب وطبيعة عصرها وامكانيات أصحابها المادية والفنية ٠٠

ولماذا ــ وقد فعل الرجل ذلك وقدمه بوسيلة النشر المتاحة له ــ لماذا نذهب بعيدا ، وهذه الأحاديث الصحفية نفسها ، هى وكما عرفها البعض(١) من لغويين ورجال اعلام معا :

ـــ فصاحب « المصباح المنير » ·· أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى يذكر فى باب الحاء مع الدال وما يثلثهما قوله : « والحديث ما يتحدث به وينقل » (٢) ·· أوليس هذا هو ما فعله الرجل ؟

ـــ وصاحب « مختار الصـــــحاح » ·· الامام محمد بن أبى بكر الرازى يذكر فى باب ح·د·ث· : « الحديث الخبر قليلة وكثيرة ··· » (٣) الم نشر الى أن أكثر مادته الاخبارية جاءت محصلة لأحاديثه ·

ـــ وترى مؤلفة مجتهدة مما يعبر عن المعنى نفسه : « الأحداث التى نشاهدها ويشاهدها العالم طوال أيام السنة من صنع الأفراد ، وأهم عمل يقـوم به الصحفى هو التحدث مع هؤلاء الأفـراد الذين يصنعون أحـــداث الحياة » (٤) ·

ـــ ويرى أستاذ علوم الاتصال بجامعة ولاية بنسلفانيا : « فى تعبير واحد ·· ان مصطلح الحديث الصحفى يشير الى الطريقة الفنية التى تجمع بواسطتها أكثر الاخبار » (٥) ·· وأقول والمعلومات والآراء أيضا ، وهو ما فعله الجاحظ منذ عشرة قرون ، بصرف النظر عن الاطار الذى كانت تجرى فيه مقابلاته . وسرعة القيام بها ونشرها ، بسبب الظروف نفسها ·

ـــ وتقول باحثة شهيرة فى هذا المجال : « ان الأشخاص يسألون من أجل الحصول على المعلومات التى يعرفونها أو من أجل آرائهم أو أفكارهم التى تتصل بمجالات اختصاصهم » (٦) أوليس ذلك ما كان يفعله خـــــلال مناقشاته مع مصادره من أخباريين وقصاصين وعلماء ··

ـــ حتى نصل أخيرا الى تعريفنا الخاص لهذا الفن ، لنجد التماثل الكبير بين ما كان يفعله الرجل ، وبين هذا المفهوم ، باستثناء ما أوجـده العصر نفسه من أطر فنية حديثة ، ووســــائل اتصال ، وبعض الاهداف « العصرية » نفسها ·· انه التعريف الذى يقول أن الحديث الصحفى هو :

« تقرير يكتبه محرر فى لغة واضحة وجذابة لينشر فى الوقت المناسب فى صحيفة أو مجلة أو توزعه وكالة أنباء عن مضمون مقابلة حديثة أجراها وحده أو مع غيره نيابة عن القراء أو مكالمة هاتفية طويلة أو بالاتصال بالبريد

فى أحيان قليلة مع فرد أو أفراد من المسئولين أو أهل الثقة أو صناع الأخبار للحصول بالتساؤل والمناقشة على المعلومات والآراء والمواقف الخاصة بهم أو المتصلة بالأحداث والقضايا والأفكار الجديدة التى تهم القراء والمجتمع بهدف اعلامهم وتوعيتهم وتوجيههم وتثقيفهم وتعليمهم وتنميـــة مجتمعهم وتسليتهم وتحقيق الربح المادى لوسيلة النشر » (٧) ٠

لا نترك ذلك كله ، وننتقل الى مادة جـــديدة قبل تقديم بعض النماذج للمقابلات والمناقشات والمحاورات الجاحظية ، التى قدم خلالها للقراء مادة اخبارية ومتنوعة ، وذلك بالاضافة الى ما سبق تقديمه مما يشير الى هذه الجوانب لاسيما خلال حديثنا عن مصادره البشرية ٠

● أما المادة الأولى فهى من « حديث رأى » موضوعه هنا لغوى الدرجة الأولى :

« ٠٠ وحدثنى صالح بن خاقان ، وقال : قال شبيب بن شيبة : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ويمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جـــودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وان كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت ٠ ثم قال شبيب ، فان ابتليت بمقام لابد لك فيه من الاطالة، فقدم احكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى احكام البلوغ فى شرف التجديد ، واياك أن تعدل بالسلامة شيئا فان قليلا كامنا خير من كثير غير شاف ٠٠ ويقال انهم لم يروا خطيبا قط ٠٠٠٠ الخ » (٨) ٠

● وأما المادة الثانية فهى من « حديث خبر معلومات » موضوعه حيل الحيوان :

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخـــوه روح الكاتب ورجـال من بنى العنبر أن عندهم فى رمـال بلعنبر حيـة تصـــيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد ٠٠ زعموا أنها اذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز ، أو عود ثابت فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة ، فاذا رأى عودا قائما وكره الوقوع

على الرمل لشدة الحر ، وقع على رأس الحية على أنها عمود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فاذا كان جرادة ، أو جعلا أو بعض ما لايشبعها مثله ابتلعته ، وبقيت على انتصابها ، واذا كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت » (٩) ··· الخ

ونكتفى بهذا القدر ، وننتقل الى فن تحريرى آخر ، وصلة الرجل به ·

(ب) كتابات الجاحظ ، وفن التحقيق الصحفى :

لكن الرجل لم يستخدم أسلوب المقابلات . ولم يجلس الى مصـــادره ليناقشهم أو الى من سعى اليهم ليأخذ عنهم ·· ولم يرتحل أيضا ويجد فى طلبهم من أجل هذه الأنشطة الاخبارية وحدها أو لمجرد الحصول بالتساؤل والأخذ والرد ، على مثل هذه الاحاديث السابقة التى زخرت بها كتبه وكانت اطارا للكثير من موادها التحريرية ·· وانما نجح فى أن يستخدم السؤال والجواب ، والأخذ والرد ، والمناقشة والمحاورة حيث ينبغى اســتخدامها ليتجمع له منها بالاضافة الى بعض أساليب رؤيته الخاصة للناس والألوان والحياة فى عصره . تلك التى كان يضع يده على مشاهدها من خلال انغماسه فى هذا المجتمع ، ودرايته بجوانب الايجاب والسلب فيه ، يتجمع له من وراء ذلك أكثر من مادة تحريرية أخرى ، ذات صلة وثيقة بتلك الفنون والأطـــر والأنماط ، التى تعرفها صفحات جرائدنا ومجلاتنا وكان من أبرزها ما يمكن أن يعتبر من جذور أو مقدمات فن « التحقيق الصحفى » ·

استخدم الرجل أدوات التحقيق ، وعرف عددا مما يعتبر الآن من أبرز عناصر هذا الفن ، نشير اليها هنا ، بعد تقديم تعريفنا الخاص لهذا الفن ، كما ورد فى مؤلفاتنا السابقة ·· ان التحقيق الصحفى هو :

« تغطية تحريرية مصورة تضيف مزيدا الى خبر جديد أو يتنـــاول موضوعا قديما أو مشكلة هامة ، وتكون أكثر من مجرد قصته أو تقرير عنه . مقدمة لظواهره ، رابطة بين أسبابه القريبة والبعيدة . ونتائجه الحاليـــة والمتوقعة ، مقدمة كذلك لآراء من يتصلون به عن قـــرب أو يثق القراء فى درايتهم بجوهره ، مع جواز تقديمها لرأى المحرر نفســه أو وجهة نظر وسيلة

النشر . ضاربة المثل بوقائع مشابهة فى الداخل أو الخارج حديثة أو قديمة، يقوم بها محرر يجمع بين صفات المخبر الصحفى والباحث وله دراية باللغة العربية وقدر من الذوق الأدبى . ومعـــــرفة بلغة أجنبية أو أكثر ومعرفة بالتصوير وبالاختزال . ويقدم بهذه التغطية مادة مفيدة ومشوقة ، وقد يوجههم بعدها الى وجهة معينة ، كما يقدم لصحيفته أو مجلته زيادة فى عدد النسخ المبيعة » (١٠) .

ولست هنا بمدع أن الرجل قد كتب تحقيقا صـحفيا مكتمـــل البنـــاء والمضمون . انموذجى الطابع أو أكثر من تحقيق صحفى واحد من مثل هـــذه التحقيقات التى نشاهدها على صفحات الجرائد والمجلات عربية ــ على ندرة الجيد منها ولا أقول الممتاز ــ أو أجنبية . على كثرتها ، خاصة على صفحات المجلات والصحف الأسبوعية .. لكننى أقول ، وفى ضوء المعطيات السابقة ، وباستقراء كثرة من كتاباته ، وهذا التعريف نفسه ، وباستثناء المســـميات والتوجهات العصرية الحديثة نفسها :

١ ــ أما عن الأسئلة والاجابات فقد استخدمها الرجل بنجاح كبير فى مجالات عديدة تعتبر من خصائص أسئلة هذه المادة الأخيرة ..

ــــ فهو قد استخدمها فى جمع المعلومات الهامة واللازمة لمادته .

ــــ وهو قد استخدمها فى التحقق من صحة ما يريد التحقق منه أو تبثه بين ثنايا مادته القريبة من هذا النمط التحريرى الصحفى .

ــــ وهو قد طرحها على جميع أطراف النزاع أو الصراع أو المشكلة ليحصل على اجاباتهم التى تغطى موضوعه .

ــــ وهو قد ناقش وناور وحاور ليحصل على ما لا يمكن الحصول عليه بالطرق العادية ، مما يعتبر من خصائص وتطورات الموضوع نفسه ، أو ما يتصل بالشخصيات ذاتها ، تلك التى كانت من صناع الحدث الذى يرتبط به موضوعه ..

أى أن استخدامه لهذا العنصر ، يذكر تماما باســــــتخدام « **المحقق الصحفى** » له .

٢ ــ وأما عن عنصر « **الأفكار الجديدة والمستحدثة والمبتكرة** » تلك التى

وضع يده عليها ، وراح يحققها أو يجمع ما يتصل بها ، الصحيح وغيـــر الصحيح ، وينتقل بنفسه الى أماكن وجودها أو قيامها ، ليســتمع ويحاور ويناقش ، فقد كان ذلك طبعه الذى جبل عليه والذى عرف عنه ·· ونظرة على مثيلات هذه الافكار كما ذكرت فى سطور سابقة ، لتؤكد موهبته فى هذا المجال ، سواء الأفكار الجديدة تماما ، أو تلك التى تناولها غيره دون أن يبقى هذا التناول أو يجذب أو يشد اليه أحد ليأتى الرجل ويقدم الجديد بشأنها مما يلهب خيال معاصريه ·

٣ ـ والقارىء لكتابات الجاحظ يدرك مما روى وقدم ووصف ونقل من الصور والمشاهد والألوان ،أنه لم يقدم الخبر الجديد فقط ، أو يلفت النظر الى موضوعه ويكتفى بذلك ، بل كان الرجل يقدم كل شىء عنه ، كل ما قرأه حوله ، وما سمعه من مختلف المصادر وما شاهده بعينى رأسه ، من مقدمات وظواهر وشواهد ونوادر وطرائف وأسباب بعيدة أو قريبة ، وقد يعرج على رأى قرأه فى مخطوط مترجم ، عن خبر أو واقعة أو قصة مشابهة ، حدثت فى بلاد الهند أو فارس أو رواها « أرسطو » الى غير ذلك كله ·· من وقائع مشابهة ، حديثة أو قديمة ، فضلا عن العربية منها ·

٤ ـ ثم ـ ومن خلال جميع المقدمات السابقة ـ من الذى يستطيع أن ينكر أن الرجل يجمع بين بعض صفات المخبر الصحفى والباحث ؟ وأما عن درايته باللغة العربية وعن ذلك القدر من الذوق الأدبى ، فلا ينكرهما الا غير سوى أو حاقد ، وذلك كله بصرف النظر عن معرفة اللغة الأجنبية والتصوير والاختزال فهذه طرق وأساليب ترتبط بالحاضر أكثر من ارتباطها بالمناخ الذى عاشه الرجل دون أن ننكر قراءته النهمة لأغلب الترجمات المعروفة فى عصره·

٥ ـ أما وقد راح يقدم هذه « التغطية » التى « قتل » خلالها موضوعاته بحثا ـ وكما يقولون ـ وطاف وحلق وجمع وتناول أكثر ما كتب وقيل حولها، من مصادرها المخطوطة ، والمتحدثة ، والمشاهدة ، فمن المؤكد أنه قدم لقرائه، فى جيله ، وللاجيال من بعده ، الكبير والصغير ، العـــالم والمتعلم ونصف المتعلم ، تلك المادة المفيدة والمشوقة والتى طوت فائدتها الحقب وقفز التشويق المصاحب لها عبر القرون نفسها ، فهل يوجد بيننا من ينكر ذلك ؟

٦ ـ وأما التوجيه المثمر ، وأما الرأى القائم على معرفة خبير ، فجميعها

قدمها الرجل ، وان اختلفت طبيعتها من مادة الى مادة ثانية ، الى ثالثة ، وفق نوعية هذه المادة نفسها وطبيعتها ، والهدف من تقديم التوجيه أو الرأى ٠٠

٧ ــ تماما كما أن من المؤكد أن توافر هذه العناصر ، فى تلك المــادة التى نقول باقترابها من فن التحقيق الصحفى ، والى حد احتسابها من جذوره الضاربة الأعماق فى الأدب العربى ، كان ذلك وراء سرعة انتشار كتاباته ، وترددها فى الافاق واقبــال القراء عليها يســتوى فى ذلك عامتهم ، أم خاصتهم ٠٠

وهكذا نرى أن بالامكان أن تصدق جوانب كثيرة من تعريف هذه المادة، على بعض الكتابات الجاحظية المتميزة ، التى أقتربت بكل ذلك ، من خصائص التحقيق الصحفى ٠

ثم ماذا ؟ ٠٠ اننا نتوقف هنا عند عدة معالم أخرى ، مما يختص به هذا الفن لنرى انعكاساتها على مرآة الكتابة الجاحظية ، أو بعض ما يدل على وجودها فى سطوره المختلفة :

٨ ــ فاذا كانت أبرز انواع التحقيقات الصحفية هى :

ــ **التحقيق الخاص أو المتخصص** : « علمى ــ عسكرى ــ رياضى ــ نسائى ــ اقتصادى ٠٠ » الخ ٠

ــ **التحقيق العام** : « العام المشوق ــ المشكلات ــ الرحلات ــ دراسة الشخصية ــ الموسمى » ٠٠

ــ **الدراسة الصحفية أو البحث الصحفى** ٠

ــ **الحملة الصحفية** ٠

٠٠ اذا كانت هذه هى أبرز أبواع التحقيق الصحفى ، فاننا نرى من خلال تعدد كتابات الرجل ، القريبة من التحقيق ، والتى تأخذ بعض معالمه ، وكذا من ضربها فى أكثر من مجال ، نرى أن هــــذه الكتابات الى الأنواع الآتية أقرب ٠٠

● فكثرة منها لا سيما تلك التى ترتبط بأمثال هــذه الموضوعات :

« البحريون ـ الهدايا ـ السودان والبيضان ـ عجائب الحيوان ـ المآكل والمشارب ـ الجن والغول ـ حانوت العطار ـ أخلاق الشطار ـ أصحاب الالهام ـ حيل اللصوص ـ الجوارى ـ القيان ـ غش الصناعات ـ السماكين ـ زنوج البصرة » الخ ‥ هذه تكاد تكون الى « التحقيق العام المشوق » أقرب وبموضوعاته ومضمونه أكثر التصاقا ·

● وبعضها الثانى ، يكاد يكون اقرب من غيره ـ وان اختلطت حدوده مع حدود أنواع من المقالات وهو أمر طبيعى بالنسبة لهذه المادة بالذات ـ يكون أقرب الى ·

(أ) التحقيقات الخاصة ·

(ب) الدراسة الصحفية ·

انها الموضوعات التى جاءت طى كتب ورسائل ومصاحف عديدة تتناول على سبيل المثال لا الحصر : « طبقات المغنين ـ الأصنام ـ أخلاق الملوك ـ الأمصار ـ الملوك والأمم السالفة والباقية ـ جمهرة الملوك ـ النرد والشطرنج ـ النبات والشجر ـ الزرع والنخل ـ المعادن ـ ··· » الخ ·

● **وبعضها الثالث** يقترب من تحقيق المشكلات ، خاصة ذات الطابع الانسانى ‥ انها مثل تلك الموضوعات وغيرها : « العادات والتقاليد والمعاملات السيئة ـ أحوال المكدين ـ أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعور والعرجان والبرصان ـ السكيرون والزناة ـ الطفيليون ـ الغشاشون ـ فتيان السوء ـ الحمارة » الخ ·

● **وبعضها الرابع** ، كان يأخذ أكثر من وجه من وجوه الشبه ، مع أكثر من نوع مختلط ، أو تختلط ببعضها ، من أنواع التحقيقات السابقة ، تماما كما يأخذ من أنواع مواد تحريرية أخرى ، لاسيما الأحاديث والمقالات‥

● ويبقى بعد ذلك ، كلمات تتصل بكتابيه الشهيرين « الحيوان والبخلاء . ما الذى يمكن أن نقوله عنهما ، فى ضوء هذا الفن التحريرى الصحفى نفسه ؟

ـــ **اما عن الكتاب الأول** : « الحيوان » ٠٠ فان الطابع الغالب عليه بأجزائه المختلفة أو « بمصاحفه » كما كان يطلق عليه صاحبه ٠٠ هذا الطابع هو أن بعضه الأول يمثل لونا من المادة الاخبارية المتصلة بأحداث الحيوان وصدامه بالانســـان ، وأن بعضه الثـــانى يغلب عليه التأرجح بين مادتين أساسيتين ، وهما الدراسة الصحفية أولا ، والمقالات الموضوعية المتخصصة ثانيا ، أما عن الدراسة الصحفية ، فقد قلنا أنها نوع متطور من التحقيقات الصحفية . لا سيما تلك التى تتناول موضوعات جذابة وشائقة ، وأما عن المقالات الموضوعية المتخصصة ، فنقول أنها هنا من نوع التخصص العام الذى نجده فى المجلات التى تحمل هذا الاســـم « التخصص العام » وليس التخصص الدقيق أو الكامل . ومن هنا ، فان بعض هذه الكتابات كانت أيضا تقترب . وتقترب بشدة من التحقيقات الصحفية ذات اتجاه التخصص العام ، والى حد اعتبارهما مادة واحدة ٠

ـــ **وأما عن الكتاب الثانى** : « البخلاء » فان الطابع الغالب على الجانب الأول منه يشبه تماما ذلك الطابع الغالب على مثيله فى الكتـــاب السابق ـ الطابع الاخبارى ـ كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم يأتى الخلاف بالنسبة للجانب الثانى الذى نجـــده يتميز باتجاهين ، ويقترب من نمطين صحفيين تحريريين ٠٠ النمط الأول هو نمط « المقال الكاريكاتورى » ٠٠ الذى سوف نتحدث عنه بعد قليل ، وأما النمط الثانى ، فيستحق أن يكون مثـــل أجزاء من « حملة صحفية » على هذه الطائفة الشحيحة ، لكنها حمـــــلة « متنوعة » المواد . ما بين خبر صغير وكبير وأحاديث قصيرة . وموضوعات اخبارية ، متوجة فى النهاية بهذه الطائفة من المقالات الكاريكاتورية نفسها ٠٠

ويبقى أن نقدم عددا من الأقوال التى تؤكد صدق وقوف مثيلات هـذه الكتابات الجاحظية ممثلة لجذور أو طلائع التحقيقات الصحفية ، ونكتفى هنا بهذه الأقوال ٠

● **أما الأول فهو عن محرر التحقيق الصحفى ٠ ٠ذلك الذى قيـل فيه وفى مادته :**

ـــ « العالم كله ميدان كاتبها » (١١) ٠٠

ـــ « ... فهناك مكتبة كاملة عن صيد الحيتان والموضوعات البحرية قد تكون فى متناول يبدك » (١٢) .

ـــ « .. لنفكر فى عبارة التحقيق الصحفى كمصطلح مرن ، فنحن نستطيع أن نجعله يمتد بحيث يشتمل على مواد صحفية كالمقالات والشعر والأقصوصة والقصص المسلية والأعمدة والنماذج والصور والرسوم الايضاحية والمقطوعات الهزلية » (١٣) .

.. ونكتفى بهذا القدر ، لنقول :

● عما نقلناه عن المصدر الأول : اى لم يعتبر الجاحظ العالم كله هو ميدان كتابته وأن قلمه قد امتد الى جميع الصور الموجودة فى مجتمعة ، أو التى سمع أو قرأ عنها ، أو ارتحل فى طلبها ؟

● وعما نقلناه عن المصدر الثانى : الم يحتفظ الكاتب لنفسه بمكتبة تتضمن كل الكتب التى ترتبط بمثل هذه الموضوعات المختلفة ، فضلا عن ارتياده للمكتبات البصرية والبغدادية ودكاكين الوراقين ؟ ثم من أين جاءت كتاباته عن الأسماك والحيوانات البحرية ، تلك التى زخر بها كتاب الحيوان ، ومنها ما جاء عن الحوت والدلفين وغيرهما ؟ .. ان ذلك يعتبر بمثابة « أنموذج » لما يكون عليه أن يفعله « المحرر المثالى » للتحقيق الصحفى .

● وعما نقلناه عن المصدر الثالث : اوليس هذا ما كان طابع كثرة من الكتب الجاحظية تلك التى قلنا أن بعضها يمثل بصدق ، « جذور » وبعضها الآخر يمثل « مقدمات » أو « طلائع » التحقيقات الصحفية ..

● وأما القول الثانى ، فهو لرائد من رواد التأريخ الأدبى ، نذكره ، ليقرر كل منا بعد قراءته ، ما الذى يختلف بين الأقوال الثلاثة السابقة فى مجموعها ، وبينه ، انه ذلك الذى يقول : « بالاضافة الى ما سبق من أقوال مماثلة » .

« يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعا عاما الا وكتب فيه رسالة أو كتابا . ومن يرجع الى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات وفى الشجر

وفى الحيوان وفى الانسان وفى الجد وفى الهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمان ، وفى العشق والنساء ، وفى السنة وفى الشيعة والعباسة والزيدية والرافضة ، وفى حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل وفى البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وفى هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عذب » (١٤) .

واذا كان بعض المؤلفين قد أخذ عنا هذه الأفكار التى طرحناها ونحن نتحدث عن قصة هذا الفن بل وما اخترناه من كلام المؤلف السابق ، وحذف ما حذفناه ، دون اشارة ، فاننا ننهى هذه الفقرة ، بسطور من هذا البحث السابق لنا . الذى وردت به هذه الاشارات وغيرها فى تعليق على أمثال هذه الأقوال نفسها :

« ... أليس معنى ذلك أنه من الممكن أن نعثر فيما كتب الجاحظ على بعض ما يمكن أن يقترب من التحقيق الصحفى ، أو ما يمكن أن نعده تبعا لمفاهيم العصر : تحقيقا صحفيا ؟ كتب بلغة عصره دون استخدام لكلمة تحقيق صحفى أو مراعاة للاشكال المعينة التى يراعيها الصحفيون اليوم والتى سبق الحديث عنهما ؟ وهل يكتب محرر التحقيق الصحفى أكثر من ذلك . أو فى غير هذه الموضوعات ؟ » (١٥) .

● .. وأما **القول الثالث** ، فهو لأحد المهتمين به ، وبكتاباته ، وان كان هنا يتناول أيضا كتاب « الحيوان » ..

يقول الرجل عن هذا الكتاب : « اذا شاء القارىء أن يجد فيه مبحثا علميا عن الحيوان فقد خادعته نفسه » (١٦) .

ويضيف قائلا : « فالجاحظ لم يكن اخصائيا بل عالما موضوعيا يلم من كل فرع بطرف على نحو ما عرفه القرن الثامن عشر فى فرنسا مثلا » (١٧).. يقصد بذلك الطائفة المسماة بـ « **الانسيكلوبيديين** » : **Encyclopediste** وهم الذين قلنا أنهم كتاب المجلات الأولى ..

نعم ، لن يجد القارىء مبحثا علميا بالمعنى المعروف ، وانما سـيجد

« مبحثا صحفيا » أو « دراسة صحفية » ·· وهى نتاج تطور طبيعى للتحقيق الصحفى المتخصص ، كما سيجد « مقال تخصص عام » أو « مقالة موضوعية» وهى من جنس مقالات المجلات وبعضها تذوب الحدود بينه وبين التحقيق الصحفى تماما ، والى حد اعتبار التحقيق والمقالة الموضوعية بمثابة اسمين لمادة تحريرية واحدة ، بل ان هذه المقالة وان التحقيق الصحفى لتختلط ألوانها اختلاطا شديدا مع « مقالات التخصص العام » أيضا ، لا سيما « التحقيقات العلمية » ·· التى أشرنا اليها خلال السطور السابقة ··

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « الجاحظ » ومقدمات وطلائع فن التحقيق الصحفى ، بعد أن تناولنا هذا الجانب أيضا فى أكثر من كتاب سابق لنا ، ولا يبقى بعد ذلك الا أن نحيل القارىء العام أو الدارس الى عدد من كتاباته الاجتماعية ، وتلك التى تناولت صور ومشاهد عصره ومشكلاته أيضا، فسوف يجد فيها الكثير ، مما يقترب من هذا الفن « القياسى » فحسبنا ما ذكرناه منها ·

(حـ) كتابات الجاحظ وفن المقال الصحفى :

(١)

ويبقى بعد ذلك ، هذا الجانب من جوانب الابداع الجاحظى ، أدبا وصحافة معا يبقى موقف كتابات الرجل من هذا الفن الصحفى المتقدم ، بأنواعه العديدة والمختلفة وأين تقع منها ؟ وما مستواها ؟ ، وما الخصائص التى ترتبط بها ؟·· لكن من الطبيعى ــ قبل ذلك كله ــ أن نمر مرورا عابرا على بعض تعريفات هذا الفن ، وعلى ما تعنيه الكلمة نفسها ، واستخداماتها العربية ··

● ان المقصود بالكلمة ·· الكلام المنطوق أو الشفهى الذى يقصد به احداث تأثير معين ، ثم أخذت الشكل الكتابى أو المدون بعد ذلك ، للدلالة على ألوان الكتابات الأدبية المختلفة ، التى مارسها الكتاب خلال نهاية العصر الأموى ، وعلى مدى العصور التالية خاصة العباسى ·· ومن هنا ، ومنذ العصر الجاهلى ونحن نطالع أمثال :

« مقالة صدق ـ مقالة حق ـ مقالة سوء ـ مقالة شر ـ ... الخ » .
وقد وردت شعرا من مثل قول أوس بن حجر :

« ويكفى المقالة أهل الدحـــا ل غيـــر معيب ولا عـــائب »

وكذا قول شاعر آخر :

« أم تجحدون مقالة من ربكم جبـــريل بلغها النبى فقالها »

كما وردت فى حديث « النبى محمد صلى الله عليه وسلم » وفى خطبة « عمر بن الخطاب » فى بيعة « أبى بكر الصديق » حيث قال : « اما بعد فانى قائل لكم اليوم مقالة قد قدر لى أن أقولها » ... الخ .

● وأما عن تعريف المقال الأدبى فهو :

ـ « فن من فنون التأليف الأدبى يكتب نثرا ويعطى افكار المؤلف ومشاعره فى أى موضوع من الموضوعات » (١٨) .

ـ « شكل أدبى يستخدم النثر عادة فى توصيل الفكر من خلال طول معتدل يدور حول موضوع محدد ، ويكون الموضوع عادة اخباريا أو تعليميا أو تحليليا أى أنه يجمع بين الرأى والخبر » (١٩) .

● **وأما عن تعريف المقال الصحفى فهو ، « بالاضافة الى ما سبق ذكره عنه :**

ـ « المقال اسم يطلق على الكتابات التى لايدعى أصحابها العمق فى بحثها أو الاحاطة التامة فى معالجتها ، ذلك لأن كلمة مقال تعنى محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية » (٢٠) .

ـ « انشاء متوسط الطول يكتب للنشر فى الصحف ويعالج موضوعا معينا بطريقة مبسطة على أن يلتزم الكاتب حدود الموضوع » (٢١) .

ـ « الأفكار والخواطر والآراء ووجهات النظر المتصلة بفكر الكاتب

من جهة وينبض القراء واهتماماتهم من جهة أخرى ، وهو يكتب للنشر فى الصحف والمجلات أولا ، فى وقت معين ، وتختلف أطواله من مقال الى آخر، وفق نوعية وطبيعة المادة المطروحة به » (٢٢) ٠

— « المادة التحريرية التى يقدمها كاتب صحفى استنادا الى فكرة يحصل عليها من خلال حضوره الذهنى الصحفى ومعايشته للاحداث وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته وخطابات القراء ومكالماتهم الهاتفية وما يرد عبر الأثير وذلك فى اطار يفسرها للقراء ويحيطهم بأبعادها ويوجههم بشأنها وقد يقوم بتأييدها أو معارضتها بطريقة تحمل طابعه فى التفكير وأسلوبه فى التعبير وذلك للنشر فى الوقت المناسب متلائمة مع طابع الصحيفة او المجلة واهتمامات القراء وصالح الفرد والمجتمع » (٢٣) ٠

(٢)

أردت بهذه المقدمة الطويلة نسبيا ان اسجل هنا بعضا مما سبق تسجيله على صفحات كتاب لنا ، من تعريفات مختلفة للكلمه والنوعين من المقالات معا ، حتى يمكن أن نضع أيدينا على أهم معالمهما معا ، وعلى الصلات القائمة بينهما ، لنرى بعد ذلك . الى أى حد توفرت أمثـــال هذه المعالم للكتابات الجاحظية ، التى نقول أنها يصح أن تكون من جذور ومقدمات وطلائع مقالات اليـــوم ٠٠

اننا وبصرف النظر عن بعض ما يتصل بمعالم صحافة اليوم . مما جاء فى هذه التعريفات وكذا ما يتصل باستخدام بعض المصطلحات الجديدة . التى ترتبط بالجوانب الصحفية العصرية ٠٠ وفى ضـــوء ما يقدمه لنا التراث الجاحظى » المتعدد والوفير ، نستطيع أن نقول :

● انه بصرف النظر عن جذور بعض المواد التحريرية السابقة التى كان الطابع الانتاجى الجاحظى فيها يغلب عليه طابع الجمع والنقل ، وما يسبقهما من رصد ، واثبات ثم تحرير فان الطابع الانتاجى الجاحظى هنا يختلف كثيرا اذ هو طابع ذاتى تعبيرى كامل ، وصحيح أنه يقوم على نفس عناصر الانتاج والمصادر المختلفة ، الخاصة (كدقة الملاحظة) ٠ والبشرية (من أخذ عنهم من علماء ورواة وقصاصين) والمخطوطة (القرآن الكريم

والحديث النبوى والكتب والرسائل المؤلفة) .. لكن تبقى بعد ذلك رؤيته الذاتية الخاصة فى كل ما سبق وحصل عليه ، بل ولمـــاذا لا أقول ، رؤيته الموضوعية أيضا ؟ .. ومن هنا ، من خلال الرؤيتين ، الذاتية والموضوعية تحقق ما نقول من انتاج النوعين من المقالات معا ، الأدبية والعلمية لينبثق منهما فى أحيان كثيرة ـ رغم نشر الصحف لهما أيضا ـ ما نطلق عليه تعبير مقدمات المقال الصحفى ، تلك التى ارتفع مستوى بعضها الى حد كبير ..

● وفى تعبير آخر نقول ، أنه اذا كان الجاحظ فى مادته التى اقتربت من الفنون السابقة بمثابة هذا « الجامع الماهر » .. فانه هنا ذلك الرجل نفسه وكذا المفسر والمعلق والمحلل والناقد والمؤلف معا .

● وأما عن كتابتها نثرا وأنها تعطى أفكار المؤلف ومشاعره فى أى موضوع من الموضوعات ـ كما يقول تعريف الموسوعة الثقافية ـ فقد كانت كذلك عند الرجل أيضا ، بل يمكننا القول ، من خلال النتاج الجاحظى أيضا ، أنها ـ المقالة الجاحظية ـ جمعت أبرز الخصـــائص التى جاءت ضـــمن التعريفات الأخرى ، التى تلت التعبير السابق بل وتجاوزتها الى غيرها من خصائص أخرى ومثال ذلك ، بالاضافة الى ما سبق :

— الطول المعتدل (فى أحيان كثيرة والمتغير وفق الضرورة) .

— الموضوع المحدد (فى أغلب الأحوال) .

— الطابع الاخبارى والتعليمى والتحليلى (اضاف اليها الطابع العلمى والتفسيرى والنقدى والفكاهى والطابع العام أيضا) .

— والرجل لم يدع العمق فى بحثه دائما ، أو الاحاطة التامة به ، وانما اشار الى بعض ما يكتنفه أحيانا من مثالب ، ونبه الى ما يمكن أن يقوم من ثغرات ، مرتبطة بمصادره ، خاصة البشرية ، والمترجمة . لكن هذه المادة المقالية الجاحظية ، كانت أيضا وفى كثير من الأحوال تكاد تمثل « محاولة » لتناول موضوع جديد على الكاتبين من أمثاله ، أو لم تعرفه غير القلة منهم لصعوبته ، أو قلة مصادره ، أو غرابته ، أو توقع عدم احتفاء الناس ـ خاصة علية القوم من أمراء ووزراء وأثرياء وهم الـــذين يهمون هؤلاء بالدرجة الأولى ـ بينما كان « جمهور » الكتابة الجاحظية يتكون من هؤلاء وغيرهم وحتى من عامة القراء أيضـــا ، الذين أقبلوا على ألوان انتاجه لأنه طرق

موضوعات تهمهم ، وهى فى نفس الوقت كتابة تعكس تجربة « ميدانية أولية» أو « تطبيقا مبدئيا » كما يقول أحد التعريفات السابقة ٠

ـــ وأكثر المواد الجاحظية التى اقتربت من هذه المقدمات والطلائع المقالية الصحفية كانت كذلك مما استند الى فكرة حصل عليها من وراء هذا الحضور الذهنى الأدبى والصحفى معا ، وكذا من خلال معايشته للاحداث وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته ٠٠ كما جاءت كذلك تحمل طابعه فى التفكير وأسلوبه فى التعبير ٠٠

ونكتفى بهذا القدر من الاشارة الى بعض خصائص المادة المقاليـــة الجاحظية ، فى ضوء التعريفات السابقة ، وننتقل الى موضوع آخر هو :

(٣)

٠٠ وقد يسأل سائل : ما هى أبرز أنواع المقالات الحالية ، التى تقترب المادة الجاحظية منها ، حتى ليصبح أن تعتبر من مقدماتها أو طلائعها ، وليس من جذورها فقط ؟ ٠٠٠ دعونا نتقدم خطوة نحو المادة المقالية الصحفية ، فى ضوء هذه الكتابات الجاحظية ، ليكون السؤال هو : هل اقتربت بعض أنواع هذه الكتابات اقترابا شديدا من مقالات اليوم والى الحد الذى يجوز معه أن نطلق عليها أمثال هذه التعبيرات الحديثة ؟ ، وما هى هذه الأنواع ؟

٠٠ ومرة أخرى نعود الى المعين الجاحظى نفسه ، وبطبيعة الحال ، فلن يمكننا العودة اليه كله ، وانما نتوقف عند بعضه فقط لنقول :

اننا ـ كبداية ـ نستعرض معا أبرز أنواع المقال الصـــحفى ، لتكون الخطوة القادمة هى رؤية أيها أقرب الى كتابات الرجل ؟ أو أيها كانت كتابات الرجل أقرب اليه ، حتى لتصبح من جذوره ، او تتجاوزها الى المقـــدمات والطلائع ، أو يتجاوز هذه بعضها ، الى أن يصبح مثل مقالات اليوم ، شكلا ومضمونا ؟

ان أهم هذه الأنواع هى « من وجهـــة نظرنا وممـــــا قمنا بحصرد وثبته » (٢٤) ٠

- **المقال الصحفي العام .**
- **المقال الافتتاحي أو الافتتاحية .**
- **مقال التعليق او التعليق الصحفي .**
- **المقال التفسيري .**
- **المقال القائد الموقع .**
- **مقال العمود أو مقال الفقرة القصيرة .**
- **مقال التجربة الخاصة « اليوميات الصحفية » .. الخواطر والتأملات .**
- **المقال التحليلي .**
- **المقال العرضي أو الاستعراضي .**
- **المقال المختصر .**
- **المقال المتخصص .**
- **مقال الفكاهة .**
- **المقال المهني « في غير الافتتاحيات » .**
- **مقال المناسبات .**
- **المقال الاعلاني .**

واذا كانت هذه هي أهم أنواع المقالات الصحفية وليست جميعها . واذا كانت بعض هذه الأنواع ، تمثل أصدق تمثيل وافضله ما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي ، واذا كانت حدود بعضها تمتد وتتشابك مع حدود البعض الآخر ، حتى ليصعب الفصل بينها ، كما يتفرع بعضها – من جهة أخرى – الى أنواع جديدة اذا كان ذلك كله مما يتصل بهذه النوعيات المختلفة ، فاننا نقول :

● أما عن هذه الأنواع نفسها ، وأين تقف منها ألوان الكتابة الجاحظية . أو المادة الجاحظية المقالية . فاننا نقول بشأنها ، اننا ومن خلال النظرة الفاحصة والمدققة ، وفي ضوء أبرز خصائص كل نوع من انواع هذه المقالات الصحفية . وما يتصل به من ملامح وأبعاد .. وما يفرق بين كل نوع منها ، نلاحظ أن بالامكان القول . بأن المادة الجاحظية لها وجودها ، ولها كيانها . ولها موقعها ضمن ما ورد بهذه القائمة السابقة لكن – من زاوية أخرى – فان هذا الوجود نفسه ، وهذا الكيان ذاته ، وهذا الموقع الذى احتلته . لم يكن وفي جميع الأحوال وبالنسبة لجميع ألوان الكتابة الجاحظية على درجة واحدة . أو يحتل نفس المساحة ، او يقترب اقترابا نمطيا ، وفي جميع الأحوال من هذه الأنواع من المقالات الصحفية ..

هو وجود نعم ، اقتراب أيضا . لكنه اقتراب يختلف من مقال لآخر ، أو من نوعية لاخرى ، شدة أو ضعفا ٠٠ ومن هنا نقول ، أن هناك أربع درجات من الصلة القائمه بين أنواع هذه المقالات الصحفية من جانب ، وبين ألوان الكتابة الجاحظية من جانب اخر ، وهذه الدرجات هى :

● مقالات نفصل بينها وبين النتاج الجاحظى مسافة بعيدة ، وذلك بوضعها الحالى ، وصورتها التى تعرفها عليها صحافة اليوم ، على الرغم من وجودها فى الدائرة الجاحظية ٠

● مقالات اقتربت منها الكتابة الجاحظيه اقترابا معقولا وطيبا ٠

● مقالات وقفت الكتابات الجاحظية فى نفس مواقعها واحتلت نفس مساحاتها بحيث تعتبر هذه الاخيرة بمثابة مقدماتها أو طلائعها الكاملة ، او بدايتها الحقيقية ٠٠

● مقالات شـــكلت وضعا آخر ، حيث اختلفت صـــلتها بالكتابة الجاحظية ، من مقال لآخر من بين نوعيتها الواحدة ٠٠

(٤)

لانترك هذه الانواع ، ولا تلك الصلات ، دون وقفة أخرى تزيد الأمر وضوحا وتحاول أن تضيف جديدا مفسرا الى الكلمات السابقة ، ومن هنا ، ودون أن تطغى نوعية على نوعية أخرى ، وباعطاء كل ما تستحقه من اهتمام ومساحة أيضا . من هنا نتوقف لنقول :

●● أما عن النوع الأول من أنواع هذه المقالات ، وهى التى تفصل بين المادة الجاحظية وبينها مسافة بعيدة ، على الرغم من وجودها ، او - على الأصح - وجود ما يشبهها فى الكتابات الجاحظيـــــة ٠٠ فقـــد كانت هى وباختصار شديد يتلاءم مع هذه الصلة نفسها ٠

(أ) المقال المختصر :

ويعنى ما يقدمه محرر من المحررين أو كاتب من الكاتبين من تقديم لمادة كاتب اخر بحيث يغلب عليها طابع الاختصار لأهم ما جاء بالمادة الأولى ،

وهى فى أغلب الأحوال - كتاب جديد لكاتب عربى ، أو كتاب مترجم لأجنبى ، بحيث يقوم المحرر بتقديم أهم أفكاره ، وعرض أهم القضايا التى تناولها ، بينما يقتصر دوره عند هذا الحد ، ولا يتعداه الى نقد هذا الكتاب نفسه ، أو الحكم له أو عليه ، وواضح أن الهدف منه هو هدف تعريفى ثقافى بالدرجة الأولى . يرتبط ارتباطا شديدا باحدى صور النشاط الصحفى الحديث ، فى مجال الأدب أو السياسة أو الاقتصاد أو الفن ، خاصة المجال السياسى ، لاسيما تلك الكتب التى تؤلف عن أحداث الساعة أو قصص حياة الزعماء ، أو مذكراتهم ، وما الى ذلك كله ، وفى الغالب يؤلفها أقرب الناس اليهم ، أو بعض من التقى به من الصحفيين أو هم أنفسهم .. ومن هنا فاننا لم نجد - الا قليلا - أمثال هذه المقالات المختصرة ، فى ألوان الكتابة الجاحظية .. وان وجد ما يشبهها فى بعض رسائله السياسية ، أو التى تناولت الشعوب والأقوام المختلفة .. وواضح أيضا ، أن ذلك يختلف عن مجرد تقديمه لبعض أفكار الآخرين ، أو ما قاموا بطرحه أو تناوله من قضايا خلال كتبهم أو رسائلهم .. مما كان يأتى عرضها ، فى ثنايا أو تضاعيف كتاباته المختلفة ، لأن الفرق كبير بين هذه الصور ، وبين المقالات المختصرة ، التى تفرد لحالها ، ويكون الاختصار هو الأصل والأساس فيها ، كما ترتبط هى بخصائص هذا المقال الفنية ، شكلا ومضمونا ، وجميعها كانت تفصل بينها وبين كتابات صاحبنا مثل هذه المسافة البعيدة .

(ب) مقال المناسبات :

وهو أيضا ، بالشكل الذى تعرفه به صحف ومجلات اليوم ، لم تعرفه الكتابات الجاحظية ، الا قليلا جدا .. وحتى فى هذا القليل ، فانه كان يقف على هامش مناسبة سياسية ، أو تتصل بالفرق الاسلامية عامة ، والمعتزلة خاصة . بينما تتعدد صور هذا النوع من أنواع المقالات وتتسع حتى لتغطى جميع المناسبات الموجودة فى العالم كله ، ولعل ذلك يعود الى سببين أساسيين . أولهما : سبب ظرفى ، زمانى ، حيث لم يعرف عصر الرحل ، مثل ذلك العدد الكبير من المناسبات التى نعرفها الآن ، والتى شاعت أيام الدويلات الاسلامية . ثم أضاف لها « العصر الفاطمى » كثيرا . فضلا عن المناسبات « العصرية » القائمة اليوم ، أو « المواسم » التى تتناولها كتابات الكاتبين

مثل : « الربيع ـ الصيف ـ دخـــول المدارس ـ الأوكازيونات ـ الأعياد القومية ـ الأعياد الدينية ـ ·· الخ » وأما ثانيهما : فهو أن الصــحافة مضطرة على سبيل التغطية الكاملة لمثيلات هذه المناسبات ، أن تتناولهـا بمختلف الأطر والأساليب التحريرية ·· ومنها المقال ولم يكن الحال كذلك على عهد الرجل ، ولا كانت هـذه اهتمـامات أوعيتهـم الصــحفية التى أنتشرت فى عهدهم ·· باستثناء الأعياد الدينية فقط التى كانت لها أطرها الروتينية المحدودة ·

(هـ) المقال الاعلانى :

·· وبالمثل كان عهد الرجل ، وعهد هذه الأوعية الكتابية التسجيلية أو الصحفية « جوازا » المعروفة فى عصره ، وكان موقفه وموقفهم من هذا النوع من أنواع المقالات التى تكتب بهدف الاعلان عن نشاط أو مؤسسة أو جهاز أو سلعة معينة ، أو من أجل تسويق انتاج كل منها ، حيث لم تشـارك هذه الأنشطة بالشكل الذى كان معروفا على عهدهم أو عرفه العصر العباسى وقت حياة الجاحظ ، ومن ثم فان هذا النوع يخرج عن مجال النشـاط الكتابى الجاحظى ·

وواضح كذلك ، بالاضافة الى هذا السبب الزمنى ، أن انتشار هذه الأطر الفنية التحريرية الاعلانية ، سـببه الرغبة فى الافادة من امكانيات وأساليب هذه الفنون والأطر فى اجتذاب القارىء ، ورفع درجـــة قابليته للقراءة ، واضفاء بعض ملامح الفكر المقالى على المادة الاعلانية ، كمحاولة لزيادة الاقبال عليها ، فتحدث المادة أثرها ، فى جمهور القراء والمستهلكين عن طريق اصطناع مثل هذه الأساليب ·

●● أما عن النوع الثانى من أنواع هذه المقالات ·· المقالات التى أقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا ·· فقد كان من أبرزها ، هذه كلها ·

(أ) المقال الصحفى العام :

على الرغم من أن كتابات الجاحظ فى مجموعها ، كانت تأتى ضمن

اطار كتاب او جزء من كتاب أو رسالة أو ما شابه ذلك ، وأن هذه كانت لها وحدتها الموضوعية كما يبدو لأول وهلة ، وكمــا هو المفروض أن يكون ، استنادا الى عنوان الكتاب ، او عنوانات مصاحفه أو فصوله ، على الرغم من ذلك كله ، الا أن المتتبع لآثار الجاحظ الكتابية فى كثير من الأحوال ، يجد انها كانت ترتبط بمثيلات هذه الخصائص :

— التنوع داخل اطار او حدود المادة الواحدة . والخــروج من موضوع الى موضوع أو وكما يقول التعبير الصحفى الحديث من فكرة الى فكرة .

— جعل الصور العديدة . القريبة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة هى المجال الاطارى للمادة الجاحظية ، والدائرة التى تدور فيها الكتابات ، على الرغم من ارتباطها الظاهر . أو على الورق فقط ، بموضوع اساسى .

— التوالد الكبير للفكرة الواحــدة ، وتفرعها الى أكثر من فكرة جزئية . قد تؤدى بدورها الى أفكار عديدة أخرى قد تجد لها مجالا داخـل المجال الاطارى للمادة الجاحظية الواحدة .

— اختراق ذلك كله ، بالتعبير المبدع عن الذات احيانا .

— تقديم « استعراض » لثقافة الجاحظ وقراءاته من هنا وهناك .

— تقديم بعض الصور القلمية المرسومة جيدا ضمن اطار المـادة نفسها لبعض الشخصيات التى يعرفها أو يتحدث عنها موضوعه أو يذكره بها

— المرور ببعض « المحطات » السياسية ، أو المذهبية . أو تلك التى تتصل بعدد من المشكلات القائمة والمحتدمة .

— اعطاء الأمثلة والشواهد العديدة من تلك التى تسعفه بها قراءاته العديدة والمتنوعة ..

وليس شرطا ـ بعد ذلك كله ـ أن تأتى هذه الموضوعات ضمن اطار مادة واحدة فى جميع الأحوال . بل الحق يقال أن كثرة منها كانت تجىء ضمن

اطار موضوعات جاحظية عديدة ، لتذكرنا بأن كتاباته كانت صورة عصره ، وأن العالم الذي عاشه الجاحظ ، كان هو ميدان قلمه الذى عبر عنه أصدق تعبير ، وانتقل خلال مدنه وقصوره ومساجده وحوانيته ودهاليزه وحضره وبدوه وصوره الوردية والبيضاء والرمادية ، بل والسوداء أيضا ٠٠

ولعل ذلك كله ، يتحدث ليقول لنا ، أن هذا النمط الكتابى الجاحظى ـ وبصرف النظر عن المسميات والأطر التحريرية الجديدة ومتطلبات الصحافة الحديثة ـ هذا النمط الكتابى الجاحظى ، قــد اقترب كثيرا من ذلك الذى اطلقنا عليه تعبير « المقال الصحفى العام » ، الذى يعد الآن من ابرز أنواع المقالات الصحفية ، وأكثرها نشرا وأنتشارا وسيطرة على الصفحات ، يكتبه محررون وكتاب وأدباء وعلماء ، لكنه لا يتوقف عند اهتمامات أحدهم فقط ، وانما يضرب فى ميادين عديدة ، ويخرج من موضوع الى آخر ، وهكذا ، حتى فى اختلاطه أحيانا بغيره من أنواع المقــالات ، حتى فى بعض جوانب الجاذبية ، حتى فى عمومية قارئه ٠٠ كل ذلك نجده يتمثل الى حد غير قليل ، فى أمثال هذا النمط الكتابى الجاحظى ٠٠

(ب) المقال العرضى أو الاستعراضى : « الاستطرادى » :

ولا نقصد به هنا « المقال العرضى » بفتح العين والراء ، والذى يطلق عليه أيضا المقال « النزالى » بمعناهما المعروف والمتجه الى امتشاق القلم ومنازلة الكاتب الخصم ، وانما نقصدالمقالات « العرضية » بتسكين الراء ، أى بمعنى الاستعراضية وهى مقالات صحفية شهيرة ، تعرفها الصــحافة الأجنبية ، خاصة صحافة المجلة ، وفيها يقوم الكاتب بعمل « عرض » للقارىء أو « استعراض » يقدم خلاله عرضا كبيرا لفكرة او لأكثر من فكرة ، يتبعها بموضوع يتناول مشكلة أدبية أو ثقافية أو اجتماعية ، ثم يخرج منها الى عرض مسهب لقضية من القضايا التى تشغل باله أو بال أحــد القراء أو الأصدقاء أو المعارف ، وقد يعرج على جانب من الجوانب الانســـانية أو السياسية أو المذهبية أو تلك التى تتصل بالشعر أو النثر ، أو بشاعر أو بناثر أو بشخصية ما ٠٠ وهكذا وقد يركز ولكن فى اسهاب واستطراد على صورة واحدة من هذه الصور ، أو مشهد أو شخصية أو قضية أو فكرة واحدة ، بحيث تستغرق المجال كله بمادتها المسهبة وجوانب الاستطراد فيها ، تلك التى

يكاد الرجل « يقتلها بحثا » لكن الرباط الوحيد الذى يربط بينها جميعا ، الموضوعات المختلفة أو الموضوع الواحد والذى تشد اليه أيضا ، ويحرص الكاتب عليه هو رباط العرض ، فهو يعرض لهذه كلها ويتوقف عند حـــد العرض ، دون أن يتعداه الى مجال آخر ، لكن من الطبيعى أن يتداخل العرض أحيانا مع غيره من « القوالب الفنية » ٠٠ أو يتشابك مع بعضـــها لاسيما « الوصف » فهما ـ تقريبا ـ وجهان لعملة واحدة ، لكن مع بقـــاء الطابع العرضى الغالب والمسيطر ٠٠

ومن الذى يستطيع أن يقول ، أو يزعم ، أن كتابات الرجل قد خلت من هذه التى تقف بالقرب من هذا النمط المقالى ؟ وبالقرب الشديد أيضا ؟ أو من ذا الذى يمكنه أن ينكر وجود هذه الخصائص فى العديد من صور كتاباته ، تلك التى زخرت بها مؤلفاته العديدة ؟ ٠٠ بل لماذا لا نقول أن أكثر مادة الرجل الكتابية هى من هذا النوع الاستعراضى الاستطرادى وان نحن قمنا بـ «فك» عدد من اجزائها لوجدناها بهذه المقالات شديدة النسب !!

(حـ) المقال التحليلى :

والمتابع لكتابات الرجل ، خاصة فى رسائله المتنوعة ، وكتبه الأقـــل حجما من موسوعاته من مثيلات « الحيوان ـ البيان والتبيين ـ البخلاء » وما شابهها ٠٠ المتابع لهذه النوعية من النتاج الجاحظى من لدن :

« الصرحاء والهجناء ـ مفاخرة السودان والحمران ـ حق الخئولة والعمومية ـ أقسام فضول الصناعات ـ القحطانية ـ العدنانية ـ العرب والموالى ـ الزيدية ـ الرافضة ـ خلق القرآن ـ الوعد والوعيد ـ الحجة فى تثبيت النبوة ـ العثمانية ـ العباسة ـ فخر السودان على البيضان ٠٠٠ » وغيرها :

● يجد أن بعضها الأول ، وكما أشرنا الى ذلك من قبل يمت الى « الدراسة الصحفية » أو « البحث الصحفى » بصلة نسب قوية ٠

● ويجد أن بعضها الثانى يمت الى « مقالات التخصص العام » بمثل هذه الصلة ٠

● ويجد ـ فى النهاية ـ أن بعضها الثالث ، لا يقل صلة عن سابقيه، ولكن بماذا ؟ بالمقال التحليلى نفسه . أو المقالات التحليلية ذاتها ·

واذا كان النوع الأخير من المقالات هو ما يهمنا بالدرجة الأولى خلال هذه الفقرة ، فاننا نضيف الى ذلك قولنا ··

ان من أبرز خصائص هذه النوعية من المقالات ما يلى :

ـــ حاجة هذا الموضوع التى يستشعرها الكاتب هنا الى الايضاح والتفسير من جانبه ، لصالح هذا الرأى العام أيضا ·

ـــ أن الموضوع تكون له جذوره وامتداداته واصوله كما تكون له تشعباته العديدة التى يصعب على القراء فهمها دون قيام احد المتمرسين والفاهمين بشرحها والقاء أكثر من ضوء عليها ، فى صيغة العارف بها وبتطوراتها وحقائقها ودقائقها أيضا ·

ـــ ان الموضوع يحتاج من كاتبه الى أكثر من اضافة أخرى بعضها يقدم فيه مادة مقارنة بما حدث أو وقع فى مكان أو زمن آخر ، أو ما تناوله كاتب أو مؤلف آخر ، بما فى ذلك من رؤية للواقع المكانى ،

ـــ وانه يحتاج الى هذه المقدرة التحليلية من كاتب خبير يلم بأفكاره كلها ويخرج منها بعدة شواهد وأمثلة تتصارع فيما بينها وتتشابك ، وتتوالد، ثم تقدم صورا ومفاهيم وتوقعات جديدة ، فى صورة نتائج هامة ، ادت اليها المقدمات التحليلية السابقة فى مجموعها ··

ـــ دون ان يتجاهل خلال ذلك كله ، تقديم رأيه فى ذلك الذى يتوصل اليه ، وان يكون الخط التحليلى هو الهام والمسيطر من اول المقال حتى آخره ·

هذه ـ باختصار ـ بعض معالم تلك النوعية من المقالات الصحفية الحديثة ولعله مما يذكرنا بهذه الصلة بين بعض الكتابات الجاحظية وأمثال هذه المقال ما تقوله أستاذة فى الفن الصحفي عن معرفة الصحافة العربية بها ، على يد الكاتب السورى فرح انطون فى مجلة الجامعة . ومن أمثلة ما كتبه تحت عنوان : مستقبل العامل والفلاح فى مصر ·· حيث بدأ بشرح سبب اختياره لهذا الموضوع فقال : لا تنصرف المجلات للسياسة البحتة،

ففى مباحث الجرائد الكبرى غنى عن مباحث المجلات فى هذا الشأن»(٢٥)٠٠ انه يوضح الصلة بين الدراسات والبحوث الصحفية من جانب ، وبين هذه المقالات التحليلية من جانب آخر ، وبدورنا نقول ، والصلة بالكتابات الجاحظية من هذه النوعية أيضا ٠٠

وتضيف الباحثة نفسها عن محرر هذا النوع من المقالات ومما لا يبتعد كثيرا عن الجاحظ واستعداده لكتابتها وأغلبها _ ولا أقول كلها _ سياسى الطابع :

« ما كل محرر صحفى يستطيع أن يقوم بهذا النوع من المقالات الصحفية _ لديه الكثير من المصادر الهامة فى مجال العمل الصحفى بداخل البلاد وخارجها _ المقدرة للادراك الكامل للبعد الحقيقى للاحداث وصانعيها وأن يداوم على القراءة والاطلاع لمعايشة أصول القضايا الهامة فى كافة المجالات، خاصة مجال السياسة ومجال الاقتصاد _ أن يكون ملما بأسس البحث العلمى وأصول استخراج الحقائق من بطون مراجعها الاكاديمية ودورياتها المتخصصة _ بمعنى أن يكون فى المقال دسامة الابحاث العلمية _ الخ »(٢٦)٠

ألا يأخذ الرجل _ كما رأينا _ من هذه الجوانب بنصيب كبير ٠؟ باستثناء هذه المسميات الحديثة ، التى لم يكن عهده أو عصره يعرفانها ؟ ٠٠ لكن ، اذا كانت الشواهد الجاحظية نفسها هى خير الادلة على صحة هذا الاقتراب الجاحظى من المقالات التحليلية ، فلا يسعنا الا أن نحيل القارىء ، على مثيلات هذه الرسائل السابقة خاصة ذات الطابع السياسى والاجتماعى ٠

والآن نقدم جزءا من واحدة من هذه المقالات ٠

●● جزء من مقال عرضى _ استعراضى _ فى بعض المسائل اللغوية، ومحاولات أصحاب اللثغات اخفاء عيوبهم واصطناع كلمات أخرى ، لا تظهر هذه اللثغة : « الجاحظ _ البيان والتبيين حـ ١ » ٠٠ مختارات ٠

« ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ . وأن مخرج ذلك منه شنيع وأنه اذ كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة . وانه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لابد له من مقارعة الأبطال . ومن الخطب الطوال . وأن البيان يحتاج الى تمييز وسياسة . والى ترتيب ورياضة . والى

تمام الآلة ، واحكام الصنعة ···· - وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، لنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسايد ، مع لباس التقـوى وطابع النبوة ، ومع المحنة والاتساع فى المعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبى صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيـه آيات مبينـة كانت بداهتـه تنبيك بالخبـر

ومن أجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحـروف حقوقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف منطقة ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأنى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ···· الخ ·

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه ، وقوم لسانه أخرج الراء ، وقد ذكره فى ذلك أبو الطروق الضبى فقال :

عليم بابـدال الحـروف وقامع
لكل خطيب يغلب الحـق باطله··

ثم يعود الى حديث واصل قائلا : « وكان اذا أراد أن يذكر البر قال : القمح أو الحنطة ، والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية ، هذا وهو يعلم أن لغة من قال بر ، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة ·· - وقال عمر بن الخطاب رحمه الله أترون أنى لا أعرف رقيق العيش ؟ لباب البر بصـغار المعزى - وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذق ، فقال : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن · ما عاب هذا مسلم - وقالت عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا - وأهل الأمصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ··· الخ » (٢٧) ·

●● **والآن يأتى دور حديثنا عن « النوعية الثالثة » من هذه المقالات،** وهى التى قلنا أن كتابات الجاحظ قد اقتربت منها بشدة ، والى أدنى حـد ممكن ، لتمثل بعض هذه الكتابات الجاحظية ، الطلائع المتقدمة جدا لهـذه

المسميات الحديثة . أو الأطر والأشكال المقالية التى تعرفها صحف اليوم ومجلاته ، على اختلاف أنواعها ، كما يكاد البعض الآخر من هذه الكتابات الجاحظية ، أن ينطبق على الحالى من نوعيته تمام الانطباق ـ كتعبير رجال المنطق ـ ولما كانت أكثر الشواهد تؤكد أن الرجل لم يسبقه الى هذه الكتابات كاتب آخر على عهده ، أو فى عهد قبل ذلك العهد ، بنفس القدر من الكم والكيف معا . أو بنفس الدرجة من الوضوح والاكتمال ، التى تبدو فى كتابات الجاحظ ٠٠ فانه لا يسعنا الا أن نشيد بهذه الاسبقية له أيضا ٠

على أن هذه النوعية الثالثة ، انما تتمثل فى :

(أ) المقال النقدى : « الصحفى »

ونعنى به هنا أولا ، وقبل غيره من الأنواع ، النقد الأدبى الصحفى أو نقد النصوص الأدبية ، أو القطع أو الأعمال الفنية الأدبية كما يظهر على صفحات الجرائد والمجلات وليس كما يقول « تاريخ الكلمة » ٠٠ وحيث كانت قبل هذه الاستخدامات . وما تزال أحيانا تستخدم « بمعنى الذم والاستهجان » (٢٨) ٠٠٠ بالاضافة الى معناها الأخير الشهير الذى وردت عليه فى المعاجم العربية أى بمعنى ، تمييز الصحيح من القاسد والجيد من غيره من الأموال ٠٠ أو النقود ، بالمعنى « المصرفى » ٠٠ قال الشاعر يصف راحلته :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة
نفى الدراهم تنقاد الصياريف :

٠٠ « فالصيرفى عندما ينقد الدراهم يعزل الجيد عن الردىء ، والزائف عن غيره ولذا شبه الناقد بالصيرفى » (٢٩) ٠

٠٠ وهناك معان أخرى كثيرة ، واستخدامات عديدة لهذه الكلمة ، فحسبنا ذلك ، وحيث يقوم الكاتب الناقد بالنسبة للعمل الفنى الأدبى ، بمثل ما يقوم به الصيرفى بالنسبة للمجتمع لديه من الأموال والدراهم ٠

مقال النقد هنا بمعنى تلك الأفكار المكتوبة التى يتناول فيها الكاتب أو المحرر — الناقد هنا — عملا فنيا أدبيا — أو غير أدبى — من خـــلال تسليط الأضواء على جوانبه وقياسه بمقاييسه ، واستخدام معاييره الفنية المختلفة، من أجل ابراز ما فيه من عناصر الايجاب أو السلب ، والجمال أو القبح ، وتقدير ما لهذا العمل من قيمة استنادا الى ثقافة الناقد ، ودراساته ومقدرته وحسه النقدى والتحليلى ..

واذا كان « جمهور المستمعين » الشاعر الجاهلى يمثل طلائع النقاد ، الذين كانت تحكمهم مقاييس خاصة ، تستند الى المؤثرات البيئية . واذا كانت تلك المقاييس قد أخذت منحى اسلاميا بهدى من الدين الحنيف ،فأختلفتمنزلة الشعراء والخطباء . استنادا الى المعيار الدينى الاسلامى ، ومدى ارتباط العمل الأدبى بالدعوة الاسلامية فقد أضيفت الى هذه كلها مقاييس ومعايير ومقومات جديدة ، ارتبطت بالفرق والأحزاب المتعددة ، وكذا بالمد الاسلامى عبر المسافات والدول ، فاتسعت الدائرة النقدية وتعددت الاتجاهات والمذاهب، لكنها لم تبلغ ذلك التعدد الذى شهدته خلال العصر العباسى ، انعكاسا للحياة الجديدة نفسها ، وماداخلها من عناصر وأقوام وثقافات وتقاليـــد ومظاهر وصور ، وما صحب ذلك كله من تطوير للفنون الأدبية القائمة . بتأثير ذلك ومن نشأة فنون جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ثم تعدد الافكار والموضوعات والأغراض والقضايا التى تناولها الكتاب والشعراء واذا كانوا يقولون ، أن تطور الأدب يتبعه تطور النقد ، ذلك الآخر الذى يقوم على الأول ، فقد كان هذا هو ما حدث ، بينما وجدنا طوائف عديدة من « النقاد » كان من أهمهم ، ومما يقترب من النقد العلمى أولا ، أو النقـــد الأدبى فقط ، وليس الأدبى الصحفى :

● النقاد من « **اللغويين** » الذين اهتموا بالجانب اللغوى فى العمـل الأدبى وما يتصل به .

● النقاد من « **الكلاميين** » أو « **المتكلمين** » الذين يجمعـــون بين الجانب السابق . وجانب الاحتكام الى العقل واعمال المنطق والحجة . وفتح باب المناقشة الجدلية .

● والى جانب هؤلاء فقد كان هنا بعض النقاد من « **الرسميين** »

اذا صح التعبير .. ويمثلهم هنا بعض الخلفاء والأمراء والأثرياء وكبار التجار من أصحاب « **المجالس الأدبية** » .. الى جانب موظفى الدواوين الرسمية ، ممن كانت لهم صلة بالنتاج الأدبى والعلمى فى عصرهم ، من أمثال دواوين « **الرسائل** » و « **الانشاء** » و « **صاحب الخبر** » .. و « **الترجمة** » ..

● ثم أخيرا هذه الطائفة من « **الذواقة** » الذين أظهروا عناية شديدة بارتياد هذه المجالس والمكتبات ودكاكين الوراقين يسعون وراء هذا النتاج ويرصدونه . ويتناقلونه بروح الهاوى وعين الخبير . وفكر الناقد فى أحيان كثيرة .

وهكذا وجد الأدباء من يتناول نتاجهم بالنقد . ووجد من يطالب باجادة الكتابة وباعطائها - لغة وأسلوبا - حقها من جميع الوجوه خاصة من حيث اللفظ والمعنى ، ووجد من يشارك فى تقويم الخطباء . ومن يعقد المجالس أو يؤلف الكتب لنقد الشعراء ، أو للموازنة بين شاعر وآخر الى غير ذلك كله .

والحق ، أن من يقرأ التراث الجاحظى . ليتوقف كثيرا عند أكثر من جانب من جوانبه ، لاسيما فى كتابه الأشهر « **البيان والتبيين** » ، وفى عدد آخر من رسائله وكتبه .. حيث يجد أنها بدورها تمثل سلاسل منتظمة ، أو غير منتظمة من مقالات نقدية تناولت كافة هذا النتاج الأدبى الموجود فى عصره والتى تميزت - ومما يقربها هنا من مقالات النقد الصحفى ، وبشدة - بهذه الأمور :

- أنها جمعت بين المعايير العديدة التى كان يطبقها النقـــاد من الطوائف الأربع السابقة .

- انها عكســت ثقافة لغوية وأدبية عــامة وليســت متخصصة فقط . كتخصص الناقد اللغوى مثلا .

- انها عكست حسا صحفيا كبيرا . فى اختيار مادة النقـــد ، وموضوعات هذه التناولات من المعين الأدبى . قديمه ومعاصره . وحيث كانت فى معظمها من الموضوعات النقدية الساخنة . والتى تجد قبولا جماهيريا ، والتى لها قدمة مع غيره من النقاد أو تلك الجذابة المسوقة .

ب ـ أنه لم يضع هذه المادة فى أشكالها الكلاسيكية التى كان يضعها فيها غيره وانما غلب عليها الطابع الجاحظى فى الاسترسال وحسن العرض، والانتقال من الفكرة الى الفكرة ومن الموضوع الى الموضوع ، والتجديد فى المادة من آن لآخر بما يجذب القارىء ويمسك به حتى النهاية ٠

ـ أن « مقالاته » النقـدية كانت تشهد كثيـرا من التنـوع فى الموضوعات والطرق والأساليب النقدية ، بما لم يحـدث عند « النـاقد » المتخصص تماما ، أو عالم النقد ، اذا صح التعبير ، وبمـا يؤكد جانب نقده الصحفى ٠

ـ أن أغلب مقالاته النقدية كانت تتجه الاتجاه التطبيقى العـام ، الذى يعنى بالحكم على المادة نفسها وما لها وما عليها ، على نحو ما يفعل نقاد الصحف الآن عند ظهور الاصدارات الجديدة ٠

ـ أنه لم يكن يهتم كثيرا بالجزئيات الصغيرة ، فلا يحكم لكاتب أو عليه من خلال فقرة أو عبارة ، أو عدة سطور ، ولا يحكم لشاعر من خلال بيت واحد أو قصيدة واحدة . على نحو ما كان يفعل النقاد فى عصره ، وانما كان ينظر الى العمل كله ، أو الى الأعمال فى مجموعها ، وصحيح أن نقده للعبارات والفقرات والأبيات والقصائد وارد ، لكنه لم يكن الأساس ، وكان يعرض له على طريقة « الشىء بالشىء يذكر » ٠٠

ـ أنه فى كتابه « البيان والتبيين » أيضا ، كان أول من استخدم تعبير « البلاغة » بمعناها الدقيق،كما يقول بذلك أستاذنا «د٠ شوقى ضيف»٠٠ وقد انعكست نظرته هذه على ما تناوله ، حتى ليمكننا القول ، أنه سـاهم فى وضع معالم « المقال النقدى » الأدبى والصحفى معا ، ٠ ٠ولعله قد عبر عن ذلك ، فى صياغة من الأدب الصـحفى عندما قال فى الكتـاب السـابق نفسه ٠

« قيل للفارسى ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيـل لليونانى ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومى ما البلاغة ؟ قال ٠ حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وقيل

للهندي ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجـــــة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كـان الاضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالنظرة » (٣٠) ٠

٠٠ ونقدم هنا أجزاء أخرى من هذه المقالات النقدية « الصحفية » مما جمعناه من كتبه ورسائله :

فهو يقول مثلا فى نقد لغة الأعراب : « ان الاعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام انما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فادخلت على هذا الأمر ـ الذى انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه ـ حروف الاعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته الى صور ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » (٣١) ٠

ويقول كذلك بشأن الترجمة والمترجمين : « « ٠٠٠٠ فمتى كان رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعمه ، وأبو قره ـ ابن قره ـ وابن فهر وابن الباهلى ، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون ؟ ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى نفس وزن علمه فى نفس المعرفة ، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضا تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخـل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفــــرد بالواحدة ، وانماله قوة واحدة ، فان تكلم بلغة واحدة ، استفرغت تلك القوة عليها وكذلك اذا تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ٠٠٠ الخ » من كتاب الحيوان جـ ١ ص ٣٨ ٠

(ب) مقال التخصص العام « مقال مجلات التخصص العام » :

٠٠ وذلك هو النوع الثانى ، من هذه الكتابات الجاحظية . التى تمثل

اقرب كتاباته الى بعض أنواع المقالات الصحفية الحديثة ، تلك التى تكون من نفس النمط ، ومن نفس المعين ، وتأخذ نفس الطابع أيضا ..

ويعود الأصل فى اطلاق تعبير « التخصص العـام » عليهـا ، وكذا تعبير « مقالات مجلات التخصص العام » لعدة أسباب فى مقدمتها ·

ـــ أنها متخصصة من حيث المعلومة ، أو المفروض أن تكون كذلك ولكنها ليست متخصصة من حيث القارىء ·

ـــ انها لا ترتفع بمستواها الى درجة التخصص العلمى الدقيق الذى نشهده فى الكتب العلمية ، الجامعية مثلا ، أو فى مجلات هذا التخصص الدقيق ·

ـــ أن أفضل مكان لنشرها هو « مجلات التخصص العام » أى تلك التى تقدم بعض جوانب التخصص مما يستطيع متابعته القارىء العام المثقف أى نصف أو ربع المثقف أيضا ، ثم المجلات العامة ، والصحف الأسبوعية ، خاصة على صفحاتها وأركانها الخاصة ·

ـــ أن كاتبها يوازن بين أشياء عديدة ، من بينها تقديم المعلومات العلمية غير المتعمقة تماما ، والتى لا تهم المتخصصين وحدهم ، وحتى هذه فانه يجيد اختيارها من بين أكداس ما يتجمع عنه ، ويقدمها فى قالب مشوق، وفى لغة واضحة ، وأسلوب جذاب · ·

ـــ وهو يدعمها بالقصص والتشبيهات ، ويوالى الربط بينهـا وبين جوانب تهم الناس فى عهده ، أو تهم قراء مجلته ·

أى أنه يكون أقرب الى ذلك النمط الأسلوبى المقالى المسمى « العلمى المتأدب » فهو علمى نعم ، لكنه يوضع فى قالب أدبى ، ويعبر عنه بأسلوب أدبى .. لكنه ـ مقال التخصص العام ـ ليس أدبيا تماما من حيث توجهاته الصحفية ، ولغته الأدبية الصحفية معا ، ومن حيث اهتماماته كذلك ..

واذا كانت هذه المقدمات كلها مما يتصل بعدد من خصائص هذه النوعية

من المقالات من جانب ، فانها - من جانب آخر - مما يعتبر علما على هذه النوعية من المقالات الجاحظية ، التى عرفها الرجل ، وأجاد كتابتها وزخرت بها كتبه العديدة لا سيما كتابه الأشهر ‥ « الحيوان » ‥ ولكنه ليس وحده وانما كانت هناك بعض الكتب الأخرى المماثلة ، أو فى تعبير آخر - ومرد ذلك الى عبقرية الرجل نفسها - أن مقالات التخصص العام التى كتبها لم يكن مجالها علم الحيوان فقط . وانما ضربت فى أكثر من تخصص من بينها التاريخ والجغرافية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، وحتى الطبيعيات والرياضيات أيضا ‥ وما أكثر مادة هذه الكتب والرسائل الا مجموعات من مقالات من هذا النوع الأخير أكثر منها مقالات علمية كاملة .

— « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » تاريخ .

— « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال - الاعتزال وفضله » فى الفلسفة والاعتزال .

— « كتاب خلق القرآن - كتاب آى القرآن - كتاب الرد على اليهود » فى الدين الاسلامى .

— « كتاب مراتب التجارات - كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » فى الزراعة والاقتصاد .

— « رسالة فى الكيمياء - كتاب « المعادن » فى الكيمياء

الى آخر هذه القائمة ، وغيرها من الكتب ،فضلا عن كون أكثرها ذات موضوعات متنوعة شتى ‥ لكننا نقصد هنا - بالدرجة الأولى - تلك التى زخرت بهذه النوعية من المقالات ‥ التى يطلق الآن على بعضها أحيانا «**المقالات الموضوعية** »

يؤكد ذلك كله ، وكما أشرنا الى بعضه من قبل :

● أن الرجل لم يكن عالما كاملا . فى علم بعينه من هذه العلوم التى تناولتها كتاباته ، على أى شكل من أشكالها ،

● أنه كان يعرف من هم قراء مادته ، انهم ليسوا طلاب العلم وحدهم ، وانما العامة والخاصة معا ‥

● ويمكن أن نضيف الي ذلك كله :

ـــ حسن انتقاء الرجل لمادته التى تهم الجميع من بين عشرات المواد العلمية المطروحة أمامه ٠

ـــ المزج فى أحيان كثيرة بين هذه المادة وبعض المواد الأخرى بغية التخفيف من حدتها والترويح عن القارىء واعطائه فرصـــة التقاط أنفاسه ٠٠ حتى الملح والطرائف استخدمها أيضا ، وكان ذلك معنى قول من تناولوه ، وتكرار ذلك ، انه كان « يمزج الجد بالهزل » ٠٠ حتى فى كتاباته السياسية ، والعلمية ، كان يفعل ذلك ٠

ـــ الأسلوب السهل الواضح الذى كان علما على هذه الكتابات ٠٠

وهكذا على النحو الذى اصطنعه بعده بقرون طويلة عدد من الكتاب أو « المحررين العلميين » وكذا « الموسوعيين » ٠٠ نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر . وبعضهم من كبار العلماء : « يعقوب صروف ـ فارس نمر ـ د٠ أحمد زكى ـ د٠ عبد الحليم منتصر ـ د٠ عبد المحسن صالح ـ د٠ أحمد أحمد بدوى ـ د٠ درويش الفار ـ ٠٠٠ الخ » وغيرهم ٠٠

وحتى تقترب المسافة بين هذه الكتابات التى قلنا أنها تتشـابه كثيرا ومقالات مجلات « التخصص العام » . وقبل أن نقدم طرفا منها على سبيل المثال . نقرأ سطورا عن هذه النوعية من المجلات من كتاب آخر لنا ـ فى عالم المجلة ـ تلك التى كان يمكن أن تتوزع عليهـــا مثـــل هـــذه المـــادة الجاحظية ، أو كان يمكن ـ لو أن الرجل يعيش الآن بيننا ـ أن يصبح من أبرز محررى عدد كبير منها ، ولا أقول مجلة واحدة فقط ، كما هو الحال بالنسبة لمحرريها الآن ٠ ٠ان هذه المجلات هى :

« النوعية الثانية من عالم المجلات والتى أطلق عليها البعض ـ المجلات المتخصصة ـ لكننا نرى أن هذا التعبير تنقصه الدقة والواقعية ، وبالنظر الى مادتها المنشورة على الصفحات نفسها ، ومن أجل ذلك كان توقفنا عند مفهوم التخصص حيث نرى ان هذه المجلات : لا ترتفع بمستوى مادتها الى درجة أو درجات التخصص العلمى الدقيق والمنشود ، وحتى هذا المستوى نفسه من الاهتمام الخاص لا يكون على نفس الدرجة بالنسبة لجميع موادها ـ والطابع

الغالب على محررها أنه يكون من محرري المجلات عامة ، وفي الوقت نفسه من محرري المجلات من ذوي الاهتمام الخاص الذي لا يرقى في معظم الأحوال الى مستوى التخصص أو التخصص الكامل - وهي أيضا لا تتوجه الى قارىء بعينه دون الآخر - وان تسلل اليهم عدد من المتخصصين في مادة المجلة ، فاذا حاول أحدهم أن يضع نفسه موضع القارىء العـالم المتخصص وربما الدقيق فانه سوف يكتشف أن المسافة بعيدة تماما بين مادة هذه المجلة التي تهتم بهذا الجانب وبين معارفه ومجالات تخصصه » ٠

ان الجاحظ هو مثل كتاب هذه المجلات ، هو كاتب « مهتم » وليس عالما ولا مؤرخا ولا جغرافيا ٠ ٠وهكذا تقول كتاباته ، لا اقول المتخصصة ، ولكن من ذوات التخصص العام ، الذي تمثل هذه المقالات ، أهم أنواعه ٠٠

وربما كان باستطاعة الرجل أن يكتب كتابة متخصصة دقيقة التخصص ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ولا امكانية قيامه بها ، أو استطاعتها ٠٠ لكن الرجل كان يعرف كيف يختار وماذا يقول ولمن يتوجه وخصائص قرائه ٠٠ وهـذه أخرى تؤيد دعوانا على قيام جانبه الصحفي ، الى جانب شخصيته الأدبية ٠٠

والا فلماذا لم يكتب المقال المتخصص الدقيق ، مادام يستطيعه ؟ لـماذا لم يتجه الى علم واحد فقط ؟ لماذا لم يصبح عالما فقط ؟ أو فيلسوفا فقط ؟ أو جغرافيا دون غيره من الرجال ؟ أو مؤرخا دون الاقتراب من مجالات أخرى ؟ أو من علماء اللغة ؟ أو من رجال السياسة أو الاقتصاد أو الزراعة أو الكيمياء المعدودين ؟ وقد عرف كل ذلك ، وتناوله ، وكان باسـتطاعته التخصص في أحد فروعه ؟

قد يقول قائل - ردا على ذلك - أنه أحد هؤلاء الموسوعيين المعروفين ، والذين يجمعون بين معارف عديدة وعلوم متنوعة ؟

وأقول أولا - ليس الى هذا الحد من الكثرة والتعدد ٠

وأقول ثانيا - وماذا عن حسن اختياره وتوجهاته واهتماماته ولغته ، وكلها تؤكد جانب صحافته ٠٠

وأقول ثالثا - وحتى هؤلاء من الموسوعيين، فانهم لم يكونوا علماء فقط،

ولكن على أكتافهم وبمساهماتهم العديدة ، قامت المجلات، أو قامت «صحافة المجلة» .. كما يحدثنا تاريخها ، وقبل أن تتداخل عوامل التطور والتشابك العديدة ، التى أثرت فى مسيرة المجلة . شكلا ومضمونا :

على أن العودة الى الينابيع الجاحظيه ، نغترف منها بعضا مما يذكرنا بهذه النوعية هى عودة واجبة :

●● جزء من كتاب « الحيوان » يقدم بعض مادته التى تقترب كثيرا من مقال « التخصص العام » أو « مقالات المجلات » ذات التخصص العـــام أيضا « الجاحظ : الحيوان ــ كلمات مختارة » .

(الورل وعدم اتخاذه بيتا)

« ومن كلام العرب أن الورل انما يمنعه من اتخاذ البيوت أن اتخاذها لا يكون الا بالحفر ، والورل يبقى على براثنه ، ويعلم انها سلاحه الذى به يقوى على ما هو أشد بدنا منه ، وله ذنب يؤكل ويستطاب ، كثير الشحم .

(قول الأعراب فى مطايا الجن من الحيوان)

والأعراب لا يصيدون يربوعا ، ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل ، وكذلك كل شىء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء .

ولا تكون الأرنب والضبع من مراكب الجن لأن الأرنب تحيض ولاتغتسل من الحيض ، والضـــــباع تركب أيور القتلى والموتى اذا جيفت وانتفخوا وأغطوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة . ولا جنابة الا ما كان للانسان فيه شر ، ولا تمتطى القرود لأن القرد زان ولا يغتسل من جنابة

فان قتل أعرابى قنفذا أو ورلا من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل ابله ، ومتى اعتراه شىء حكم بأنه عقوبة من قبلهم ، قالوا : ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعى ، وبضروب الوعيد .

(قول الأعراب فى قتل الجان من الحيات)

وكذلك يقولون فى الجان من الحيات ، وقتل الجان عندهم عظيم ، ولذلك

رأى رجل منهم جانا فى قعر بئر ، لا يستطيع الخروج منها ، فنزل على خطر شديد حتى أخرجها ، ثم أرسلها من يده فانسابت ، وغمض عينه لكيلا يرى مدخلها ، كأنه يريد الاخلاص فى التقرب الى الجن ، قال المازنى : فأقبل عليه رجل فقال له : كيف يقدر على آذاك من لم ينقذه من الآذى غيرك ؟! » .

(هـ) المقال الفكاهى الكاريكاتيرى :

.. واذا كانت الكتابات الجاحظيـــة النقـــدية وذات التخصص العــام من تلك التى اقتـــربت بشـــدة من مادة المقــــالات الحديثة . على النحـو الذى أشرنا اليـه .. فان هذه النـوعية مجـــال الحديث خلال هذه الفقرة هى أكثر أنواع الكتابات الجاحظيـــة اقترابا من صورها وانماطها واشكالها الحالية ، التى تعرفها الصحف والمجلات اليوم ..

بل اننا ــ فى واقع الأمر ــ لنظلم هـــذه الكتابات الجاحظية الفكاهية والكاريكاتورية كثيرا ، ان نحن اقتصرنا على هذا الوصف بالاقتراب الشديد فقط . أو بأنها أقربها اليها دون اضافات أخرى ، لأن الواقع التاريخى الأدبى والصحفى نفسه يقول أن هذه الكتابات الجاحظية انما تمثل أصدق تمثيل :

— دور الطلائع بالنسبة لهذه المقالات الأدبية الصحفية معا .
— دور الريادة بالنسبة لفن الكاريكاتير الكتابى شكلا ومضمونا .
— أي أنها الأقرب حتى من هذه النوعية السابقة وبكثير

ولن يحدث أن تجد نوعية أخرى من الكتابة الجاحظية ، اقرب منها الى هذا الفن وبالمثل لن يحدث أيضا أن تجد فى مادة الصحف الحديثة ، ما هو اقرب الى كتابات الرجل من هذه النوعية أيضا ..

ولكن كيف ؟ ..

اننا نقدم لذلك كله ، ونضيف كذلك الى ما سبق ان قدمناه من قبل عند حديثنا عن « الحاسة الفكاهية » عند الرجل ، نقدم لذلك بعدد من الأقوال ، من بينها . على سبيل المثال لا الحصر :

● أن رائدا من رواد فن التحرير الصحفي ، كتب يقول : « ربما كان

الجاحظ أول كاتب اسلامىعالج فن الكاريكاتور فى تاريخ النثر العــربى ، وقد ترك لنا الجاحظ أعظم رسالة أدبية كتبت فى هذا الفن ، ولعلها أعظـــم رسالة الى اليوم ، فنحن لا نعلم لها نظيرا فيما كتبه أهل هذا الفن ــ سواء فى الأدب أو فى الصحافة ــ حتى اليوم ٠٠ وموضوع رسالة الجاحظ هو السخرية من كاتب من كتابالديوان اسمه أحمد بن عبد الوهاب٠٠٠»(٣٢)٠٠ ويضيف هذا الرائد قائلا فى مقدمة تناوله لهذا النوع من المقالات : « ولا يتسع المقام لذكر شىء عن هذه الرسالة التى كتبها الجاحظ ، وان كنا نعتقـــد أن الكاتب العباسى الكبير ــ يعتبر بحق ــ واضعا لأساس الكاريكاتور فى الأدب العربى » (٣٣) ٠

● والى مثل هذه الرسالة أيضا ، وصلتها بهذا الفن ، اشار كاتبنا الكبير « توفيق الحكيم » اكثر من مرة ، فى كتبه ومقالاته ، وكان من بينها ــ مثلا ــ هذه الكلمات : « ٠ ٠ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذى نسميه الكاريكاتير » (٣٤) ٠

٠٠ وبعد أن يقدم لنا سطورا من هذه الرســـالة ــ التربيع والتدوير أيضا ــ يضيف قائلا : « ٠٠ وعلى هذا النحو يمضى الجاحظ يصور لنا ذلك الرجل تصويرا لا يريد به هجاءه بقدر ما يريد اضحاكنا منه ، وهذا هو روح فن الكاريكاتير » (٣٥) ٠

● ٠٠ وفى كتاب سابق لنا ــ المقال الصحفى ــ أشرنا الى هــذه النقطة ، وكان من بين ما قلناه عن كاتب المقال الفكاهى والكاريكاتورى : «٠٠ وحيث يكون لكاتبه أنيفعل كما الرسام الكاريكاتيرى٠٠ أى لا يكتفى باظهار العيوب ووضع يد القراء عليها ، وانما يقوم بتوضيحها وابرازها وتجسيمها والمبالغة فيها والتهويل من شأنها أيضا ، وذلك على النحو الذى وضعه رائد هذا الفن الأدبى الصحفى ــ معا ــ الأديب الصحفى الجاحظ ٠٠ وعلى نحو ما فعله من كتاب الجيل السابق : عبد العزيز البشرى ــ فكرى أباظة ــ أحمد حافظ عوض » (٣٦)٠٠ الخ ٠

● وفى كتاب آخر لنا أشرنا الى هذا اللون من الكتابه الجاحظيــة بقولنا :

« البساطة والسهولة والظرف وخفة الروح والظل ، جميعها من لزوميات (الجاحظ)

أكثر المجلات العامة ، ومن خصائص أساليب كتاباتها ، ومن صور طبائعها البارزة ، أو التى ينبغى أن تبرز على صفحاتها وبين سطورها ـ أى أن الكاريكاتير هنا ليس رسما بقلم الفنان أو ريشته وألوانه ، وانما هو مقال تعبيرى ساخر متهكم ، وما أحراه بذلك أن يكون مادة هامة من مواد المجلات عامة والسياسية والأدبية والفكاهية خاصة ـ نعود فنقول اننا لا نعرف كاتبا تميز بها ، وأصبحت كتاباته هى المقدمة فى هذه الأنواع ، وارتبطت به وارتبط بها مثل الكاتب الباحث المحقق الصحفى **أبى عثمان الجاحظ** » (٣٧) ٠

٠٠ ولعل من خلال كل ما تقدم ، يتضح لنا ، بما لايدع مجالا للشك ، هذا الدور الرائد للكتابات الجاحظية ، بالنسبة لهذه النوعية الأخيرة من المقالات ، ومن ثم ، فلا مجال للقول بأن هذه الكتابات تعتبر من قريبات الشبه بمادة اليوم ، أو أنها تعتبر من مقدماتها ، فهذا القول ، أو ذاك لا يمثلان حقيقة موقع المقال الكاريكاتيرى عند أبى عثمان ، ولا أهميته التاريخية الأدبية والصحفية معا ، **بل الصحيح أن يقال أنه « مبتكره » وأنه « رائده » وأنه ينطبق على مثيلاته الآن، تمام الانطباق، بل لعل** كتابات الرجل فى هذا المجال، تكون أفضل بكثير ، من العديد من تلك الكتابات الكاريكاتورية التى نطالعها اليوم ، وذلك من زاوية الحس الأدبى والصحفى والفكاهى معا ، فضلا عن خصائص عديدة اخرى ارتبطت بها هذه المقالات ، وكانت علما على كتابات هذا الرائد ٠٠ وحيث يأتى الان دور التوقف عندها ، عند خصائص المقال الكاريكاتورى الجاحظى ، وذلك قبل أن ننتقل لتقديم احدى صوره ، أو أجزاء من هذه الكتابات نفسها ٠

خصائص المقال الكاريكاتورى عند الجاحظ :

نعم ٠ ٠ارتبطت مقالات الجاحظ الكاريكاتورية ، بعدة خصائص مميزة، وملامح تعرف بها ، قبل أن نتحدث عنها ، نقول ، انطلاقا مما سبق ، واستكمالا له أيضا ٠٠ ان هذه الخصائص نفسها ، ولكونها ترتبط بالمقالات الرائدة من هذه النوعية ، فانها تمثل ـ حتى الان ـ أبرز الأسس والمبادىء ، التى ينبغى ان يراعيها كاتب مثل هذه المقالة ، وكذا ما ينبغى أن تشمله المقالة نفسها من مضمون ٠٠ ان أهم هذه الخصائص هى :

١ ـ حسن اختيار الأشخاص والموضوعات والصور التىتستحق التوقف

عندها وتناولها على هذه الصورة من المقالات ، فلا بد من أن يكون هناك ذلك « الشيء » الذى يستأهل أن يكتب عنه ، وأن يتهكم به ، وأن يسخر منه ، وأن تبرز تفاصيله ، وأن يجرى تجسيم عيوبه ، وتضخيم ثغراته فالمقال الفكاهى الكاريكاتورى عنده ، لا يتناول أى شىء ، ولا أى انسان وانما لابد أن يكون هناك السبب والدافع والمؤثر ٠

٢ ـ أن الضحك ، ولو أنه ركن أساسى فى المقال ، الا أنه لم يكن الهدف الوحيد له ، وانما كانت تتشابك معه فى أحيان كثيرة ، وتتقدمه فى أحيان أخرى عدة أهداف رأى الرجل بحصافته وخبرته وحسه ، أنها يمكن أن تتحقق بهذا الأسلوب ، فهو يضحكنا من الأشخاص حتى لا يكثر أمثالهم ، ويضحكنا من الصور والمشاهد حتى تبرز ويضخم جانبها السلبى فيرعوى أصحابها ، ويوجه سخريته الى النقائص والعيوب والمثالب ، فالضحك عنده أسلوب وطريقة ووسيلة فهو نوع من « النقد الاجتماعى » لا الأدبى هنا ، وكثيرا ما اتجه الى هذا المعنى ، وفى ذلك يقول أحد الذين اقتربوا من هذا الجانب ، أكثر مما اقتربنا « ٠٠ فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون بل كثيرا ما كانت تأتى مصحوبة بالتلميح الهادف أو التعريض اللاذع ، مما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية المحبوبة ، والتى تسمو ـ فى جوهرها ـ على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص » ٠

٣ ـ **دقة التوجه لما يتناول وبراعة تصويره مجسما : فهو** ـ كرسام الكاريكاتير الماهر ـ كان يحسن التقاط ذلك الجانب فى صورة الشخص ، أو تلك الزاوية فى الموضوع ، أو هذا الركن من أركان المشكلة أو القضية ، قبل غيرها من الجوانب أو الزوايا أو الأركان الأخرى ، ثم يتوجه اليها بقلمه ، ليصورها فى براعة ، من حيث التجسيم والتكبير والمغالاة ، حتى وان كانت هذه كلها تتصل بهيئة رجل ، أو تصرف كاتب ، أو سلوك أحد العمال ٠٠ ثم ان التصوير هنا يحسن اختيار ما يشبه به هذا العضو ، أو تلك الهيئة ، حتى يبعث على الضحك ، والضحك الكثير أيضا ٠

٤ ـ **أنه لا يوجد فى الأشخاص من لا يمكن أن يناله قلمه بهذا الأسلوب، طالما أن به ما يستحق أن يضحك منه القارىء** ، وأن يتهكم عليه الناس ، فلا فرق هنا بين غنى أو فقير ، أو وزير أو حقير ، فالجميع ـ اذا صح التعبير ـ سواسية أمام ذلك القلم الكاريكاتورى ، وعلى هذا فقد وجدنا أن الجاحظ

قد تناول فى مقالاته هذه بعض ذوى المناصب العليا فى مجتمعه ، ولم يخش بأسهم ، ولا سطوتهم ، طالما ان فيهم هذه الزاوية التى تستأهل ، تماما كما تناول غيرهم ممن كان يحفل بهم المجتمع البصرى ، والمجتمع البغدادى على عهده ·· وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد قدم فى كتابه « البخلاء » عدة صور لرجال نفهم منه أنهم كانوا فى مرتبة الوزراء ، لكن شحهم كان الزاوية التى نفذ منها الى تناولهم ، وبالمثل رسم لنا صورة رائعة لقاضى البصرة ـ وكان الناس يرتعدون منه خوفا ـ فكان كسله هو الجانب الذى رآه جديرا بتناوله ، كما كانت أعمال والاعيب وأكاذيب بعض القصاص هى المنفذ اليهم ·· ولا ننسى أن رسالته الرائعة فى « التربيع والتدوير » قصد بها اضحاك الناس من « أحمد بن عبد الوهاب » وهو كاتب الديوان فى عهده ، أى بمنزلة « وزير الثقافة » أو « الاعلام » أو هما معا ·· الآن ، وربما اقترب من منزلة رئيس الوزراء ، أى كان على رأس الجهاز الادارى التنفيذى بالدولة ، فى عهد الخليفة العباسى الواثق ، وصحيح أنها لم تكن السخرية فقط ، وانما للرسالة جوانبها الأخرى ذات الفوائد الأدبية والعلمية ، التى جاءت ضمن سطورها ، ولكن ما كان الرجل ليكتبها الا لأنه وجد فى هيئته ، ورأى فى تصرفاته ما يستأهل هذا التناول الفكاهى ·· بعد أن يمر خلال البوتقة الجاحظية طبعا ، أو « يصهره » كاريكاتوريا ··

ومن الغريب هنا ، أن الجاحظ قد تهكم حتى على نفسه أيضا ، وأكثر من مرة بسبب نتوء سواد عينيه ، وعندما كان يقوم ببعض الأعمال متسرعا أو مضطرا ، وتكون نتيجتها من النوع السلبى ، أو عند تعرضه لما يستأهل ذلك ··

٥ ـ **براعة الوصف** : فأنت تقرأ هذه المقالات ، أو حتى أجزاء منها ، فيدهشك حقا ، أن يكون الرجل ـ والموضوع فكاهى ـ على هذه الدرجة الكبيرة من براعة الوصف ، خاصة وهو يركز على هذه الناحية بالذات ، أو هذا الجانب البارز من الصورة ، أو هيئة الرجل ، أو صفاته ، ليتخذ منها مدخله الى الاضحاك والتهكم والسخرية ، ثم تأخذ بك تلك التشبيهات الكثيرة والدقيقة معا ، التى تصاحب هذا التناول ·· مما أسعفته فيه موهبته العجيبة ، ومقدرته الغريبة ، على تقديم هذه الأوصاف كلها ··

٦ ـ **ثراء المضمون وتنوعه** : والى جانب ذلك كله ، وعلى الرغم من ان

عنصر الفكاهة كان هو الجانب المسيطر على أمثال هذه الكتابات ، الا أنه ـ شأن كل كاتب ماهر ـ كان يقدم خلال هذه الكتابات الجاحظية بعض ما يعكس ذلك القدر الكبير من الثقافة ، العامة واللغوية والفلسفية والتاريخية ٠٠ خلال سطورها ، بل كان ـ كطريقته ـ يخرج أحيانا الى بعض الجد ، أو يتناول بعض الأمور الجارية ، ممتزجة بهذه الفكاهة نفسها أو يعود الى اطلاق النكات التى يعرفها أو سمع بها ، أو راح هو يؤلفها مما يتناسب واللحظة التى يصورها ، أو الشخصية التى يتناولها ، بل لقد كانت بعض هذه المقالات ، تحتوى على كثير من الأفكار الجانبية الجادة التى تدهش القارىء ، بل انه ـ حتى فى هذا الجانب ـ كان يغلب طريقته بالاستطراد ، والخروج من موضوع الى موضوع ومن فكرة الى فكرة ـ دون اعتداء على الشكل أو الاطار المقالى ، ومن هنا ، فقد عاشت هذه المقالات وسوف تعيش ما أراد لها الله ذلك بينما اختفت كتابات فكاهية أخرى ، ولم يبق منها شيئا ، لأنها لا تستحق البقاء ، ومن هنا أيضا ٠٠ فقد قيل عن رسالة « التربيع والتدوير » كثيرا ، حتى وصفها بعض المستشرقين ـ وهى أنموذج للمقالة الكاريكاتورية الطويلة ـ بأنها « أشبه ما تكون بدائرة معارف » (٣٩) ٠٠ هكذا قال عنها البارون « كوادى فو »

٧ ـ **واقعية اللغة وجاذبيتها** : وان كنا لا نريد أن نسترسل الآن فى ذلك كثيرا ، الا أننا نشير الى أن هذه الواقعية التعبيرية ، وان كانت عنصرا جوهريا من عناصر كتابته كلها وعلما عليها خلال جميع مراحلها وأغراضها ، الا أننا نشير اليها هنا بالذات ، لأنها تمثل جانبا من هذه الجوانب الهامة التى تؤكد عبقرية الرجل ، وزوايا مقدرته الأدبية والصحفية معا ، فأمر عادى أن يكون الرجل واقعيا فى لغته عندما يكتب مادة اخبارية ، أو تلك التى تقترب من التحقيقات الصحفية ، أو الأحاديث ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ولكن أن يعود الرجل ليكتب كل هذه الملح والطرائف ، والفكاهات وحتى النكات المتعة ، لأن المقام هو مقامها والمقال هو مقالها ، والمجال هو مجالها أيضا، فان ذلك ـ ولا ريب ـ يكون مبعث دهشة واعجاب معا ، فهل يكون صاحب **«الحيوان» و « البيان والتبيين » و « الاعتزال وفضله » و « آى القرآن » و « الرد على اليهود » و « الاستبداد والمشاورة فى الحرب » ٠٠ وغيرها، وغيرها ، هو نفسه صاحب هذه الواقعية التعبيرية التى جاءت ضمن سطور كتاباته الفكاهية والكاريكاتورية ؟٠**

ولعل ذلك يكون سببا فى أنه راح يحشد لها من جوانب الجاذبية

والطرافة والمتعة الذهنية الشيء الكثير ، مما أكسب هذه الكتابات شـــهرة منقطعة النظير ، حتى اعتبرت أفضل ما صور جـــــوانب عصره السلبية ، والماجنة ، والفكهة ٠٠ معا ٠٠

٨ ـ ٠٠٠ وخصائص أخرى عديدة ، ارتبطت بهذه الكتابات المقـــالية الكاريكاتورية الجاحظية نفسها ، لا يتسع المجال هنا لذكرها على وجه مسهب، لكننا نشير اليها فى عجالة ٠٠ ان من أبرزها :

ـــ النزوع فى بعض الأحيان الى تحدى الخصم الذى يضحك القارىء منه ، ودعوته الى نزاله ٠٠

ـــ تقديم بعض المحاورات الفكهة التى تثرى المضمون ، وتزيد من جرعة الاضحاك ٠٠

ـــ حسن اختيار اللحظة والموقع من المقال الذى يقدم فيه جوانب التجسيم والتهويل ، أو جوانب السخرية المباشرة ، أو جوانب النكتة المؤلفة، أو التى ترد على ذهنه ٠٠

ـــ الاستعانة دائما بالقصص القصيرة والأقاصيص والمادة الاخبارية التى تتصل بهذه الشخصيات ومواقفها وتصرفاتها ، وحسن صياغتها فى أسلوب قصصى وفكه معا ٠

ـــ الوضوح الكامل الذى يعين على الفهـــــم السريع والاستمتاع بجوانب مقالته الكاريكاتورية والتى تدخل الى عقل القارىء من أقصر طريق ٠

ـــ تقديم ما يعكس ظرفه وخفة ظله ، وما يصور طابع المرح الـــذى يتمتع به الرجل من آن لآخر ، وبطريقة محببة ، يقبل عليها القراء ، دون مبالغة أو ادعاء أو تكرار ممل ٠٠

ـــ الاشارة الى القارىء ببعض جوانب المبالغة المستعصية فى ذلك الذى ينقله عن آخرين الى غير هذه كلها من خصائص ومعالم وأســـاليب كتابية ٠٠

وقبل أن نقدم مختارات مختصرة من هذه المادة المقالية الكاريكاتورية ، نشير الى أنها ــ موضوعا ــ تناولت هؤلاء جميعا : (فى جوانب السلب والاضحاك عندهم) ٠

(المعلمون للصناعات المختلفة ــ البحريون ــ البخلاء ــ الاخباريون ــ القصاص ــ الوعاظ ــ الحمقى ــ الكتاب ــ الطفيليون ــ الأدعياء ــ فكاهات بدوية ــ مفارقات عن الجوارى والغلمان ــ المتناظرون) ٠٠ وذلك كله الى جانب شتى الموضوعات الأخرى ، التى امتدت اليها كتاباته ٠٠

٠٠ وقد كان من هذه الكتابات كلها وعلى سبيل المثال لا الحصر « مختارات فقط »

●● مقال من الجزء الثالث من « الحيوان » ٠٠ عن « الذبان » أو الحاح الذباب على « قاضى البصرة » ٠٠ جاء فيه قوله :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما قط زميتا ، ولا ركينا ، ولا وقورا حليما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك ٠ كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكىء ٠ فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلا على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة ٠ فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ٠ ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر ٠ ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ٠ ثم ربما عاد الى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك ، اذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ٠ ثم يصلى العشاء ، وينصرف ٠ فالحق يقال : لم يقم فى طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ٠ كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها وفى صيفها وفى شتائها ٠ وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس الا أن يتكلم ٠

فبينما هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين يديه ، اذ سقط على أنفه ذباب ٠ فأطال المكث ، ثم تحول الى مؤق عينه٠ فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من

الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب باصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض . فدعاه ذلك الى أن يوالى بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه . ثم عاد الى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتماله أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، وألح فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والاطباق . فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ففعل ، وعيون القوم اليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يرونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته . ثم عاد الى موضعه . ثم ألجأه الى أن ذب عن وجهه بطرف كمه . ثم ألجأه الى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه . فلما نظروا اليه قال : « أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله ، عز وجل ، أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعف الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه » . ثم تلا قوله تعالى : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ! » وكان بين اللسان قليل فضول الكلام ، وكان مهيبا فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة » (٤٠) .

●● .. وعن الموضوع نفسه ، ومما يتصل بكاتبنا هو شخصيا ، نقرأ هذا الجزء من مقاله يصف فيها واقعة حدثت له مع الذباب أيضا :

فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فانى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة . فمررت فى عشب ونبات ملتف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى . فطردته ، فتحول الى عينى. فزدت فى تحريك يدى . فتنحى عنى بقدر شدة حركتى وذبى عن عينى ـ ولذبان الكلا والعياض والرياض وقع ليس لغيرها ـ ثم عاد الى ، فعدت عليه . ثم عاد ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمى ، فذببت به عن وجهى . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحث السير ، أؤمل بسرعتى انقطاعه عنى

فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني بدل كمي · فلما عاود ، ولم أجد له حيلة ، استعملت العدو ، فعدوت منذ شوطا لم أتكلف مثله مذ كنت صبيا · فتلقاني الأندلسي فقال لي · « مالك ، يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » فقلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان » · فضحك حتى جلس · وانقطع عني · وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جدا (٤١) ·

●● ··· ولا نترك هذا المجال تماما ، دون الاشارة الى جزء قليل، من كم كبير ، ورد ضمن صفحات كتابه « البخلاء » ممايتصل بهذا المجال أيضا ، ومما اتبع فيه أسلوب « المحاورة الفكاهية » ·· انه مقاله عن « **تمام ابن جعفر** » ·· أحد البخلاء المعدودين في عصر الجاحظ :

« كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام ، مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم ، وكان ان قال له نديم : ما في الأرض أحد آمشى منى ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر منى ، قال : وما يمنعك من ذلك وانت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ لا حمد الله من يحمدك ·

فان قال : لا والله ان أقدر أن آمشي لأني اضعف الخلق عنه ، واني لانبهر من مشي ثلاثين خطوة ، قال : وكيف تمشي وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق الناس الا مع خفة الأكل ؟ وأي بطين يقدر على على الحركة ، وان الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشي الكثير؟ فان شكا ضرسه وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته ، قال : عجبت كيف اشتكيت واحدا ولم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت الى اليوم في فيك حاكة؟ وأي ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ ··· فان قال : والله ان أروى من الماء ، وما أظن أن في الدنيا أحدا أشرب مني للماء · قال : لابد للتراب من ماء ، ولابد للطين من ماء يبلله ويرويه ، أو ليست الحاجة على قدر كثرته وقلته · والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك ·

فان قال : ما شربت اليوم ماء البتة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل ، وما في الأرض انسان أقل منى شربا للماء ، قال : لأنك لا تدع لشرب

الماء موضعا ، ولأنك تكنز فى جوفك كنزا لا يجد الماء معه مدخلا فان قال : ما أنام الليل كله وقد أهلكنى الأرق · قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة أن تنـــام ؟

فان قال : ما هو الا أن أضع رأسى فانما أنا حجر ملقى الى الصـبح· قال ، ذلك لأن الطعام يسكر ويخدر ويختر ويبل الدماغ ويبل العروق ويسترخى عليه جميع البدن ، ولو كان فى الحق لكان ينبغى أن ننام الليل والنهار » (٤٢)

●● ··· وأخيرا ، وقبل أن ننتقل الى نوعية أخرى من أنواع هذه المقالات ، نقدم طرفا من رسالته « التربيع والتدوير » ·· ليعود اليها من يشاء وحيث تتمثل فيها هذه الخصائص المقالية الكاريكاتورية الجاحظية مجتمعة·· ومن ثم فمن غير المعقول ألا ننقل عنها هذه السطور القليلة :

« أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك · قد علمت ، حفظك الله ، أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور العين وجودة القد ، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة · وان هـــذه الأمور هى خصائصك التى بها تكلف ، ومعانيك التى بها تلهج ·· وبعد ، أبقاك الله فأنت فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يفل، وغرب لا ينثنى ، وهو قياسك الذى اليه تنسب ، ومذهبك الذى اليه تذهب ، أن تقول : وما على ان رآنى الناس عريضا وأكون فى حكمهم غليظا ، وأنا عنـد الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق · وقد علموا ، أبقاك الله ، أن لك مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا · ولكن بينهم فيك اذا قمت اختــلاف، وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاسرة سواك ، فأنت المديد . وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب · فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاريلهم ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استقاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا · ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك ، واذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا · فقد حصلت ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا · ولعمرى ان العيون لتخطيء

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن · وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس ··

وبعد حديث طويل على هذا النسق يوجه الجاحظ الى خصمه أسئلـ واليك بعضها منها : « وهى من أصل مائة مسألة »

خبرنى عن معنى الفرات على حقه وصدقه ، وعن نضوب البحر وعن تنقص الأرض · ولم عمل الفلك فى هذا العالم وليس بينهما شبه ، وهلا عمل فيه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يعمل شىء فى شىء الا والآخر يعمل فيه؟ وخبرنى مذكم كان الناس أمة واحدة ، ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن اسود الزنجى وأبيض الصقلى ؟ ولم صار اللون أسرع تنقصا من الجمود ؟ ولم كان الولد يجىء على شبه ما فى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبى قط فى العرب مجنونا ··

جعلت فداك أيما أطول عمرا الناس ، أم عير العانة ، أم الحية ، أم الضب ، ومتى تستغنى الحية عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالنسيم ! » (٤٢)

●● **حتى نصل الى هذه النوعية الأخيرة من المادة الجاحظية ، تلك** التى كان لها وضعها الخاص بالنسبة لمثيلاتها من مقالات اليوم . فبينما نجد بعضها يبتعد عن احدى نوعياتها الحديثة ، نجد البعض الآخر وهو يقترب كثيرا من نوعية أخرى ، من هذه النوعيات التى تعرفها صحافة اليوم ··· وهكذا اختلفت أوضاعها قربا أو بعدا من هذه المادة ·· على أن أهم فصائل هذه النوعية هى :

(١) المقال الافتتاحى أو « الافتتاحية » :

لو رحنا نبحث عن « المقال الافتتاحى » ·· فى كتابات الجاحظ ، فاننا دون شك سوف نجد انه يتجاذبنا شعوران ، أو يأخذ بنا احساسان ، يقومان على ملاحظة هامة ·· تلك هى أنه اذا كنا نقصد المقال الافتتاحى الحـــديث، بالصورة التى تعرفها الصحف والمجلات اليوم ، وبجميع خصائصه المرتبطة به ، أو أكثرها – على الأقل – فان مطلبنا يكون عسيرا بعض الشىء ، وذلك لاختلاف الظروف والأحوال والطبائع ، ولكن اذا كنا نريد هذه « الفواتح »

او « المداخل » التى تشبه مقدمات الكتب او الرسائل ، فسوف نجد الكثير منها مما يزخر به التراث الابداعى الكتابى الجاحظى ٠٠

ومن هنا نقول :

(أ) أنه اذا كنا نقصد بالمقال الافتتاحى أنه وكما نعرف : « المقال الذى يحمل رأى الصحيفة أو المجلة وموقفها من القضايا والمشكلات والاتجاهات الهامة داخلية وخارجية » (٤٤) ٠٠ أو أنه « المادة التحريرية الهامة التى تنشر يوميا أو أسبوعيا محددة موقف الصحيفة أو المجلة من القضايا الهامة، والمشكلات والمواقف والأفكار التى تتصل بمجتمع ما أو المجتمع الانسانى ، والتى تنشر تحت عنوان ثابت وغفلا من التوقيع باسم كاتبها وفى مكان بارز وثابت فى أكثر الأحوال » (٤٥) ٠٠ « ٠٠٠٠ وانه لا يوقع باسم محرره لأنه لسان حال الصحيفة » (٤٦) ٠٠ أو كنا نقصد هذا الذى تطلع به علينا الصحف والمجلات مراعية فى تحريره ونشره خصائص عديدة من بينها :

— النشر اليومى أو الأسبوعى الدائم تحت عنوان لافتى ثابت ودال٠
— تعدد الكتاب وتنوعهم ٠

— الارتباط الكامل بسياسة وسيلة النشر وما يتصل بذلك من التعبير عن رأى الصحيفة ، ووجهة نظرها ، وما أسفر عنه ذلك من اتجاهات عديدة واجراءات مختلفة ٠

— عدم التوقيع باسم المحرر ، بل الصحيفة ، كوسيلة اتصال ٠
— الجدة الزمنية الكاملة ، والارتباط بمادة حدثية ساخنة وملتهبة٠
— المكان والحجم المحدد تقريبا وفى أغلب الأحوال ٠٠
— التوفيق بين سياسة الصحيفة والصياغة واهتمام القراء وصالح الوطن والانسانية ٠

٠٠ اذا كنا نقصد هذه النوعية ، فاننا نقول ان الكتابات الجاحظية لم تعرفها وليس لنا ادعاء ذلك ، أوالزعم بهذه المعرفة ٠٠ وواضح ان أسباب هذه الحالة تتصل بالطابع الصحفى الحديث والكامل ، والذى أسفر عن وجود هذه النوعية من المقالات لاسيما هذه الأسباب : « تعقد الحياة وتشابك

المشكلات والتوتر السياسى القائم وحاجة القراء الى الشرح والتفسير والمساعدة على اتخاذ المواقف وايجاد رأى عام فى مواجهة المشكلات داخلية وخارجية وانتظار رأى الصحيفة المعاون للقارىء فى كل ذلك .... الخ»..

ان رجلنا ، لم يكن يكتب فى صحيفة يومية أو أسبوعية ، ليعبر عنها ، ولم تكن الحياة بكل هذا التعقيد والتشابك والتوتر القائم وصراعات الحدود والحروب الداخلية والأزمات الاقتصادية والسياسية ولم يكن هناك القارىء الفزع الذى ينشد المعرفة الكاملة لما يدور حوله ، أو ينشد الخلاص الى غير ذلك كله ، فضلا عن الاتجاهات الصحفية الجديدة التى لم يعرفها الجاحظ ولا عصره .. ومن ثم لم يعرفا ما يرتبط بها من اجراءات وتنظيمات تهدف فى النهاية الى أن تصل هذه المادة قبل غيرها الى القارىء فى سهولة ويسر، وأن تقع تحت بصره دائما ، حتى تقوم بدورها ، وتحقق الهدف من وجودها..

هذه واحدة ..

(ب) وأما اذا تجاوزنا عن ذلك كله ـ خاصة الاتجاهات والمطالب والأساليب العصرية ـ ونظرنا الى هذه المقالة نفس نظرتنا الى مقدمات الكتب وفواتحها . بل ونظرتنا الى بعض أنواع هذه المقالات نفسها لاسيما « **المقال الافتتاحى المهنى** » وبالتركيز الشديد على بعض أنواع « **مقـالات المجلة** » الافتتاحية ، لوجدنا أننا نقترب أكثر من خطوة واحدة من النتاج الجاحظى فى مثل هذه المجالات .. ولكن كيف ؟

ان أكثر ما كتبه الجاحظ رأيناه يقدم له ، أو يفتتحه بعدة سطور اختلفت أطوالها من مادة لأخرى ، لكنها فى أحوال غير قليلة أيضـا كانت « فى مجمـوعها » .

- ذات صلة وثيقة وأساسية بمضمون المادة التى تفتتح بها .
- تقدم بعض ما يتصل بها من مصادر أو أشخاص .
- تلفت النظر الى أهميتها .

— تتحدث عن بعض الكتابات الســابقة فى نفس الموضــوع له أو لغيره ٠

— وقد تحيل القارىء الى هذه الكتابات ٠

— وقد تتحدث عن بعض الجهد الذى بذله فى الحصول عليها لاسيما ان كانت تتصل بانتقاله الى أماكن أخرى ٠

— أو تنبه الى بعض « المثــالب » أو « الثغرات » وتقــدم بعض « المحاذير » ٠٠

— وقد تتضمن ذلك الاهداء الى شخص ما وما يتصل به ٠

— وكثيرا ما تضمنت السبب الرئيسى لكتابتها ٠

— وربما الاعتذار عن أى تقصير يبدو خلال سطورها ٠٠

الى غير ذلك كله ، من أفكار وقضايا ٠٠ نعود فنقول بشأنها انها — بصرف النظر عن العنوانات خاصة الاشارية المفتاحية والثابتــة ، وعن التوقيع ، وعن تتابع الصدور ، وما يتصل بعد ذلك بالتعبير عن سياسة المجلة، أو الصحيفة الأسبوعية نقول انها تقترب أكثر من خطوة من ذلك النوع من أنواع المقالات الافتتاحية التى تعرفها المجلات أولا ، والصحف الأسبوعية ثانيا ثم اليومية فى أحوال قليلة جدا ، والتى تركز على احدى هذه الأفكار أو الموضوعات : **« تجربة مثيرة لمحرر — مشكلة مادية أو فنية واجهت صدور العدد — موضوع يتصل بصدور هذا العدد — قصة حصول محرر على سبق صحفى منشور بنفس العدد — خطاب هام من قارىء — خطاب هام من المحرر الى القارىء بشأن مادة ما ، أو تطوير ما أو ما شابه ذلك ٠٠٠ الخ »** ٠

٠٠ كل ذلك اقتربت « الافتتاحيات الجاحظية » منه ٠٠ فاذا علمنا أن الرجل قد قدم للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمائه مصنف ، بعضها فى أكثر

من كتاب أو جزء أو نسخة وكثير منها ارتفعت فوقه تقدم له مثل هـــذه « الفاتحة » ٠٠ وبحسبة بسيطة ومن خلال مقالات المجلات الافتتاحية ، أو هذا النوع من أنواعها على وجه التحديد ، لوجدنا أن النتاج الجاحظى فى هذا السبيل كان يتسع ليغطى افتتاحيات عدة أعوام كاملة لا تقل بحال عن أربعة أعوام ، من أعداد هذه المجلات (٥٢ افتتاحية سنويا) ٠٠ هذا كله مع علمنا بأن بعض هذه المجلات الحديثة لا تنشر افتتاحية واحدة من هذا النوع فى جميع الأحوال ، وانما تنشر الى جوارها أحيانا ، افتتاحية عادية كأية افتتاحية أخرى ٠٠ فاذا كانت لمجلة شهرية فان ما نشره الجاحظ يغطى افتتاحيات اعداد ما يزيد على ٢٥ سنة منها !

وكان من بين هذه المقدمات والفواتح الجاحظية ، التى تقترب من هذه المقالات الافتتاحية للمجلات والصحف الأسبوعية ، خاصة دوريات التخصص العام ، ما يلى :

« ولعل هذا الجزء الذى نبتدىء فيه بذكر مالنا فى الحشرات والهمج ، أن يفضل من ورقة شىء ، فرفعه ونتمه بجملة القول فى الظباء والذئاب ، فانهما بابان يقصران عن الطوال ويزيدان عن القصار ٠٠

وقد بقى من الأبواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة ، التى قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظ . وهو القول فى البقر والقول فى الحمير والقول فى كبار السباع واشرافها ورؤسائها وذوى النباهة منها كالأسد والنمر والببر واشباه ذلك ـ وســـنذكر تسالم المتسالمة منها ، وتعادى المتعادية منها ـ وقد شاهدنا غير هذه الاجناس يكون تعاديها من قبل هذه الأمور التى ذكرناها ، وليس فيما بين هذه السباع بأعيانها تفاوت فى الشدة ، فتكون كالأسد الذى يطلب الفهد ليأكله والفهد لا يطمع ولا يأكله ، فوجدنا التكافؤ فى القوة والآلة من أسباب التقاسد ٠٠٠ وسنذكر علة التسالم وعلة التعادى ، ولم طبعت رؤساء السباع على الغفلة. وبعض ما يدخل فى باب الكرم ـ ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئا فى هـذه الغرائب . وطريقة من هذه الطرائف . الا ومعها شاهد من كتاب منزل . أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب . أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، ومن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستذرى بالهضاب ودخل

فى الغياض ومشى فى بطون الأودية ـ ونحن حفظك الله اذا استنطقنا الشاهد وأحلنا على المثل ، فالخصومة حينئذ انما هى بينهم وبينها ، اذ كنا نحن لم نستشهد الا بما ذكرنا ، وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا ، الا أن يكون شىء يثبت بالقياس ، أو يبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه، ولتثبيته واظهار حجته » (٤٧) ٠

هوامش الفصل الخامس :

(١) محمود أدهم : « الأسس الفنيـــة للتحرير الصـــحفى العام » ص ٧٠ ، ٧١ ٠

(٢) أحمد بن على المقرى الفيومى : « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى » ص ١٧١ ٠

(٣) محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى : « مختار الصحاح » ص ١٢٥ ٠

(٤) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصـــحفى » حـ ١ ص ٢٥ ٠

(٥) C.H. Brown : "Informing the people" p. 205

(٦) H.M. Patterson : "Writing and Selling Feature Articles" p. 61.

(٧) محمود أدهم : « المدخل فى فن الحديث الصحفى » ص ٤٠ ٠

(٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » حـ ١ ص ١١٢ ٠

(٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ٤ ص ١٠٢

(١٠) محمود أدهم : « التحقيق الصحفى » ص ٢٤ ٠

(١١) محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفى » ص ٨ ، نقلا عن H.M. Patterson

(١٢) دافيد بوتر ، ترجمة محمد مصطفى غنيم : « مخبر والصحف » ص ٢٣ ٠

(١٣) ف٠ فريزربوند ، ترجمة راجى صهيون : « مدخل الى الصحافة» ص ٢٠٧ ٠

(١٤) شوقى ضيف : «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ص ١٦٠ ـ ١٦١٠

(١٥) محمود حسين أدهم : « فن التحقيق الصحفى المصور » رسالة ماجستير فى الصحافة طبعت بعض أجزائها ، المجلد الثانى ، ص ١٠٤٠ ٠

(١٦ ـ ١٧) جميل جبر : «الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره» ص٧٥/٧٦

(١٨) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٩٣٥ ٠

(١٩) نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبى » ص ١٨٩ ٠

(٢٠) تعريف معجم « لاروس » ٠

(٢١) تعريف دائرة المعارف البريطانية ٠

(٢٢) محمود أدهم : « المقال الصحفى » ص ١٣ نقلا عن « أحمد رسدى صالح » ٠

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، احد التعريفات الخاصة بالمؤلف ٠

(٢٤) المصدر السابق ص ٤٤ ٠

(الجاحظ)

(٢٥ ـ ٢٦) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحفى» ص ١١٤ ـ ١١٨ ٠

(٢٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ١ صفحات متعددة ٠

(٢٨) شوقى ضيف : « النقد » ص ٩ ٠

(٢٩) أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبى حتى نهاية القرن الأول الهجرى » ص ٩ ٠

(٣٠) شوقى ضيف : « النقد » ص ٥٧

(٣١) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ١٢٠ نقلا عن « كتاب الحيوان » ٠

(٣٢ ـ ٣٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » ص ٢٥٢ ٠

(٣٤ ـ ٣٥) توفيق الحكيم ، حديث الثلاثاء ـ فى الوقت الضـــائع ـ جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ + أنظر له أيضا : « فن الأدب » ص ٣٢ ٠

(٣٦) محمود أدهم : « المقال الصحفى » ص ١٨٥ ٠

(٣٧) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ١٩٧ ، ١٩٩ ٠

(٣٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ ٠

(٣٩) المصدر السابق ص ١١٣ ٠

(٤٠ ـ ٤١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ٠

(٤٢) الجاحظ « البخلاء » ص ١١٦ ٠

(٤٣) الجاحظ : « التربيع والتدوير » تحقيق فوزى عطوى ص ٩ وما بعدها ٠

(٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦) محمود أدهم : « المقال الصحفى »ص ٥٩ ٠

(٤٧) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ٦ ، ص ١١ ٠

الفصـــل السادس

عن

الأسلوب الجاحظى

« الجاحظ ولغة الصحافة »

بعد هذه الرحلة الطويلة ، مع « النتاج الجاحظى » المتعـــدد الألوان والأشكال ، وعلى أثر تقديمنا لهذه الشواهد العديدة ، على أن للرجل جانبه الصحفى ، أو ذلك الجانب الذى يمكن النظر اليه من زواية صحفية ، فلا نجده بعيدا عن « صحافة اليوم » بموادها وأنماطها وفنونها التحريرية ·· وبعد أن أقمنا الجسور بين هذا النتاج الذى اعتبرنا بعضه أدبا صحفيا ، وبعضه الثانى بمثابة جذور لفنون التحرير ، وبعضه الثالث بمثابة طلائع متقدمة لها ، بينما انطبق بعضها الرابع عليها تمام الانطباق ، لاســيما من زاوية المقال الصحفى ·· وهو ما سبق به أدباء عصره ، والعصور السابقة عليه فجاز أن يكون بذلك كله أول الصحفيين الذين عرفتهم لغة العرب ·

بعد هذه الرحلة الطويلة ، يكون علينا أن نتوقف مرة أخرى ــ ولا أقول انها الأخيرة ــ عند جانب آخر من تلك الجوانب التى عرف بهــا الرجــل . وارتبطت به وبأدبه ارتباطا وثيقا ·· لنرى ماذا تعنى ملامحها ومعالمهـــا وصورها وشواهدها ، بالنسبة لهذا الجانب الصحفى من جوانب الرجل ، من ناحية ؟ وبالنسبة للصحافة نفسها من ناحية أخرى ؟ فلعلها ــ بما يمكن أن نتوصل اليه بشأنها ــ تقدم دليلا جديدا ، مفيدا ، يؤيد هذه الدعوى ، ويقف الى جوار الأدلة السابقة ، فى مجموعها ، التى تشير الى « الجاحظ » من زاوية صحفية ·· أو ــ على الجانب الآخر ــ ترفض هذه الزاوية ، وتقدم دليلا مختلفا ، أو يقلب ما توصلنا اليه حتى الآن ، رأسا على عقب ، ويصير بذلك علينا ، وليس لنا ··

أما هذا الجانب الذى قد يكون عاملا مؤيدا ، بنفس الدرجة التى قد يكون فيها عاملا معارضا ، أو ربما يكون هذا العامل الآخير ·· فهو ما نطلق عليه تعبير « الأسلوب » وعن هذا الجانب ، أو العامل ، أو العنصر نقول :

أولا ــ الأسلوب : ماذا يعنى ؟

وبطبيعة الحال فاننا لن نقفز الى « الأسلوب الجاحظى » مرة واحدة ·· وانما ومن زاوية تعريفية ، سنمر فى طريقنا اليــه بعـــدد من « المحطــات » الصغيرة ، التى تعطى للقارىء فكرة سريعة عنه ، تقود بدورها الى الهدف المنشود : الأسلوب الجاحظى بين الأسلوب الأدبى ، والأســلوب الاعلامى الصحفى ··

ولعل « **المحطة** » الأولى التى ينبغى أن نتوقف عندها ، هى تلك التى تجيب فيها على سؤال يقول : ما الأســـلوب ؟ ·· وذلك من خلال جـــولة مع أصحاب هذا الجانب ، وأهله ، ومتخصصيه ··

● ·· ان هناك شبه اجماع على أن الاسلوب هو طريقة معينة فى التفكير والتعبير حسب مقتضى الحال ·

● وان أحد رواد هذا الفن يقول أن الأسلوب هو : « **طريقة التفكير والتصوير والتعبير** » (١) ·· ويضيف قائلا : « ان أبرز صفاته ترجع الى ثلاث : أولا الوضوح ، ثانيا القوة بقصد التأثير ، ثالثا الجمال لعقد الامتاع والسرور » (٢) ·· ويقول آخرون أن الأسلوب هو الطريق والمذهب ، وهو اللفظ والمعنى والقدرة على تقديمهما فى أحسن صورة ··

ويقينى أن **الجانب الأول** من ذلك التعريف ، يصدق تماما بالنسبة لأى أسلوب كان أو أى مستوى تعبيرى ، ومن بين ما يصدق عليها ·· الأسلوب الصحفى ، أو المستوى التعبيرى الصحفى ··

لكن بالنسبة لهذا **الجانب الثانى** ، الذى أورد فيه هذا الرائد خصائص الأسلوب ، فاننى أستطيع أن أزعم أنه كان يقصد الأسلوب الأدبى ، أو بلاغة التعبير الأدبى ، أو المستوى الأدبى من التعبير ، قبل أن يقصد غيره ··

·· ومن هنا ، واذا صح اتخاذ هـــــذه المحطة « **التفسيرية** » لمعنى الأسلوب ، كمنطلق لنا ، فاننا لابد أن نشير الى جوانب أخرى هامة ، تتصل بموضوعها عن قرب ، وبموضوعنا أيضا ــ الأسلوب الجاحظى ــ لعـــــل فى مقدمتها :

● **ما يتصل بمستويات التعبير من حيث هى :**

فنحن نعرف أن هناك ثلاثة مســـتويات تعبيرية ، تختلف فى موقفها ونظرتها الى المادة ، وفى لغتها وأساليبها ، وبلاغتها ، ويلاحظ ذلك ــ كل الملاحظة ــ هؤلاء الذين يتصدون للكتابة ·· أو « يتعاطونها » على حد قول الكاتبين فى عصر الرجل موضوع حديثنا ·· وعموما ، فنحن نترك رائدا من رواد الصحافة يتحدث عن هذه المستوياتنفسها ــ د·**عبد اللطيف حمزة** ــ استمع اليه وهو يقول ، أن هذه المستويات هى :

« **المستوى الأدبي** : وهو المستوى الذى يقف فيه الأدباء للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم وتجاربهم الانسانية بوجه عام ، ولهم فى هذا التعبير طرائق تختلف بأختلاف الأشخاص ، وأختلاف العصور واختلاف البيئات ..

والمستوى العلمي : الذىيقف فيه العلماء ليعبروا عن الحقائق العلمية، سواء أكان ذلك فى العلوم الكونية ، أم التاريخية أم الأدبية ، وهم فى هذا التعبير يلتزمون لغة تمتاز بالوضوح واستخدام الألفاظ التى تكون على قدر المعانى ، واصطناع المصطلحات التى اتفق عليها أهل كل علم من هذه العلوم على حدة ، ومعنى ذلك أن العلم مادته الحقائق وحدها فى حين أن الأدب مادته العواطف والصور والأمثلة ..

والمستوى العملي : .. وهو المستوى الذى يقف فيه الصحافى لينقل للناس أخبار البيئة التى يعيشون فيها والبيئات التى يتصلون بها وليقوم للناس بتفسير هذه الاخبار فى أثناء نقلها وبعد نقلها وذلك عن طريق التعليق عليها ، والاستنارة بآراء الممتازين من القراء فى بعضها وهو فى سبيل ذلك يستخدم لغة عملية يفهمها القراء ، ولا يشترط فيها ما يشترط فى لغة الأدب من خيال أو جمال أو ما يشترط فى لغة العلم من دقة بالغة فى تحديد معانى الألفاظ » (٣) .

.. أقول ، نحن مع هذا الرائد جملة فى تقسيمه هذا ، وان كنا لسنا معه تماما أو بنفس القدر فى بعض التفصيلات .. خاصة :

— وهو يجعل كل مستوى من هذه المستويات كلا كاملا بحيث تصدق هذه الخصائص على جميع الفنون الأدبية ، أو العلمية أو الصحفية بنفس الدرجة .

— وهو يكاد يجرد النوعين الاخيرين من أن تتمتع بعض أنماطها ببعض صور ولمسات الفن والجمال ، أو يجعلها بلا بلاغة أو يعتريها الجفاف دائما مع أن لكل منهما بلاغته المرتبطة به .

— وهو يكاد يقصر أو يركز المستوى العملى على الصحافة وحدها، مع أن له صوره العديدة « التعاملية » و « الوظيفية » التى يعرفها العاملون فى كل مجال .

ـ بـ وحتى وهو يقصر المستوى العملى على الجانب الصحفى وحده، فاننا نراه يكاد يركز تركيزا شديدا على ما يتصل بلغة الأخبار أولا والمواد أو الأنماط الوثيقة الصلة بها ثانيا ٠٠ .

ذلك كله ، بينما هذا المستوى الأخير ينقسم الى أكثر من مستوى فرعى، أو قسم على النحو الذى سوف توضحه فقرة قادمة باذن الله ٠٠

ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ يبقى تقسيما طيبا ومعقولا ، لا يتبقى بالنسبة لنا ، الا أن نعود فنوضح ، أين يقف الأسلوب الجاحظى منه ؟

● ما يتصل بكتابات الرجل ، وهذه المستويات :

نعم : أين يقف الأسلوب الجاحظى ، أو ـ بطريقة أخرى ـ المستوى البيانى التعبيرى الجاحظى ـ من هذه المستويات السابقة كلها ؟

اننا ـ والحق يقال ـ لتعلو وجوهنا الدهشة الكاملة ، وربما « تجحظ» عيوننا أيضا ٠٠ عندما نتأكد من أنه كان للرجل ذلك الموقع الفريد الذى يقفه ـ بلغته وأساليب كتابته ـ من هذه النوعية السابقة فى مجموعها ٠٠ والذى أزعم أنه لم يشاركه فيه كاتب آخر فى عصره ، و فى مجتمع العباسيين من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن هذا الموقع الفريد من هذه المستويات تقترب به تماما من مواقع « الكتاب الصحفيين » الذين نقرأ لهم الآن ٠٠ ولكن كيف؟

● ففى البداية نقول أن الرجل قد حطم سيه قاعدة تاريخية أدبية ، أو من قواعد التاريخ الأدبى ، أو تاريخ التحرير ، يعترف بها عدد كبير من الكتاب ، هذه القاعدة هى التى عبر عنها الرائد السابق نفسه بقوله ; « ٠٠ ولعلنا حين نمعن النظر فى تاريخ الكتابة الفنية . فى أية أمة من الأمم نجد انها تمر بالمستوى الأدبى أولا ، فالمستوى العلمى ثانيا ، فالمستوى الصحفى فى نهاية الأمر ٠٠٠ ففى الأول تكون الكتابة ذاتية ، لأنها أدبية ، وفى الثانى تكون الكتابة موضوعية لأنها علمية ، وفى الثالث تكون الكتابة عملية لأنها صحفية » (٤) ٠

٠٠ ويضيف الرائد قائلا ٠ « حدث هذا فى أوربا ، فظهرت الكتابة

الذاتية عند الكاتب الفرنسى مونتانى ١٥٣٣ - ١٥٩٢ ، ثم ظهرت المقالة الموضوعية عند الكاتب الانجليزى بيكون ١٥٦١ - ١٦٢٦ ، وأخيرا ظهرت المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمه على ايدى كتاب كثيرين ، مثل الكاتب الانجليزى « ديفو » و « ستيل » وغيره من كتاب القرن الثامن عشر الذين أدركوا الفروق بين هذه المستويات الثلاثة التى تحدثنا عنها (٥) ٠

كانت هذه هى المقولات التى تمثل شبه القاعدة التى حطمها الرجل ٠٠ أما عن السبب فى ذلك ، وكيفية وقوعه ، فببساطة شديدة نقول أن كتابات الرجل قد قدمت هذه المستويات الثلاثة معـــا ، الأدبى والعلمى والعملى ، وأنها وسعتها جميعها ، ومرت بها كلها . والدليل على ذلك ، ما ذكرنا من مثيلات هذه الكتابات ، فهل يعنى ذلك أن الرجل كان « محررا » أو « كاتبا » أو أديبا » لكل العصور ؟ أو - على الاقل - لهذه العصور المتنـــوعة التى شاهدت تلك المراحل الثلاث ، التى مرت بها عدة أمم ، فى تاريخها الأدبى ؟

● ٠٠ وفى ظل هذه المقولة أيضا ، ومن خلال هذه الزاوية الزمنية نفسها ، نجد أن دهشتنا لتزيد أكثر عندما نعرف أن هذا الكاتب العربى ، قد تناول هذه المستويات التعبيرية الأسلوبية الثلاثة خلال بعض كتبه ، بل خلال كتاب واحد من كتبه فقط ، مثل تلك التى أشرنا اليها ٠٠ بل انه ليمكننا القـول. أن بعض رسائله أيضا ، وليست كتبه فقط من تلك التى أشرنا اليهـــا عند حديثنا عن «مقالات التخصص العام» أو « المقالات الموضوعية » ومع ما فيهما من أقتراب شديد من بعض التحقيقات الصحفية العامة المتخصصة هذه أيضا - وبعضها لم يتعد الخمسين صفحة أحيانا - كان يجمع بين هذه المستويات، جمعا ذكيا لكاتب يستطيع ويقدر وله أقلامه المتعددة ولا أقول قلمه الواحد ، تلك التى يملك ناصيتها كلها ٠٠

● واذا كان ذلك كله ، يؤكد ما أشرنا اليه ســـابقا ، من جوانب موسوعية الرجل وشمولية فكره ، الرجل المكون من عدة رجال ، الأديب صاحب الاهتمام الكبير بالتاريخ والعلوم والفلسفة واللغويات والأخبار والمادة الآخرى التى وجدناها تقترب فى أحيان كثيرة من أنماط التحرير الصحفى المعاصرة ، فانه - بالتالى - يؤكد أن الرجل قد عرف وخبر وكتب بكل هذه المستويات التعبيرية ، وأن تلك المعرفة كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لهذه الاهتمامات كلها .ومن ثم ، فقد جمع بينها ، وكان من بين مستويات تعبيره ، هـــذا

المستوى الذى نقدمه له خلال هذه الفقرة ٠٠المستوى العملى ، أو الصحفى٠٠ كما نقول الآن ٠٠

ثانيا ـ عن الاسلوب الصحفي

٠٠ ثم ماذا ؟

كان ذلك عن الأسلوب من حيث هو ، وعن مستويات التعبير الكتابى ، فماذا عن الأسلوب الصحفى نفسه ؟ أو عن هذا المستوى الأخير « العملى » ذاته ؟ وأين يقف الجاحظ ـ بكتاباته المتعددة ـ منه أيضا ؟

اننا نقترب فى هذه الفقرة ، من ذلك كله ، فنتوقف فى البداية عن بعض الأقوال التى تتصل بهذين الجانبين ، من تلك التى وردت بعدة كتب ، مباشرة أو غير مباشرة ثم نحاول ـ معا ـ أن نحدد موقع الكتابات الجاحظية منها٠٠ ترى ، ما هى أهم هذه الأقوال ؟

● ان عددا من المؤلفين ، قد ذكر قول أبى الصحافة الحديثة ـ دانيال ديفو ـ ذلك الذى يقول فيه : « اذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت انه الذى اذا تحدثت به الى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما فى قدراتهم العقلية ـ باستثناء البله والمجانين ـ فانهم جميعا يفهمون ما أقول » (٦) ٠

● وكان الاستاذ الدكتور « محمود عزمى » يردد على طلاب معهد الصحافة قوله : « الأسلوب الصحفى هو أكثر أساليب الكتابة تعبيرا وأقربها الى عقول الناس كما أنه أقصرها وأوضحها كلمات ، ويمكن أن نضيف الى ذلك دلالاته المتعددة » ٠

● ويتحدث أحد الباحثين عن هذا الأسلوب من أكثر من زاوية ننقل هنا بعض كلماته عنها : « يسمى بعض أساتذة الأدب العربى الحديث لغة الصحافة بالنثر العملى للتمييز بينها وبين النثر الفنى والنثر العادى ـ ليس معنى هذا أن محرر الصحافة يستلزم اتباع أسلوب النثر العملى فحسب ، ذلك لأن الصحف والمجلات تتناول موضوعات مختلفة ، ومنها قصص

اخبارية ، ومنها موضوعات أدبية ونقدية وفنية الى غير ذلك فليس معنى أن لغة الصحافة هي النثر العملى أن الصحف لا تهتم الا بهذا اللون من النثر ، فاذا كان الموضوع موضوعا أدبيا صرفا فان مجال النقد أو التعليق ينبغى أن يكون بلغة أدبية لا صحفية ـ طبيعة النثر العملى طبيعة سهلة للغاية تنساب فى غير تكليف ولا تعقيد ، ولكنها فى الوقت نفسه تسمو على الأسلوب الدارج فهى تتخذ لنفسها طريقا وسطا بين الأسلوب الادبى الرفيع وبين الأسلوب الدارج من الناس » (٧) ٠

٠٠ وبعد أن يعدد أسباب ذلك وأهمها سرعة ايقاع العصر وما يترتب عليها ، راح الباحث نفسه يعدد مميزات الأسلوب الصحفى على النحو الذى ذكره كثيرون قبله ، وكانت هى : « السهولة والعذوبة والجمل القصيرة والألفاظ المعربة والأكثر استعمالا من الألفاظ العربية ـ لنا تحفظ على ذلك ـ واستخدام الألفاظ المستحدثة والابتعاد عن الجمل الاعتراضية » (٨) ٠

● ٠٠ وقد تناولت باحثة أخرى الموضوع من أكثر من زاوية غلب عليها الطابع غير المباشر ، كما جاء حديثها عن الأسلوب الصحفى عرضا ، أكثر من مرة ، وكان من بين ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

ـــ ففى تعريفها لفن التحرير الصحفى نقرأ قولها : « انه فن تحويل الأحداث والافكار والخبرات والقضايا الانسانية ومظاهر الكون والحياة ، الى مادة صحفية مطبوعة ومفهومة سواء عند صاحب الثقافة العالية والذكاء الخارج ، وصاحب الثقافة المتوسطة والذكاء العادى ، وعند رجل الشارع الذى يقرأ ليفهم ويعرف » (٩) ٠

ـــ وفى مكان آخر ، ولو أن الحديث يتناول الصحافة المدرسية فى المرحلة الثانوية ، وقارئها يمثل قطاعا هاما من قراء الصحف والمجلات عامة ، تقول الباحثة نفسها : « واذا أردنا أن نحدد أسلوب التحرير هنا فانه يكون مباشرا وفى صيغة سهلة وطبيعية بلا ارتكازه على رموز بالمرة ـ استخدام الأسلوب الصحفى الذى يتضمن لغة سهلة مفهومة مزاج بين لغة التخاطب بين الجماهير ولغة العلماء والمثقفين ، وتختار الكلمة التى تعبر عن المعنى المقصود بلا ازدواج فى المعنى ، والتقليل بقدر الامكان من التورية فى المعنى واللفظ » (١٠) ٠

● .. وبالمثل يتحدث باحث وناقد أدبى وصحفى آخر ، بأسلوب مباشر أحيانا وغير مباشر فى أحيان أخرى ، ممـــا يزيد من اقترابنا من الموضوع نفسه ، انه يقول مثلا ضمن أقوال عديدة بعد أن توفر على دراسة هذا الجانب المهم :

ـــ « .. .واذا كانت لغة الصحافة تحرص على مراعاة **القواعد** اللغوية المصطلح عليها ، فانها تحاول كذلك أن تحرص على خصائص أخرى للاسلوب لم ينكرها المجمعيون وحراس اللغة من **بساطة وايجاز ووضـــوح ونفاذ مباشر وتأكيد وأصالة وجلاء واختصار** » (١١) .

ـــ « ... ذلك أن لغة الفن الصحفى لا تهدف الى أفساد حاسـة **الجمال** لدى القراء . بل العكس من ذلك تتضمن اتصالا ناجحا اساسـه **الوضوح والسهولة** » (١٢) .

ـــ « .... ذلك أن لغة الصحافة هى لغه الوضوح والدقة والبيان والسرعة ، يصطلح عليها العلماء والأدباء والصحفيون فتكون **قاسما مشتركا بين لغة العلم ولغة الأدب** ، وتكون عاملا من عوامل التقريب بين مستويات التعبير المختلفة ــ لم تحرمهم المجامع حق وضع المصـــطلح ، ولم تعترض سبيلهم وانما ذهبت هذه المجامع الى أن استعمال لغة الصحافة أقرب الى أصول اللغة وأشيعه بين الباحثين ، وأن يتخذ منه لغة موحـــدة فى العالم العربى بأسره » (١٣) .

ويطول بنا المجال ، ويمتد حبل الكلام . ان نحن استغرقنا فيه لأكثر من ذلك فحسبنا ما ذكرنا ليتبقى من هذه الأقوال وغيرها تلك العناصر العديدة التى يتميز بها الأسلوب الصحفى بصفة عامة ، والتى نجمل أهمها أو أبرزها فقط فى الآتى .

١ ــ صحة اللغة وسلامتها نحوا .

٢ ــ الاثارة الحدثية والفكرية والتفكيرية (تدعـــو الى التفكير) فى أغلب الأحوال دون اغفال كامل وتام للاثارة العاطفية أحيانا لاســيما فى الموضوعات الانسانية وبعض أنواع المقالات والمقدمات والنهايات .

٣ ـ الوصف الحى والواقعى واختيار الألفاظ الأكثر تعبيرا عنه ٠

٤ ـ الألفاظ الواضحة ، السهلة ، المشرقة ٠

٥ ـ الاهتمام بالمعنى واللفظ معا ، مع عناية خاصة بالمعنى ٠

٦ ـ استخدام بعض المفردات الشائعة التى يتداولها النـاس والتى تجرى على الألسن ، مولدة أو مترجمة أو اصطلاحية ، مما يعكس التطـور نفسه ٠

٧ ـ البعد عن الرمز والألفاظ الوحشية والغريبة ٠

٨ ـ الموضوعية أولا ، وبعض أنماطه تجمع بين الموضوعية والذاتية ٠

٩ ـ اهتمام قليل جدا بالمحسنات البديعية واللفظية ، وانما جوانب الجمال هنا تأتى من البساطة والوضوح ودقة وصدق وواقعية التعبير ٠

١٠ ـ الجمل والعبارات والفقار القصيرة المتماسكة بشكل عام وفى أغلب الأحوال ٠

١١ ـ البعد عن التكرار والاطالة واستخدام المترادفات ، الا لضرورة ، ومع اختلاف فى الألفاظ ٠

١٢ ـ الترجمة الصادقة للمضـــمون الثرى بالوقائع والتفصـــيلات والمعلومات والعمل على توصيله للجمهور كاملا ومفهوما ٠

١٣ ـ دعم الرؤية الموضوعية للواقع وصناعه وأبطاله وصوره ونتائجه، باستثناء القليل الذى يدخل ضمن دائرة « الأدب الصحفى » ٠

١٤ ـ عدم تضمينه الشعر بأنواعه أو الحكم أو الأمثال ، الا لضرورة، أو بالنسبة لبعض الفنون ـ بعض المقالات هنا ـ ودون اسراف فى ذلك ٠

١٥ ـ استخدام التراكيب الحديثة المستساغة للجمهور القارىء ، والتى أضيفت الى القاموس الصحفى ٠

١٦ - استخدام اللغة المناسبة والأسلوب المناسب ، للمادة المناسبة ، التى تتوجه بدورها الى القارئ المناسب ، ومن هنا أختلفت الأساليب من صحيفة الى مجلة ومن صحيفة الى صحيفة ، ومن صفحة الى صفحة ، ومن محرر الى محرر ، بل قد يختلف الأسلوب بالنسبة لصفحة واحدة من ركن الى آخر ، بل وبالنسبة للمحرر الواحد عندما يتعرض - مثل بعضهم - لكتابة أكثر من موضوع أو مادة مختلفة ، على الرغم من أنها - جميعها - تعتبر من الأنماط الصحفية ٠

١٧ - الشخصيات التى يتناولها لا يمكن أن تكون خيالا ، الا فى القليل النادر من مادة مقالية ، وليست كل المقالات أيضا ٠

١٨ - لا يهدف الى تأثير جمالى أو معنوى ، وانما الى الفهم والاستيعاب وتوصيل ما يريد المحرر ، والتأثير هنا يكون فى الرأى العام ، من أجل التعريف والتثقيف والتعليم والتنمية والقيادة نحو صالح الفرد والمجتمع والانسانية ٠

١٩ - التوصيل الى جميع الأفراد والأعمار والأجناس والمستويات القارئة وغير القارئة أحيانا ٠

٢٠ - الأمانة فى تسجيل الواقع ، والدقة فى نقل مشاهده وصوره ، والمسئولية الاجتماعية الكاملة فى تفسيره وتحليله والخروج من ذلك بالنتائج المهمة ٠

ثالثا : الجاحظ والأسلوب الصحفى

كانت هذه هى بعض المعالم البارزة ، والعناصر المهمة ، فى هذا النوع من أنواع الأساليب التعبيرية العربية ، ولا أقول انها كلها أو جميعها ·· لتتبقى بعد ذلك ، هذه الوقفة من جانبنا ، لنرى أين يقف الجاحظ من هذه المعالم والعناصر وغيرها وما هو موقع « الأسلوب الجاحظى » ، بل والبلاغة الجاحظية بصفة عامة ، من هذا الذى نعتبره جزءا أساسيا من معالم الصحافة الحديثة ؟

لكنا قبل الحديث عن ذلك كله ، انما ننبه الى عدد من الأمور الأساسية المتصلة بهذا الجانب ـ جانب الأسلوب الصحفى ـ من ناحية ، وبالرجل نفسه من ناحية أخرى ، ومن هنا نقول :

الأمر الأول : أن هناك كما شهدنا خلال هذه القائمة ، وكذا خلال بعض التناولات السابقة أيضا ، أن هذا الأسلوب الصحفى يأخذ كثيرا من معالم المستوى الأدبى نفسه ، فليس معنى فصلنا ـ نحن وغيرنا ـ بينهما ، أن هذا الفصل يكون تاما وكاملا ودقيقا وأن الصحفى يقف فى جـــزيرة معزولة ، وبعيدة كل البعد عن جميع معالم ومواطن الجمال فى الأول ، ان المستوى الأدبى هو الأصل والأساس ، وان المستوى الصحفى قد تولد عنه ، وتفرع منه ، ومن ثم فقد تربى بحجره ونشأ بين أحضانه حتى انفصل على صفحات بعض ألوان النتاج الفكرى فى طريق النتاج الصحفى . ولكن حتى هـــذا الانفصال لم يكن مرة واحدة ، ولا كان كاملا ، بل اننى أرى أنه لم يكتمل تماما حتى اليوم ·· ومثل ذلك يقال عن « بلاغة الاعلام » وصلتها بالبلاغة بمعناها الشامل ·

واذا كان من حق الرجل القول بأن صفحات كتبه ورسائله ، كانت هى من أول ما شهد هذا الامتزاج العضوى بين الأسلوبين ، على الرغم من عدم معرفة الصحافة بمعناها الحديث أو المطبعة فاننا نقول أن بعض المـــلامح والعناصر ، ما تزال شاهدة على هذا التوالد ، وعلى هذا الشـــبه القائم بين الأسلوبين ، خاصة عند بعض كتاب عدد من أنواع المقالات (الخواطر والتأملات ـ الأعمدة الانسانية ـ المقالات الوصفية والنقدية ـ اليوميات ـ المقالات الكاريكاتيرية) ·· وكذا بالنســـبة لبعض الوحـــدات التحريرية التحقيقات والتقارير والقصص والماجريات · خاصة العنوانات والمقدمات والنهايات ·· حتى الصور المصاحبة لهذه ، فقد قيل عنها أيضا أنها « أدب بصرى » ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وفى عدد من مؤلفاتنا السابقة ·

الأمر الثانى : ويستتبع ذلك ـ بالضرورة ـ أن تكون هناك بعض المعالم والعناصر المشتركة بين المستويين والأسلوبين معا ، وهى تتصل أولا بعدد من معالم الواقعية ، ومواطن الجمال الملائمة واســـتخدام التعبير المناسب للمادة المناسبة وهو « المثلث » الذى أعتقد أن « الجاحظ » قد نفذ من بينه بكتابته ، الى الاقتراب من جانب الأسلوب الصحفى ، وكانت هذه العناصر

الثلاثة ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها هي المجال الذي شهد وقوع هذه العلاقة بين لغة الرجل وبين أسلوبه ، وبين ما نطالعه اليوم على الصفحات ، خاصة صفحات المجلات والمادة « المجلاتية » قبل غيرها ، وذلك الى جانب خصائص أخرى عديدة شهدت اقترابا من نوع آخر ٠٠ بين الأسلوبين الصحفي العام ، وأسلوب "الجاحظ ٠

الأمر الثالث : أنه حتى بالنسبة للمستوى الصحفي أو العملي ، فان هناك الجديد الذي قلناه بشأنه ، اذ ليس من المعقول وقد تعددت الفنون والاطر والأساليب بل وتعددت الوسائل الصحفية نفسها والقراء أيضا ، أن يكون هناك ذلك المستوى التعبيري الصحفي الواحد ٠٠ وانما اتضح لنا من خلال دراسة سابقة ، تعتمد النظرية والتطبيق فوق الصفحات المطبوعة ، أن هذا الأسلوب الصحفي نفسه يتفرع الى :

- **المستوى الصحفي الاخباري البحت** : للاخبار الصغيرة والمتوسطة والكبيرة ٠

- **المستوى الصحفي التسجيلي** : بكل دقته وموضـــوعيته وكون ألفاظه على قدر معانيه — مثل المستوى السابق — وذلك للقصص والموضوعات والتقارير الاخبارية وما يتفرع عنها ٠

- **المستوى الصحفي التفسيري** : لبعض أساليب تحـــرير بعض المقابلات والتقارير الحديثة والمقالات الافتتاحية ومقالات التعليق والتفسيرية والقائدة الموقعة ٠

- **المستوى الصحفي الوصفي** : لاسيما في بعض القصص والتقارير والتحقيقات والمقالات وهو يأخذ كثيرا من جانب المستوى الأدبي ٠

- **المستوى الصحفي المتأدب** : للفنون والانماط والوحدات التحريرية التي تحتاج الى قدر من الجمال والذوق الأدبي ، وقد أشرنا اليهـــا أكثر من مرة ٠

- **المستوى الصحفي العلمي** : لبعض جوانب « التخصص العام » بمقالاته ودراساته ٠

- **المستوى الصحفي العام** : وهو يجمع بين أكثر من معلم من المعالم

السابقة ونراه فى ألوان الكتابات القياسـيـة كبيـرة الحجم فى الغالب كالتحقيقات والدراسات والحمـلات والمقالات العامة والموضـوعية والتحليلية (١٤)٠٠٠

ترى ٠٠ أين يقف الرجل من هذه المستويات الفرعية كلها ؟ وقبلهـا ، وأكثر منها : أين يقف من هذه الطائفة من خصائص الأسلوب الصـحفى نفسه ؟ اننا نتناول ذلك كله ، من خلال النقاط التالية ، ومن أكثر من زاوية أيضـا :

١ ـ فبداية نقول ، أنه لم يكن من المعقول أن تأخذ كتابات الرجل كلها هذا الطابع ، وأن تتصف بمثل هذا الأسلوب ، ولا نستطيع أن نزعم ذلك ، لأننا ـ على الأقل ـ لم نحصرها وندرسها كلها ، ولأنها أيضا تقع ضـمن الدائرة الأدبية وتتضح صلاتها الكبيرة بها من جميع الزوايا ، وباستخدام مختلف المقاييس ٠٠ انما الذى نستطيع أن نقوله ، أنه وكما توجد هـذه الكتابات ذات المستوى والأسلوب الأدبى البحت أو الكامل ، توجد أيضا هذه التى تقف ـ بلغتها وأسلوب كتابتها ـ بالقرب من لغة وأساليب الصحافة الحديثة ، وبعضها يقترب منها اقترابا شديدا ، لغة وأسلوبا أيضا ٠

٢ ـ ولسنا هنا فى مجال تصنيف وفهرسة وتقسيم لكتابات الرجل ، لكننا نقول ، من واقع مادته الموجودة فوق الصفحات نفسها أن الاقتراب من لغة الصحافة عند الجاحظ ، وأن الابتعاد عنها ، كان يفرضه الموضوع نفسه ـ ككل كاتب صحفى آخر ـ وكان هو الذى يوجهه نحو تلك العناصر والملامح التى عدت أدبية كاملة أحيانا ، ولكنها فى أحيان أخرى مما يمكن اعتباره ضربا من الكتابة الصحفية ٠٠ وعموما ـ وقد كان الرجل موسوعيا ويملك أن يكتب ويغير ويجدد وينوع ـ فنحن نستطيع أن نقول ، مما تظهره الصفحات نفسها أن أكثر ألوان كتاباته التى شهدت مثل هذا الأسـلوب القريب من الأسلوب الصحفى كانت هى الكتابات الاخبارية والاجتماعية الواقعية والفكاهية والنقدية أولا ، وكانت هى الكتابات التاريخية ثانيا ، وكانت هى الكتابات السياسية ثالثا ، وكانت هى الكتابات العلمية فى المحل الرابع ٠٠ بحيث نستطيع توزيع هذه كلها على مختلف ألوان الأسلوب الصحفى أو نوعياته التى أشرنا اليها فى السطور القليلة السابقة ٠

٣ ـ فاذا نظرنا الى القائمة السابقة نفسها ، وحاولنا التقريب بينها

وبين جوانب الأســـلوب الجاحظى التى كانت نسيج هذه الموضــوعات ، والنكتابات لوجدنا أن أكثر ما تأخذه من هذه الخصائص ، أو تكون أقربها اليهـــا :

● **صحة اللغة وسلامتها نحوا** ، ومن الذى يمكنه أن يقــول بغير ذلك ؟ بل لعل مثلى ، وغيرى ممن هم أكثر منى قدرة ومعرفة بهذا الجانب ، لا يستطيع ــ أيهم ــ أن يقول بغيره ، ومن ثم فهذا الجانب قد يكون مجال أخذ ورد عند كبار علماء اللغة ، ولكن ــ على الأقل ــ ليس عندى ، أو ليس بالنسبة لتوجهات وامكانيات هذا البحث نفسه ، بل انه ليعتبر من قبيـــل البديهيات ٠

● -**الوصف الحى الواقعى** لما شهده أو سمعه أو قيل أو روى له خاصة عندما كان يصف أحوال الناس والفئات والطبقات الاجتماعية الموجودة فى مجتمعه ، وما يتصل بها من صور ومشاهد بعضها ايجابى ، وبعضها الآخر سلبى . جميعها واقعية لا خيالية وليست كذلك من بنات أفكاره ٠٠

● **الاختيار الصحيح والكامل لنوعية اللغة ومســـتوى الأسلوب** وما يتصل بهما من ألفاظ ومفردات ، تصلح قبل غيرها للتعبير عن مادة معينة أو مضمون دون آخر وكأنه بذلك كله كان يعرف أو يتوقع أو يستشف من هم الذين سيقبلون على قراءة المادة ، أو الأخرى ، أو الثالثة ٠

● وقد ترتب على ذلك أن يكون لكل كتابة ما يتصل بها اتصالا وثيقا . ولكل موضوع ما يرتبط به قبل ارتباطه بغيره ، وفى سبيل ذلك ، فان الرجل قد توصل الى نوع من المعرفة والادراك ليس لمستويات التعبير الأدبى فقط . وانما لمستويات التعبير الموضوعى . أو الاجتماعى ، أو العملى تلك التى تساوى عندنا وتعبر عن مستويات التعبير الصحفى نفسها ، والسابقة الاشارة اليها ٠٠

ان كتاباته الاخبارية ، غير اللغوية ، غير التاريخية ، غير الفكاهية ، لكل منها ملامحها المتصلة بمادتها ، دون أن تترك تماما « الساحة الجاحظية» وانما كانت ترتبط بالخصائص الجاحظية عامة ، أو يشدها الرجل اليها بحبل متين من هذه الخصائص نفسها ٠٠

أى أننا ــ فى واقع الأمر ــ نجد أن للرجل طريقتين لا طريقة واحدة ، وأسلوبين لا أسلوبا واحدا ، فهناك الخصائص العامة الشـــائعة للكتابات الجاحظية فى مجموعها ، تلك التى نتناولها الآن ، وهناك أيضا تلك التى تتفرع عنها ، والتى تتصل برؤيته لكل فن من الفنون على حدة ، والتى ترتبط بهذا الفن ارتباطا شديدا وقد ألمحنا الى هذه الخصائص وتوقفنا عندها خلال الصفحات السابقة ٠٠

● أن تكون كتابته محلاة أو مزدانة بذلك القدر البسيط والسهل ، غير المبالغ فيه ٠ أو المعقد من أساليب الجمال ، أو ما يطـلق عليه رجـــال البلاغة ٠٠ من « الصنعة الزخرفية » ٠٠ فهو لم يسرف فى تقديم المحسنات البديعية أو اللفظية ، ولم يحاول ــ مثل من سبقه ــ أن يجهد نفسه من ورائها، أو أن يكون الشكل هنا فى المحل الأول تماما ٠٠ شأنه فى ذلك شان كل كاتب ومحرر يحرص على أن يقدم ما يفهم ، وما هو سهل الوصول الى فكر القارىء

● الحرص على جوانب الاثارة الحدثية والفكرية ، وذلك انطـلاقا من أنه كان رجل الاعتزال والفكر والجدل ، ومن هنا فان القـــارىء لبعض كتاباته الدينية والفلسفية والجدلية ليلمح فيها تلك الملامح العـــديدة التى يعرفها كتاب المقالات التحليلية ، من تلك التى تثير قضايا ومناقشات عديدة وهامة ٠ ٠ان أسلوبه هو أسلوب ذلك الرجل الباحث عن الحقيقة ، الساعى وراء الفكر وله ٠

● وكثير من كتابات الرجل ــ ولا أقول كلها ــ يمكن لتلميذ الثانوى من المستوى العادى أن يطالعها ، وباستثناء بعض الكتابات الفلســـفية والجدلية ، فانه تسهل قراءة ومتابعة وتفهم معظم هذه الكتابات ، وما ذلك الا لأنه أحسن اختيار اللفظ السهل والمفرد الواضح ، وبعد ــ قدر الطاقة ــ عن الغريب الوحشى، وهاجمه وتندر به، ومن العجيب ان يثير ذلك حفيظة نقاده وضغينة حاسديه . حيث عدوا ذلك عليه لا له ، وما علموا أن الرجل قـــد سبقهم بعدة مراحل ، حيت توصل الى معرفة ما يقبل عليه الناس ، ويظل هكذا حتى اليوم ٠٠ ليكون الأقرب الى لغة الصحافة ، ونثرها ٠

● وبالمثل ، وفى أكثر الأحوال ، فان الرجل راح يبعد عن الرمز ،

ولم يستبد به الاغراق فيه قدر طاقته ، فمادته كتاب مفتوح ، ويبدو أنه فهم أن خير الأساليب هو ما يوصل الى المعنى من أقصر الطرق وأسهلها أيضا ، وأقربها الى الأفهام والأسماع ، فكان له ما أراد ٠٠ أوليس ذلك كله، من معالم أسلوب صحافة اليوم ؟

● مساعدة القارىء على المتابعة ، وتسهيل عملية القراءة عليه ٠ فعندما يحس أن مادته من النوع الجاف يعمد الى تبسيطها ، أو يعرج على بعض الطرائف المتصلة بها ، وعندما يحس أن الموضوع بات طويلا دلف الى جانب آخر وحاول اللجوء الى فكرة مماثلة ، أو قدم بعض ما يعتبر «محطات» للقارىء ، أو عمد الى خفة الظل ٠٠ أو الى غير ذلك مما يمكن أن يعيبه عليه المؤلفون ، أو الباحثون ، لكن ذلك كان لهدف عنده ، وكان الهدف هو الترويح عن القارىء ليدفعه الى مزيد من القراءة ٠٠ والا فلماذا كان يكتب ؟

٤ ـ وأما عن هذه المستويات الفرعية للاسلوب الصحفى نفسه ، والتى أشرنا اليها ، فاننا نقول أن الرجل فهمها تماما ، **ضمن فهمه أن لكل مقام مقال ، ولكل موضوع تفكيره الخاص وتعبيره الخاص أيضا** ، ومن هنا كـان بعض الاختلاف الوارد فى كتابته ، من موضوع الى موضوع ، ومن مادة الى مادة ، ومن فكرة الى فكرة ٠٠ حتى أنه راح يعمد أحيانا الى بعض الألفاظ غير العربية ، من تلك التى ترجمت وبدأ الناس استخدامها وأصبحت شائعة تجرى على ألسنتهم ، كما استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية ٠٠ واذا كان رجال اللغة والأدب يقولون عن ذلك أنه استخدمها لأنها «**بنت لحظتها**» أو «**مراعاة لمقتضى الحال**» فاننا نقول هنا ، أن ذلك مما يساعد على الاقتراب بين أسلوبه من جانب ، وبين الأسلوب الصحفى من جانب آخر ٠٠

٥ ـ واذا كنا فى مجال ودروس فن التحرير الصحفى ، نركز ضمن ما نركز عليه على أربعة جوانب أو عناصر أساسية ، نفصـــل القول فيها تفصيلا ، ونعمد الى الاهتمام بزواياها ، وأبعادها المختلفة ٠٠ عند دراستنا التطبيقية لها كما تبدو خلال أسلوب تحريرى لفن من الفنـون ، أو نمط من الأنماط ، أو لمحرر هذا الفن أو كاتبه ، فاننا نفعل الطريقة نفسها مع هذه العناصر عند الرجل ومن هنا نقول ٠٠

● **أما عن العنصر الأول فهو** : الحرف : وباستقراء عدد من كتابات

الجاحظ مما قدمنا خلال السطور السابقة أو لم نقدم ، فاننا نجد أن الطابع الغالب على حروف كلمات الجاحظ وألفاظه ، كثيرا ما يقتـرب به من هذا الأسلوب الصحفى ، ومن بينها على سبيل المثال :

— أن حروفه كانت فى كثير من الأحوال تتميز بتعبيرها الصادق عن المعنى الذى تشير اليه الكلمة التى تتكون منها ٠

— أن أثرها النفسى كان يعمل عمله ، وكان من السهل على القارىء الفاهم والمتمكن أن يضع يده عليه ٠

— أن مجمل حروف كلماته فى معظمها كان يقع بين الثلاثة حروف والخمسة حروف ، وهى النسبة الأنموذجية لعدد حروف الكلمة « الاتصالية» السليمة التى تتسلل الى الأسماع والأفهام فى سهولة ويسر ، بل وكلما كان عدد حروفها أقل — وهو ما رأيناه عنده — كان ذلك أقرب الى قراءتها وفهمها

— أنه لم يشق على الآذان والافهام بتلك الحروف الفخمة الضخمة التى تكررت عند آخرين من الكتاب — الا لغرض واضح — وحتى فى حالة ذلك فقد كان الرجل يبتعد عنها قدر الطاقة ٠

— أنه كان يحافظ على الجرس الموسيقى للحرف ، دون اسراف فى ذلك ، ودون تعمد له ، وكانت الموسيقى هذه من النوع الهادىء لا الصاخب، من النوع الذى يذكر بالقطع المتميزة من السيمفونيات التى تحكى مسرى النسيم وخرير المياه وتغريد البلابل ، وليست موسيقى « الجاز » الصاخبة ذات الجلبة والضجيج ٠٠ وقد ظهر ذلك واضحا فى مقالاته ذات الصـــلة الوثيقة بالأدب الصحفى ٠٠ وقد يسأل سائل هنا ٠٠ هل يدخل هذا الجرس ضمن الأسلوب الصحفى ، وأقول فى أحوال قليلة ، عندما يوجد من يقدر عليه ، خاصة فى مجالات الأعمدة الانسانية واليوميات ، وعنوانات ومقدمات ونهايات بعض فنون التحرير ٠٠ أقول فى أحوال قليلة ، وبالنســـبة لبعض الفنون ، وبعض الوحدات التحريرية ٠٠

ثم ان هذه الجرس هنا لم يك « صناعيا » أو « مفتعلا » بحيث يحـرص

الرجل عليه كل الحرص ، وانما كانت موسيقى حروفه ومن ثم كلماته تأتى من فورها ، وبدون افتعال أو « فبركة » كما نقول نحن أرباب مهنة الصحافة

ــ أن حروفه المكونة لكلماته كانت فى كثير من الأحوال خالية من التكرار على مستوى الكلمة الواحدة ، والعبارة ، والفقرة أيضا ، فالحروف لا تتكرر الا قليلا ، وبالمثل كان الحال بالنسبة للحروف القريبة منها ، أو الشبيهة بها باستثناء ما يتكرر لغرض من الأغراض .

ــ وبالمثل فقد خلت الكلمات والجمل كثيرا من الحروف المتضادة ، التى تشق على القارىء والمستمع ، والتى نحذر طلاب التحرير الصحفى منها، خاصة عند كتابة العنوانات والمقدمات بأنواعها ..

● **وأما عن العنصر الثانى وتمثله هنا « الكلمات » أو « الألفاظ »،** تلك التى تبنى على العنصر السابق ــ الحــــروف ــ بحيث تمثل كل كلمة « مركبا » من عدد من الحروف ، فاننا نلاحظ على « اللفظ الجاحظى » اقترابه من « اللفظ الصحفى » فى وجوه كثيرة ، تضاف الى ما سبق أن أشرنا اليه منها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر : « بدون ترتيب » .

« الوضوح والبساطة ــ حسن اختيار اللفظ المعبر عن المــــادة أو الموضوع ــ وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب ــ عدم تكرار حــرف واحد ، أو حروف متشابهة أو متضادة فى الكلمة الواحدة ومن ثم فى العبارة الواحدة ــ الثراء الكبير والمتعدد للمعجم اللفظى الجاحظى والذى يندر أن تجد مثله عند كاتب آخر ــ التفاعل والتجاوب الكامل بين الكلمة وغيرها من الكلمات المكونة للجملة ــ دقــة اللفظ المنتقى بعنــاية للتعبير عن المعنى المقصود ــ عدم الحاجة الى الاستعانة بالقواميس والمعاجم من أجل التعرف على معنى لفظ أو آخر ــ القدرة على التمييز بين المترادفات ــ الاهتمام بدلالة اللفظ أولا ــ عدم استخدام الكلمات القلقة أو غير محددة المعنى تماما ــ استخدام الكلمات الشائعة على الألسن وعلى الصفحات أولا ــ استخدام بعض الألفاظ الأعجمية أو المترجمة أو العامية فى أحوال قليلة ، اذا كانت متداولة بين الناس ــ البعد عن الكلمات غير المحددة المعانى تماما أو تلك التى تمثل رموزا غير محددة المعانى أو تختلف معانيها من شخص لآخر ــ استخدام الألفاظ صحيحة الاشتقاق » .

الى غير ذلك كله ، واذا كان البعض قد أخذ عليه عـــددا من هذه الخصائص وعدها دخيلة على الطابع السائد فى عصره ، وبعيدة عما اصطلح عليه الفصحاء فى كتبهم ومؤلفاتهم ، بل ومما أنكره عرب البادية أحيانا ، وذلك على الرغم من اعتراف البعض بقدرته ٠٠ أنظر مثلا الى قول أحدهم : « قال أبو حيان ، قلت لأبى محمد الأندلسى ، يعنى عبد الله بن حمود الزيدى، ما قولك فى الجاحظ والدينورى ٠٠ قال : أبو حنيفة الدينورى أكثر ندارة وأبو عثمان أكثر حلاوة ، **ومعانى أبى عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب » (١٥) ٠**

اذا كان ذلك هو ما يتصل بألفاظ كلمات الرجل ، فانه هو نفسه كان له رأيه فى ذلك ، نعرضه فى نهاية هذا الفصل وعلى أثر تقديم عدد من الأقوال التى تتصل بهذا الموضوع نفسه ٠٠ لقدماء معاصرين له ، أو لحاليين من الأساتذة :

— ان أحد من تناولوه يذكر قول بديع الزمان الهمذانى فى وصف كلامه : « بديع الاشارات ، قريب العبارات قليل الاستعارات منقاد لعريان الكلام — يقصد واضحه — يستعمله ، نفور من معتاصه — يقصد غامضـــه وغريبه — يهمله فهل سمعتم له بكلمـــة غير مســـموعة ، أو لفظة غيـــر مصنوعة » (١٦) ٠٠ ويضيف المؤلف قائلا ومما يقترب به أكثـــر من الأسلوب الصحفى : « كان همه أن يعبر بوضوح وعفوية بلغة مرنة غنية بالمفردات والمرادفات ، وكان يعنى عناية خاصة باختيار الكلمة التى تستوفى التعبير عن المعنى المقصود ، **ولا يستنكف عن استكمال التعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصا فى سرد الحوار ، وما قصده الا ايحاء صورة تامة عن موصوفاته فى أجوائها المختلفة » (١٧) ٠٠**

— ومثل ذلك يقول أحد رواد الدراسات الأدبية : « ٠٠٠ تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث **تلائم ما يصنعه أو يصوره** حتى أنه ليحـــكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل اليك الواقع بكل ما فيه ، فهو يحكى دائما أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يلهج فى كتبه ورسائله بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال » (١٨) ٠

٠٠ وماذا يفعل المحررون غير ذلك ؟ ٠

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « اللفظ الجاحظى » وننتقل الى عنصر آخر هو :

● **العنصر الثالث وتمثله هنا « العبارة »** تلك التى تمثل هذا المركب العضوى من عدة كلمات ، أو تمثل تلك المجموعة من الكلمات المترابطة ، الموجودة الى جوار بعضها ، والتى يكتمل بها التعبير المفيد ، المؤدى الى الفهم ، والتى يطلق عليها أيضا : « الجملة » ٠٠ ترى ، ما الذى يمكن أن نقوله عن « العبارة الجاحظية » ؟ وعن الصلة بينها وبين الأسلوب الصحفى ؟

اننا فى الصحافة ــ وكما قلت فى مؤلفات عديدة ــ نكتب لنقرأ ، ليطالعنا الناس، ليفهم هؤلاء ، لكى نصل اليهم ، ويتم التواصل ــ بدرجاته ــ بيننا وبين القراء ، وحتى تتم القراءة ، والمتابعة ، ويتم التواصل وتؤدى دورنا فاننا نصل الى هؤلاء على جسور الحروف المكونة لكلمات ، والكلمات المكونة للعبارات . والعبارات المكونة للفقار والفقار المكونة للنصوص التحريرية الصحفية ، أو للرسائل الاتصالية الصحفية التى تأتى فى شكل خبر أو موضوع أو قصة أو تحقيق أو حديث أو مقال ٠٠ حتى نصل الى القراء ، وبالتركيز هنا على العبارة فانها لابد وأن تكون :

ــ واضحة تماما ٠

ــ قصيرة بقدر الامكان ٠

ــ ذات نسيج قوى ومتماسك من الكلمات والحروف ٠

ــ تنتهى اليها العبارة السابقة عليها ، وتؤدى هى الى العبارة التالية لها فى سهولة ويسر ٠

ــ لا تتكرر فيها الكلمات والحروف بدون داع ٠

ــ كل كلمة من كلماتها تقع فى مكانها الصحيح ٠

ــ لا تكون محشوة بالمترادفات ٠

ــ ولا الروابط الكثيرة ٠

ــ ولا الجمل الاعتراضية ٠٠٠

ــ التى تقدم معنى مفيدا ، محددا ، وغير قلق ٠

— الصادقة والدقيقة التعبير عن المعنى المقصود وتصوير المشـــهد أو الموقف أو الشخصية ·

— القوية التأثير وحدها ، والتى يزداد تأثيرها قوة مع اخواتها من العبارات الأرى ·

— غير المقطعة ، أو الممزقة الأوصال ·

— ذات الجرس البسيط والمعنوى ·

— الخالية من الزخرف ، الا ما ورد عفو الخاطر ··

الى غير ذلك كله ·

·· تلك هيعباراتنا الصحفية عامة أو التيتصلح للاستخدام على مستوى التحرير الصحفى ·· فهل للعبارات الجاحظية صلة بها ؟ وما هو نوعها ؟

الحق ان استقراء **التراث الجاحظى** . ليضع يدنا على حقيقة تقول ، أن عباراته أو جمله ، قد تميزت بعدد كبير من هذه الخصائص الصحفية وكان من أبرزها — ونحن نتحدث هنا عن بلاغة صحفية اذا صح التعبير — **اقول كان أبرزها خمسا على وجه التحديد ألا وهى :**

١ — **قصر العبارة** وايجازها خاصة بالنسبة لـــادته التى اقتربت من الصحافة ، والتى أشرنا اليها من قبل ، وليس فى جميع الأحوال انطلاقا من أنه « لكل مقام مقال » ·

٢ — وقد ترتب على ذلك ، وبمراعاة ثروته اللغوية ومعجم مفرداته الكبير أن جاءت العبارة « قوية الحبك شديدة التماسك » (١٩) ·· لا يسهل اختراقها ، ولا تسقط منها كلمة ما ·

٣ — **الوضوح الكامل** للكلمات أو الحروف ومن ثم للتركيب العبارى كله·

٤ — **الخلو من الزخرف الصناعى** قدر الاستطاعة . وعدم الحرص عليه وتركه يأتى عفو الخاطر ·· ولعل ذلك هو ماعناه د· شوقى ضيف بقوله · « ·· فالكتابة عنده ليست زخرفا خالصا يراد به الوشى والحلى ، وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيرا لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة » (٢٠) ·

٥ ـ العناية بأن تكون كل عبارة وحدة واحده تقدم معنى مفيدا يثير القارىء ويشجعه على المتابعة والانطلاق نحو العبارات الأخرى التى تتكون منها الفقرة ٠

٠٠ وليست هذه فقط هى ما تميزت به العبارة الجاحظية من خصائص فقد كانت هناك المعالم الأخرى التى تأخذ بنصيب من البلاغة بمعناها الأدبى، وبمعناها الصحفى معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

« حسن الربط بين العبارة والعبارة الأخرى ـ الترتيب المنطقى الجيد للعبارات فى مجموعها ـ التقديم والتأخير للاسماء والأفعال بما يعمل على تقوية العبارة ـ عدم التكلف أو التعقيد ـ طرافة التعبير واستخدامها الذكى لكسر حدة جفاف عبارة أو أخرى ٠٠٠ وغيرها » ٠٠ وهى مالا تقتصر معرفته على الأدباء فقط وانما الأديب والصحفى معا ، وبالنسبة لاكثر فنون وأنماط التحرير الصحفى ٠

● **وأما عن العنصر الرابع الذى تمثله « الفقرة » ٠٠** فمن الطبيعى، وقد جاءت كل هذه المقدمات ، دقيقة ، وصادقة ، ومختصرة ، ومتماسكة ، وصحيحة ، أن تكون النتيجة من جنس هذه الخصائص كلها ، واذا كانت النتيجة النهائية تتمثل فى « النص » كله ، أو المادة أو الموضوع من أوله الى آخره . فان النتيجة الأولية تظهر ضمن اطار الفقرة ، تلك التى ينتهى اليها نسيج العبارات ، وتجمع هى بين أكثر من عبارة ٠٠ وحيث يمكننا أن نضع أيدينا على أكثر من خصيصة واحدة للفقار الجاحظية ، تقترب كثيرا من تلك التى تشترط فى « الفقار الصحفية » ٠٠ ومن بينها ، أو من أهمها :

ـــ الطول المناسب للفقرة المناسبة للمادة المناسبة ، فهى تختلف من مادة خبرية الى قصصية الى مقالية مثلا ، مع غلبة طابع الفقرات القصيرة٠

ـــ كون كل فقرة عبارة عن وحدة واحدة متماسكة وقائمة بذاتها٠

ـــ كون كل فقرة مما تتضمن فكرة واحدة رئيســـية ، أو فرعية ، تتناول من زاوية جديدة أو مختلفة ٠

— كون فقرات البداية عنده أشد قصرا وتماسكا من فقرات الوسط فى أغلب الأحوال ..

— وضوح الفقرة فى مجموعها ، وبساطتها وسهولة توجهها الى الأذهان .

— أن يكون ارتباطها بالفقرة السابقة عليها أو انفصالها عنها يعود الى الفكرة ذاتها ، والى المادة نفسها وطبيعتها . فهى على المستوى الاخبارى، غيرها على مستوى القصص والتحقيقات غيرها على مستوى المقالات . كما أن ذلك راجع الى أهمية المادة نفسها . وضرورة هذه الفقرة بالنسبة للنص كله .

— كذلك فقد حفلت هذه الفقار الجاحظية بفضيلة أخرى ، تلك هى عدم التردد بين الجمل القصيرة جدا والطويلة جدا ، داخل اطار الفقرة الواحدة . بحيث يحدث نوع من الاقتراب والتماثل والتشابه بين طول العبارات المكونة للفقرة .

— وهى لم تزخر بالروابط ، والجمل الاعتراضية والاسماء الكثيرة والطويلة والمركبة ..

— وجود نوع من التسلسل المنطقى للافكار الرئيسية والفرعية ، بحيث تقود هذه الى تلك ، والى الثانية والثالثة ، حتى الفقرة الأخيرة .. وهكذا .

لا نترك ذلك كله . دون الاشارة الى عدد من الأمثلة الدالة عليه ، من المعين الجاحظى الكبير ، ومما سبق أن قدمنا عدة سطور منه ، أو من سطور جديدة لم نقدمها خلال الصفحات السابقة .

فالجاحظ كان يعنى بانتخاب الفاظه التى تؤدى الغرض وتوصل الى المعنى وتكون أكثر ملاءمة له . واتفاقا مع الفهم والذوق ، ومع صدق التعبير وواقعيته ودقته ، فى نفس الوقت الذى يكون فيه اللفظ عاديا سهلا بسيطا ، وليس ضخما غريبا وحشيا حتى أنه استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية .

والمترجمة القريبة من الأذهان ، كما كان عدد حروفها قليلا ، وكانت هى غير متنافرة ، ولم يحدث الصراع أو التنافس بينها حرفا ولفظا ٠٠

●● انظر مثلا الى هذه الألفاظ كلها التى لم يستخدمها غيره الا قليلا ، أو كان يخاف استخدامها أو لا يقدر عليه بينما تبدو عادية جدا فى ثنايا بيانه ٠

« الدماغ ـ الخيشوم ـ الشحمه ـ الاقتصاد ـ المسلمات ـ البشم ـ التخمة ـ الوعاء ـ النشرة ـ التشنيع ـ الاخبار ـ المعـــاش ـ الــكرة المحامى ـ المزاح ـ الدمائة ـ الضاحك ـ المضحك ـ التركيب ـ المـــادة ـ العلة ـ الآلة ـ الفلاحة ـ المعارضة ـ السلامة ـ النمو ـ قط ـ النزهة ـ العدة ـ الخفى ـ الشاهد ـ الوافر ـ الرئاسة ـ النتاج ـ التقويم ـ الآثار ـ الخطر ـ الفرقة ـ المسلوق ـ المالح ـ السمن ـ الشواء ـ التعـــارف ـ الدليل ـ الوقاح ـ المناضلة ـ الحيارى ـ الاذاعة ـ الجماد ـ الأفلاك » ٠

●● وانظر كذلك الى هذه الطائفة من الكلمات والتعبيرات الشعبية وروح الفكاهة التى تسرى فى هذه الاوصاف :

« سقط على أنفه الذباب ـ من غير أن يحرك أرنبته ـ مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ـ عدوت منه شوطا لم أتكلف مثله منذ كنت صبيا ـ وكان مربعا ـ وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ـ وتحسبه مدورا ـ ان شئت فأكله وموتة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة ـ اللهم العن هـذه الصلعة ! ـ كان اماما فى البخل ـ ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ـ كان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه ـ يأكل بعشرة ـ الكظيظ ـ شق قميصه من الطرب ـ النشال ـ اللكام ـ النباش ـ النشاف ـ المصاص ـ الثهاش » ٠

الى غير ذلك من الكلمات والتعبيرات الشعبية والعامية والفكهة ٠٠

●● **وانظر كذلك الى هذه التراكيب العديدة والسهلة التى وردت ضمن كتابات الرجل مما يذكرنا بتعبيرات وتراكيب كبار كتاب المقال فى صحف اليـــوم :**

« كاد الشاعر يخرج من جلده – شـاهد عيان – الحمـد المركب – أعجزتهم الحيلة – دارت بهم الحال – أرباب الوديعة – أخبر الخلق – تعظيم البيان – صاحب الخير – صاحب الشر – ذوات الاقتصاد – وقعت بين نابى أسد ... الخ » ..

●● كذلك ، فقد كان من معالم أسلوبه – كما ذكرنا – الذى يقترب من الأسلوب الصحفى كثيرا أن عباراته كانت قصيرة متماسكة ، بحيث لم يزد طولها عن عشر كلمات الا فى القليل النادر ، بينما دارت معظمها حول نصف هذا العدد من الكلمات ، وفى أحيان كانت تقل عن خمس أيضا ، بل وكانت عنده المقدرة على أن يقدم لنا عبارات عديدة تدور حول كلمتين او ثلاث فقط ، اقرأ معنا على سبيل المثال لا الحصر .. هذه الفقرة من بيانه :

« .. ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى هندى ، وبفارسى يونانى ! وبقديم مولد وبميت ممتع ! ومن لك بشىء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخفى والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده » (الحيوان جـ١ من المقدمة)..

الى غير ذلك كله ، من هذه الكلمات السهلة ، السلسلة المنسابة ، ومن العبارات القصيرة والفقرات أيضا .

والخلاصة ، أن الجاحظ فى هذا الجانب الصحفى من جوانبه ، عرف ككل صحفى آخر ، كيف يبحث عما يريد أن يقول ، وكيف يختاره من بين ما تجمع لديه من محصوله ؟ ثم كيف يعبر عن ذلك ، بالطريقة التى يفهمها أكثر القراء ؟ . لقد عرف ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ وبأى أسلوب أيضا ؟

وكما قلنا .. لا نترك هذا المجال ، دون اشارة الى أقوال الرجل نفسها التى تتصل بهذه الأمور من ألفاظ وتعبيرات وأساليب أزعم عن يقين أنها تصلح تماما ، لتعطى فى قاعات الدرس الصحفى ، وفى معامل التحرير على وجه الخصوص .. ان من بينها على سبيل المثال ، هذه الأقوال :

● « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى

نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجـــزل للجـزل والافصاح فى موضع الافصاح والكناية فى موضع الكناية والاسترسال فى موضع الاسترسال » (٢١) ٠

● « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت بعد امتحان سواها — ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » (٢٢) ٠

● « ٠٠٠ وانما الألفاظ على أقدار المعانى فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها ٠٠٠ » (٢٣) ٠

● « ٠٠٠ وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه » (٢٤) ٠

● « ٠٠ ومتى كان اللفظ أيضا كريما فى نفسه ، متخيرا فى جنسه، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب اليه النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت القلوب » (٢٥) ٠

وبعـــد ٠٠

فهذا رجل أخذ من كل بستان زهرة ٠
وروى الأخبار التى كانت حالية ساخنة وقت روايتها ٠
وسعى وانتقل من مكان لمكان ورحل طلبا لها وللعلم والثقافة ٠
وكانت له مصادره العديدة المسموعة والمقروءة معا ٠
وصور عصره أبلغ تصوير بما فيه ومن فيه ٠
بدقة ، وموضوعية ، وفى اختصار ٠
ولم يهتم كثيرا بالصنعة أو الزخرف أو الوسائل البيانية ٠
ولم يهتم كثيرا بالخيال ٠٠ بل هو الواقع ٠
وهو المعنى قبل اللفظ ٠٠

فضلا عن انه قرأ كل فن معروف ، ومارس كل علم معروف ، وسعى وراء كل فكر معروف ٠٠

واقتحم كل الآفاق الجديدة التى أنتجها عصره ، وسبق غيره باقتحامها، بل كان من المبشرين بها ٠٠

وكان بكل ذلك ، أكثر الكاتبين فى عصره الذين أقبل القراء عليهم بكل شغف وعجب أيضا ٠

وما يزال أكثر كتاب عصره الذين يقبل عليهم القارىء ٠٠ حتى اليوم ، بعد أن نجحت كتاباته بكل هذا الذى توافر لها من أن تعبر القرون ، وتصل الينا وبعضها كأنه كتب بالأمس القريب فقط ، وبعضها الآخر كأنه كتب اليوم٠٠

ولو عاش الرجل بين ظهرانينا ، لكان أحد الأفذاذ من كتـاب عصرنا أيضا ولسعت من ورائه نوعيات كثيرة من الصحف والمجلات ، ولاحتل بين محرريها مكانا بارزا ومرموقا ، وما كان أجدره بذلك ٠ ٠وهـــو الأديب الصحفى ٠٠ معا ٠٠ أو هكذا أردت أن أقول ٠

هوامش هذا الفصل :

(١ ـ ٢) أحمد الشايب : « الأسلوب » ص ٤٥ ٠
(٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » ص ٢٢٢
(٤ ـ ٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ ٠
(٦) من بينهم الأساتذة الدكاترة المرحوم عبد اللطيف حمزة ، والمرحوم حسنين عبد القادر ، و أ٠د٠ ابراهيم امام ، وغيرهم ٠
(٧ ـ ٨) محمود فهمى : « فن تحرير الصحف الكبـــرى » ص ٣٠، وما بعدها ٠
(٩) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحفى » ص١٣
(١١ ـ ١٢ ـ ١٣) عبد العزيزشرف : «اللغة الاعلامية » ص ١٩٧، ١٩٩
(١٤) محمود أدهم : « المقال الصحفى » ص ٢٤٣ وما بعدها ٠
(١٥) الجاحظ : « البخلاء » ص ٤٥٢ نقلا عن د٠ طه الحاجرى ٠
(١٦ ـ ١٧) جميل جبر : « الجـــاحظ فى حيـــاته وأدبه وفكره » ص ١٤٩ ، ١٤٥ ٠
(١٨) شوقى ضيف : « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ١٦٣ ٠
(١٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٥٥ ٠
(٢٠) شوقى ضيف : « الفن ومذاهبه فى النثر العربى »ص ١٦٤ ٠
(٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » جـ ٣ ص ٣٩ ٠
(٢٢) المصدر السابق ص ٣٦٨ ٠
(٢٣) المصدر السابق ، حـ ٧ ص ٧ ، ٨ ٠
(٢٤) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ٢ ص ٧٣ ٠
(٢٥) المصدر السابق حـ ٢ ص ٨ ٠

أهم مراجع الكتاب ومصادره

اولا ـ معاجم وقواميس

١ ـ ابراهيم أنيس وآخرون : « **المعجم الوسيط** » مجمع اللغة العربية ، القاهرة ·

٢ ـ أحمد محمد على المقرى الفيومى : « **المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير** » المطبعة الأميرية ، مصر ·

٣ ـ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى : « **مختار الصحاح** » وزارة المعارف ، مصر ·

٤ ـ ياقوت الحموى : « معجم الأدباء » دار المأمون ·

ثانيا ـ مصادر جاحظية

٥ ـ البخلاء : تحقيق طه الحاجرى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة١٩٤٨
البخلاء + ضبط وشرح أحمد العوامرى وعلى الجارم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٣٩ ·

٦ ـ الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون ، م الحلبى ، القاهرة ١٩٣٨ ·

٧ ـ البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ·

٨ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، م الخانجى ، القاهرة ١٩٤٣ ·

٩ ـ التربيع والتدوير : تحقيق فوزى عطوى ، الشركة اللبنانية ، بيروت·

١٠ ـ البرصان والعرجان ··· الخ : تحقيق محمد مرسى الخولى ، د · الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٢ ·

ثالثا ـ كتب مختلفة

١١ ـ أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيدة : « **المخصص** » وزارة المعارف القاهرة ·

١٢ ـ اجلال خليفة : « **اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحفى** » م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ٧٢/٧٣ ·

١٣ ـ اجلال خليفة : : **الصحافة** » م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦·

١٤ ـ اجلال خليفة · « **علم التحرير الصحفى** ·· » م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ ·

١٥ ـ أحمد الاسكندرى وزميله : «**الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه**» المطبعة الرحمانية ، القاهرة ·
١٦ ـ أحمد الشايب : « **الأسلوب** » م· النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٧٦ ·
١٧ ـ أحمد فريد الرفاعى : « **عصر المأمون** » دار الكتب ، القاهرة ·
١٨ ـ أحمد كمال زكى : « **الجاحظ** » هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ·
١٩ ـ أحمد عبد الغفار عبيد : « **أدب الفكاهة عند الجاحظ** » القاهرة ، ١٩٨٢
٢٠ ـ أحمد يوسف محمد خليفة : « **نشأة النقد الأدبى حتى نهاية القرن الأول الهجرى** » م · الثقافة القاهرة ، ١٩٨٢ ·
٢١ ـ السباعى بيومى : « **تاريخ الأدب العربى** » مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٨ ·
٢٢ ـ بدوى طبانة : « **البيان العربى** » م· الأنجلو المصرية ، ط٢ ، القاهرة ·
٢٣ ـ بدوى طبانة : « **علم البيان** » م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ·
٢٤ ـ توفيق الحكيم : « **فن الأدب** » مكتبة الآداب ، القاهرة ·
٢٥ ـ جميل جبر : « **الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره** » د· الكتاب اللبنانى ، بيروت ·
٢٦ ـ حسن السندوبى : « **أدب الجاحظ** » المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣١ ·
٢٧ ـ حسنين عبد القادر : « **الصحافة كمصـــدر للتاريخ** » م· الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ·
٢٨ ـ حنا الفاخورى : « **الجاحظ** » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ·
٢٩ ـ خليل صابات : « **الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم** » دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ ·
٣٠ ـ خليل صابات : « **وسائل الاتصال : نشأتها وتطورها** » م· الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٤ ·
٣١ ـ راجى صهيون : « **مدخل الى علم الصحافة** » مترجم عن ف· فريزر بوند ، مؤسسة أ· بدران ، بيروت ·
٣٢ ـ زكى مبارك : « **أدب القــرن الرابع** » دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ ·
٣٣ ـ شوقى ضيف : « **الفن ومذاهبه فى النثر العربى** » ط ٦ دار المعارف ، القاهرة ·
٣٤ ـ شوقى ضيف : « **النقد** » دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ ·
٣٥ ـ طه الحاجرى : « **الجاحظ : حياته وآثاره** » دار المعارف ، القاهرة ·
٣٦ ـ طه حسين : « **حديث الأربعاء** » م· التجارية ، القاهرة ١٩٤٨ ·
٣٧ ـ طه ندا : « **الأدب المقارن** » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ·

٣٨ ــ عبد العزيز الغنام : « **مدخل الى علم الصحافة** » جـ ١ . م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ·

٣٩ ــ عبد العزيز شرف : « **فن المقال الصحفى** » دار المعارف . القاهرة ١٩٨١ ·

٤٠ ــ عبد العزيز شرف : « **اللغه الاعلاميه** » المركز الثقافى الجامعى . القاهرة ١٩٨٠ ·

٤١ ــ عبد اللطيف حمزة : « **مستقبل الصحافة فى مصر** » دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٥٧ ·

٤٢ ــ عبد اللطيف حمزة : « **المدخل فى فن التحرير الصحفى** » دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ·

٤٣ ــ محمد أحمد خلف الله : « **دراسات فى الأدب الاسلامى** » لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤ ·

٤٤ ــ محمد زغلول سلام : « **دراسات فى الأدب العربى** » منشأة المعارف . الاسكندرية ·

٤٥ ــ محمد غنيمى هلال : « **الادب المقارن** » دار النهضة مصر ، القاهرة ·

٤٦ ــ محمد مصطفى غنيم : « **مخبرو الصحف** » مترجم عن د· بوتر . دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦١ ·

٤٧ ــ محمود أدهم : « **فن الخبر** » دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٩ ·

٤٨ ــ محمود أدهم : « **فن تحرير التحقيق الصحفى** » دار الشعب .القاهرة ١٩٧٩ ·

٤٩ ــ محمود أدهم : « **الفكرة الاعلامية** » دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣ ·

٥٠ ــ محمود أدهم : « **المقال الصحفى** » م· الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ ·

٥١ ــ محمود أدهم : « **التعريف بالمجلة** » م · الثقافة . القاهرة ١٩٨٥ ·

٥٢ ــ محمود أدهم : « **الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام** » القاهرة ١٩٨٥ ·

٥٣ ــ محمود فهمى : « **فن تحرير الصحف الكبرى** » هيئة الكتاب . القاهرة

٥٤ ــ نبيل راغب : « **دليل الناقد الأدبى** » م· غريب . القاهرة ١٩٨١ ·

محتوى الكتاب

الموضوع		الصفحة

تم بحمد الله

ويليه بعونه تعالى كتاب جديد

فى سلسلة

فنون التحرير الصحفى

بين الأصالة والمعاصرة

(الجاحظ)

هذا الكتاب وغيره من الآثار العلمية للمؤلف

الدكتـور محمـــود أدهم تطلب من :

- وكالة الأهرام للتوزيع . شارع الجلاء بالقاهرة ·
- مكتبة الانجلو المصرية : ١٦٥ ش محمد فريد بالقاهرة ·
- دار الفكر العربى : ١٦ أ ، ١١ ش جواد حسنى بالقاهرة ·
- دار الشعب : ش قصر العينى بالقاهرة ·
- دار الثقافة للطباعة والنشر : ش كامل صدقى بالفجالة بالقاهرة
- المركز العربى للصحافة : ٢٣ ش قصر النيل بالقاهرة ·
- عالم الكتب : ٢٨ ش عبد الخالق ثروت بالقاهرة ·
- دار الفكر الحديث : ١٥ ش شريف بالقاهرة ·
- دار النهضة المصرية : شارع عدلى بالقاهرة ·

ومن المؤلف :

ص ب ٥٠٤٦ هليوبوليس غرب / القاهرة
او ٢٥ ش محمد فريد / مصر الجديدة / شقة ٤١ ·
ت ٢٤٢٢٤٢٨

رقم الايداع ٣٤٦١ / ٨٦

مؤلفات الدكتور : محمود أدهم
فى الاعـــلام الصحفى

١ ـ فى الخبر ·
٢ ـ التحقيق الصحفى ·
٣ ـ مقدمة فى التحرير الاخبارى ·
٤ ـ هم والصحافة ·
٥ ـ فن تحرير التحقيق الصحفى ·
٦ ـ المدخل فى فن الحديث الصحفى
٧ ـ دراسات فى التحرير الاخبارى ·
٨ ـ الفكرة الاعلامية ·
٩ ـ ماجريات الصحف ·
١٠ ـ دراسات فى فن الحديث الصحفى ·
١١ ـ المقال الصحفى ·
١٢ ـ الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام ·
١٣ ـ المقابلات الاعلامية ·
١٤ ـ التحقيق الأنموذجى وصحافة الغد ·
١٥ ـ التعريف بالمجلة ·
١٦ ـ جريدة الأهرام وفن التحقيق الصحفى ·
١٧ ـ فى عالم المجلة ·
١٨ ـ دراسات فى صحافة المجلة ·
١٩ ـ أدب الجاحظ ·· من زاوية صحفية ·

تحت الطبع للمؤلف :

١ ـ دراسات فى فن التحقيق الصحفى ·
٢ ـ عروش وأقلام ·